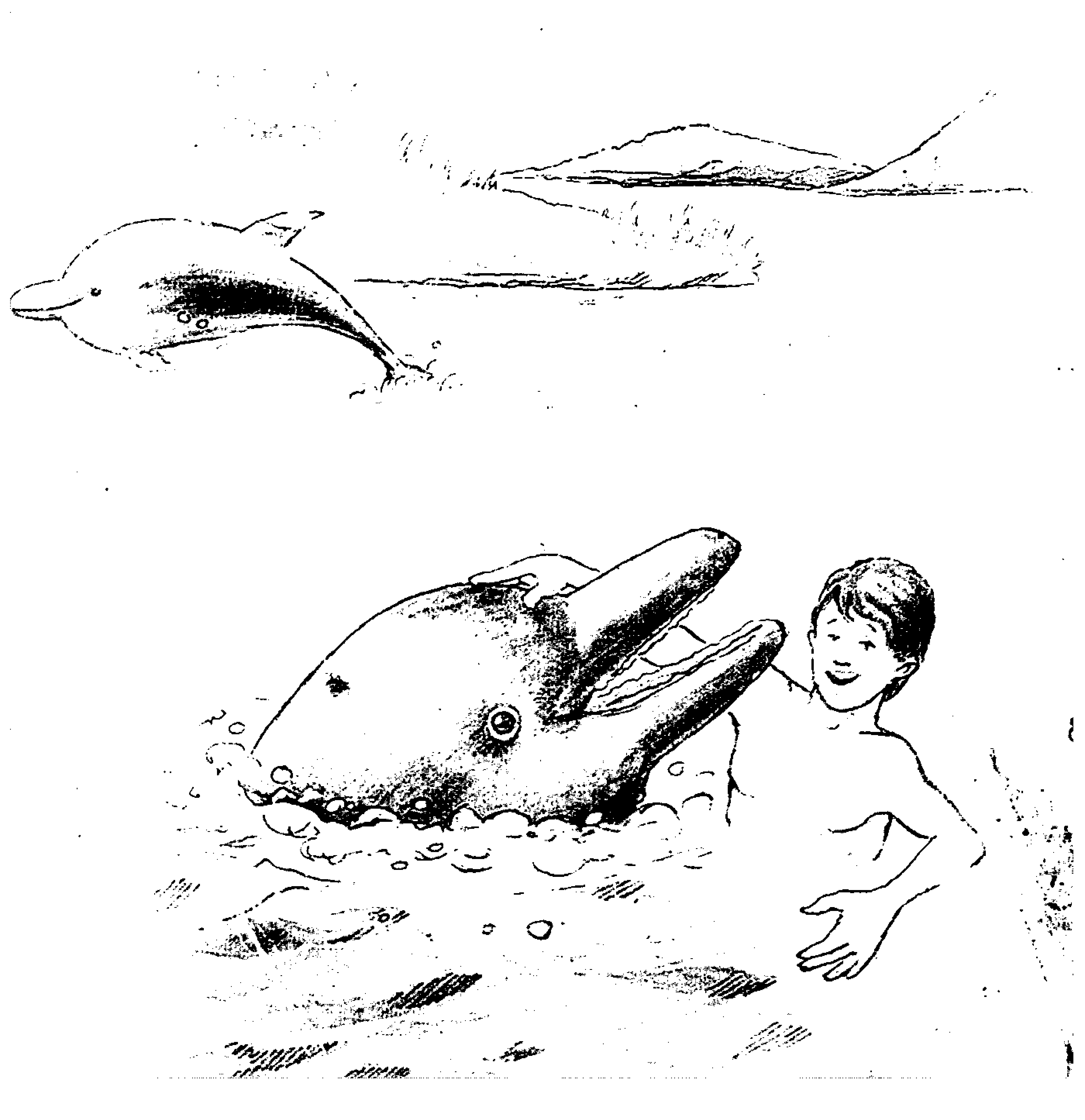
مغامرات إياد بن السندباد

سندباد
المغامرات المثيرة



مغامرات
إياد بن السندباد



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت: ٣٩٣٥٦٠٨ ؛ ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت: ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٤

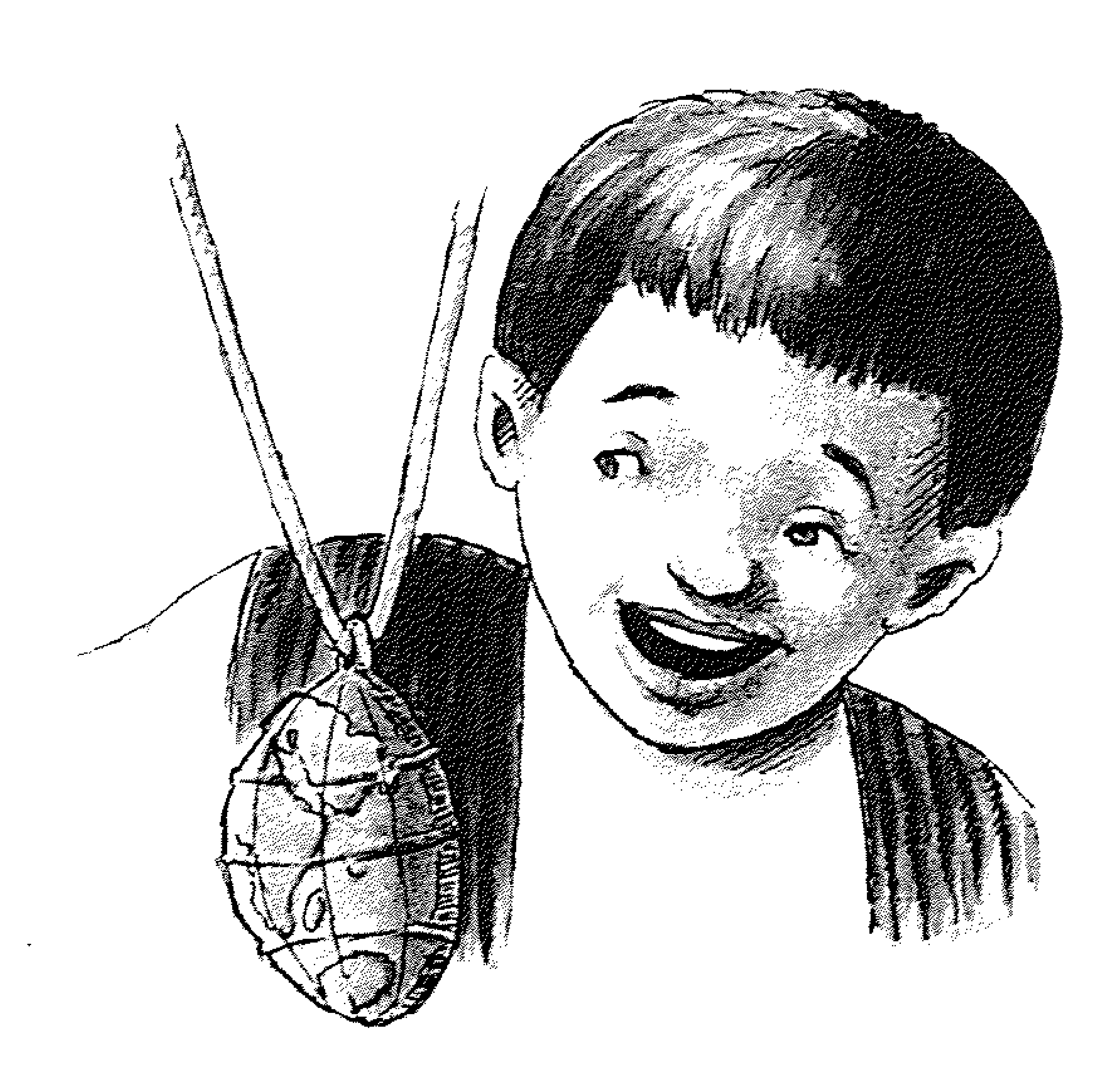
رقم الإيداع : ٧٥١١ / ١٩٩٣

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠١٣٩ - ٣

طبع في مطابع دار المعارف

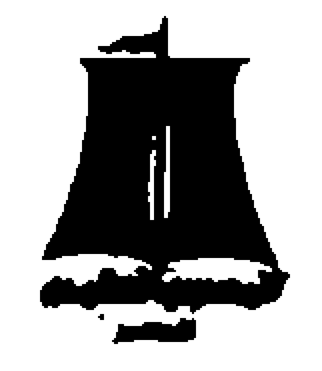


مغامرات إياد بن السندباد



تأليف : مسعد أبو الرجال

رسوم : جوزيف حكيم جرجس



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تَجْري أَحْداثُ هذهِ المُغامَرَة ، الَّتي قامَ بِها إيادُ بْنُ السِّنْدِبادِ، بَيْنَ البَصْرَةِ في العِراقِ ، وَقَليقوط Calicut في الهِنْد ، وسَرَنْديب (سِري لانْكا) ومَلَقَة (ماليزيا) ؛ لِيَصِلَ بِهِ التَّرْحالُ إلى بِلادِ واقِ الواقِ (ساحِلِ وايكيكي) في جَنوبِ جزيرَةِ أواهو Oahu إحْدى جُزُرِ هاواي .

وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ جُزُرِ واقِ الواقِ في قِصَّةِ « حَيِّ بْنِ يَقْظان » لابْنِ طُفَيْل . وَأَشارَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ خُرْداذْبَه في كِتابِهِ « المَسالِك والمَمالِك » إلى أنَّ مَوْضِعَ جَزيرَةِ واقِ الواقِ هُوَ « في مَشارِقِ بَحْرِ الصِّينِ» . وَذَهَبَ هذا المَذْهَبَ أَكْثَرُ الجُغْرافِيِّينَ العَرَبِ ، وَإنْ كانَ المَسْعوديُّ في مُؤَلَّفِهِ « مُروج الذَّهَب » قَدْ جَعَلَ مَوْضِعَها قُرْبَ زَنْجِبار .

وَأَوْرَدَ الإدْريسِيُّ في مُؤَلَّفِهِ « نُزْهَةُ المُشْتاقِ في اخْتِراقِ الآفاقِ » كَثيراً مِنَ الأَخْبارِ عَنْ جُزُرِ واقِ الواقِ ، وَسِيَّما ما يَتَعَلَّقُ بِشَجَرِها الَّذي عَلى صورَةِ نِساءٍ .

وَفي كِتابِ « مُخْتَصَر العَجائِب » المَنْسوبِ إلى إبراهيمَ بْنِ وَصيف شاه – يَرِدُ وَصْفٌ لِجُزُرِ واقِ الواقِ . وَأَشارَ مُطَهَّرُ بْنُ طاهِرِ المَقْدِسِيّ في كِتابِ « البَدْءُ وَالتَّاريخ » إلى شَجَرٍ يُعْرَفُ بِاسْمِ واقِ الواقِ يَحْمِلُ ثَمَراً كالرُّءوسِ الآدَمِيَّةِ.

وَيُشيرُ القَزْوينيُّ في كِتابَيْهِ « آثارُ البِلاد وَأَخْبارُ العِباد » وَ « عَجائِبُ المَخْلوقاتِ وَغَرائِبُ المَوْجودات » إلى واقِ الواقِ في مَعْرِض إيرادِهِ لِخَبَرٍ عَنْها يُطابِقُ إشارَةَ ابْنِ طُفَيْل لَها في قِصَّةِ « حَيّ ابْنِ يَقْظان » ؛ إذْ يقولُ إنَّها تَقَعُ في بَحْرِ الصِّين ، وَيَذْكُرُ أَنَّها سُمِّيَتْ بِهَذا الاسْمِ لأَنَّ بِها شَجَراً لَهُ ثَمَرٌ عَلى صورَةِ نِساءٍ مُعَلَّقاتٍ مِنْ شُعورِهِنَّ ، يُسْمَعُ مِنْهُنَّ صَوْتُ واق واق .

أَمَّا الدِّمَشْقِيُّ فَقَدْ ذَكَرَ في كِتابِهِ « نُخْبَةُ الدَّهْرِ في عَجائِبِ البَرِّ وَالبَحْر » أَنَّ واقَ الواق شَجَرٌ شَبيهٌ بِشَجَرِ الجَوْز ، يَحْمِلُ ثَمَراً عَلى صورَةِ إنْسانٍ .

وَيَذْكُرُ عُمَرُ بْنُ الوَرْدي في كِتابِهِ « خَريدَةُ العَجائِبِ وَفَريدَةُ الغَرائِبِ » أنَّ في جَزيرَةِ واقِ الواقِ شَجَراً يَحْمِلُ ثَمَراً كالنِّساءِ أجْساماً وَسيقاناً ، صِباحَ الوُجوهِ ، مُعَلَّقاتٍ بِشُعورِهِنَّ وَأنَّ مُسافِرينَ قَدْ رَأوْا بَعْضَ نِساءِ تِلْكَ الأشْجارِ .

وَيُسْتَخْلَصُ مِنْ ذَلِكَ أنَّ عَدَداً كَبيراً مِنَ الجُغْرافِيِّينَ وَالرَّحّالَةِ العَرَبِ – إنْ لَمْ يَكُنْ جُلُّهُمْ – قَدْ جَعَلوا مَوْضِعَ واقِ الواقِ في مَشارِقِ بَحْرِ الصِّينِ . وَمُعْظَمُهُمْ كانَ يَعْتَبِرُ تِلْكَ الجُزُرَ نِهايَةَ المَعْمورَةِ . كَما أنَّهُمْ في وَصْفِهِمْ لأشْجارِ تِلْكَ الجُزُرِ يَكادونَ يُجْمِعونَ عَلى أنَّها تَحْمِلُ ثَمَراً عَلى صورَةِ نِساءٍ .

وَقَدْ لَفَتَ نَظَري عِنْدَما مَرَرْتُ بِهاواي في طَريقي إلى كوالالمبور، عاصِمَةِ ماليزْيا ، عامَ ١٩٩٠ ، أنَّ لِبَعْضِ المَعالِمِ أسْماءً تَنِمُّ عَنْ أصْلِها العَرَبِيِّ ، مِثْلَ : شاهين ، أين هاينا (أين هنا) ، هليوه (حليوه) ، اللا موينا (اللهُ مُعين / اللهُ مَعَنا) ، وَذلِكَ عَلى سَبيلِ المِثالِ لا الحَصْرِ ؛ بَلْ وَرُبَّما كانَتْ كَلِمَةُ هونولولو تَحْريفاً لِكَلِمَةِ (هنا لؤلؤ) ؛ مِمّا يَدُلُّ عَلى احْتِمالِ وُصولِ بَعْضِ المَلّاحينَ أوِ التُّجّارِ العَرَبِ إلى تِلْكَ الجِهاتِ ؛ سَعْياً وَراءَ المُغامَرَةِ أوِ الرِّبْحِ أوْ كِلَيْهِما .

وَلَعَلَّ مِمَّا يُؤَكِّدُ هَذا أَنَّ وَصْفَ الجُغْرافِيِّينَ العَرَبِ لِبِلادِ واقِ الواقِ يَكادُ يَنْطَبِقُ عَلى خَليجِ وايكيكي . وَلا غَرابَةَ في تَحَوُّلِ حَرْفِ الكافِ في النُّطْقِ العَرَبِيِّ إلى قافٍ ؛ فَقَدْ جَرَتْ عادَةُ العَرَبِ عَلى تَفْخيمِ الأَلْفاظِ الأَعْجَمِيَّةِ ، الَّتي تَكونُ في الأَصْلِ مُرَقَّقَةً ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلاً (كاليكوت) في جَنوبِ غَرْبِيِّ الهِنْدِ الَّتي تُكْتَبُ في المَعاجِمِ القَديمَةِ (قليقوط) . وَقَدِ اتَّبَعَ الجُغْرافِيُّونَ العَرَبُ المُحْدَثونَ سُنَّةَ أَسْلافِهِمُ الأَقْدمينَ ؛ فَنَجِدُهُمْ يَكْتُبونَ (البَلْقان) بَدَلاً مِنَ البَلْكان، وَالبَلْطيقَ بَدَلاً مِنَ (البالتيك) وَهَلُمَّ جَرًا .

وَمِنَ الثَّابِتِ تاريخِيا أَنَّ التُّجّارَ العَرَبَ وَصَلوا في رِحْلاتِهِمْ إِلى الصِّينِ ، بَلْ وَإِلى كوريا شَمالاً ، مُنْذُ فَتْرَةٍ تَرْجِعُ إِلى القَرْنِ التَّاسِعِ الميلادِيِّ وَرُبَّما قَبْلَ ذَلِكَ . وَكانَتْ لَهُمْ جالِيَةٌ كَبيرَةٌ في تِلْكَ الأَصْقاعِ ، بَلْ كانَ لَهُمْ قُضاتُهُمْ مِنَ العَرَبِ الَّذينَ يَحْكُمونَ في قَضاياهُمْ طِبْقًا لِلشَّريعَةِ الإِسْلامِيَّةِ .

لكِنَّ مَوْضوعَ وُصولِ المَلاحينَ العَرَبِ إِلى أَرْخَبيلِ جُزُرِ هاواي ، أَوْ بِلادِ واقِ الواقِ في تِلْكَ الفَتْرَةِ، يَحْتاجُ إِلى مَزيدٍ مِنَ البَحْثِ لإِلقاءِ ضَوْءٍ عَلى جانِبٍ ما زالَ مَجْهولاً، وَلَمْ يَنَلْ بَعْدُ ما يَسْتَحِقُّ مِنَ الاهْتِمامِ . وَلَنْ يَكونَ البَحْثُ في هَذا المَجالِ يَسيراً ؛ لِعَدَم

تَوافُرِ المصادِرِ بِلُغَةِ أَهْلِ هاواي الأَصْلِيَّةِ ، الَّتي رُبَّما كانَتْ تَحْفِلُ بِمَزيدٍ مِنَ المُفْرَداتِ العَرَبِيَّةِ الأَصْلِ .

وَتَتَكَوَّنُ لُغَةُ هاواي الحَديثَةُ الَّتي تُكْتَبُ حالِياً بِالأَحْرُفِ اللاتينِيَّةِ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ حَرْفاً ؛ وَهِيَ :

a, e, i, o, u, h, k, l, m, n, p, w.

وَمِنْ خَصائِصِ تِلْكَ اللُّغَةِ أَنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ مِنْ مُفْرَداتِها تَنْتَهي بِحَرْفٍ مُتَحَرِّكٍ كَما يَتَوَسَّطُ كُلَّ حَرْفَيْنِ ساكِنَيْنِ حَرْفٌ مُتَحَرِّكٌ ، وَقَدْ لا يَحْتَوي بَعْضُ الأَلْفاظِ عَلى حُروفٍ ساكِنَةٍ أَلْبَتَّةَ .

وَقَدْ يُلْقي بَعْضُ عاداتِ أَهْلِ هاواي اليَوْمَ مِنَ الضَّوْءِ ما يُسَهِّلُ البَحْثَ حَيْثُ تُقَصِّرُ المَصادِرُ اللُّغَوِيَّةُ ؛ فَالزّائِرُ لِتِلْكَ الجُزُرِ يَلْحَظُ أَنَّ نِساءَها ما زِلْنَ يُزَيِّنَّ رُءوسَهُنَّ وَنُحورَهُنَّ وَخُصورَهُنَّ بِأَكاليلِ الزَّهْرِ وَالوَرْدِ الزّاهِيَةِ الأَلْوانِ . فَلا غَرْوَ أَنْ كانَ يُخَيَّلُ لِمَنْ رَآهُنَّ عَنْ بُعْدٍ وَقَدِ اخْتَبَأْنَ خَلْفَ الأَشْجارِ الكَثيفَةِ المُلْتَفَّةِ الأَغْصانِ – وَهَذا طَبيعِيٌّ عِنْدَ قُدومِ بَحّارَةٍ أَغْرابٍ – وَكَأَنَّهُنَّ بَعْضُ تِلْكَ الأَغْصانِ ، حَتَّى إِذا انْفَلَتْنَ مِنْ مَكانِهِنَّ لِسَبَبٍ أَوْ لآخَرَ ، خُيِّلَ لِلرّائي وَكَأَنَّهُنَّ ثِمارٌ سَقَطَتْ مِنْ أَكْمامِها .

وَمِنَ الجَلِيّ أنَّ بُعْدَ جُزُرِ هاواي عَنْ طُرُقِ المِلاحَةِ الرَّئيسيَّةِ المَألوفَةِ ، وَعَدَمَ تَميُّزِها بِمُنْتَجاتٍ تُغْري التُّجّارَ بِارْتِيادِها ، بِالإضافَةِ إلى مَشاقِّ الرِّحْلَةِ وَأهْوالِها عَبْرَ المُحيطِ الهادِئِ الّذي يَخْلو مِنْ مَعالِمَ مِلاحِيَّةٍ هامَّةٍ ، كانَ السَّبَبَ الرَّئيسِيَّ في أنَّ ما كَتَبَهُ الجُغْرافِيُّونَ العَرَبُ عَنْها كانَ يَلُفُّهُ الغُموضُ ، حَتّى غَدا أقْرَبَ إلى الخَيالِ مِنْهُ إلى الحَقيقَةِ .

وَقِصَّةُ « مُغامَرات إيادِ بن السِّنْدِباد » الّتي نُقَدِّمُها لأبْنائِنا الأعِزّاءِ ، هِيَ قِصَّةُ فَتًى عَرَبِيٍّ نَشَأَ في مَدينَةِ البَصْرَةِ ، الّتي كانَتْ مِنْ أهَمِّ مَوانِئِ العالَمِ الإسْلامِيِّ ، بَلْ مِنْ أهَمِّ مَوانِئِ العالَمِ قاطِبَةً. تَعَلَّمَ إيادٌ في مَدارِسِ تِلْكَ المَدينَةِ ، وَلَعِبَ في مَلاعِبِها مَعَ أقْرانِهِ ؛ فَامْتَطى صَهَواتِ الجِيادِ ، وَلَعِبَ بِالكُرَةِ وَالصَّوْلَجانِ (أصْلُ لُعْبَةِ البُولو) ، وَسَبَحَ في مِياهِ دِجْلَةَ وَالفُراتِ ، وَغاصَ في مِياهِ الخَليجِ العَرَبِيِّ كَما يَغوصُ صَيّادو اللُّؤْلُؤِ ، وَرَمى بِالقَوْسِ وَالنُّشّابِ .

وَحَفَلَتْ خِزانَتُهُ بِكُلِّ طَريفٍ مِنْ تُحَفِ ذَلِكَ العَصْرِ الذَّهَبِيِّ ؛ فَكانَ مِنْ بَيْنِ تُحَفِهِ ساعَةٌ دَقّاقَةٌ أهْداها إلَيْهِ عَمُّهُ . وَكانَ اقْتِناءُ تِلْكَ السّاعاتِ قَدْ أصْبَحَ شائِعاً بَيْنَ وُجَهاءِ القَوْمِ ، بَعْدَ عَصْرِ هارون

الرَّشيد (١٧٠ - ١٩٣هِجْريَّة / ٧٨٦ - ٨٠٩ ميلاديَّة) الَّذي يُسَجِّلُ التَّاريخُ أنَّهُ أهْدى واحِدَةً مِنْها لِمُعاصِرِهِ شارلمان إمبراطور الفِرِنْجَةِ ؛ فَفَزِعَ مِنْها رِجالُ البَلاطِ ظَنًا مِنْهُمْ أنَّها مِنْ عَمَلِ الجِنِّ.

ورَكِبَ إيادٌ البَحْرَ لِيَبْدَأَ رِحْلَةَ البَحْثِ عَنْ أبيهِ السِّنْدِبادِ ، الَّذي انْقَطَعَتْ أخْبارُهُ ، فَرَمَتْ بِهِ الأقْدارُ إلى جُزُرٍ مَجْهولَةٍ حَتَّى انْتَهى بِهِ التَّرْحالُ إلى شاطِئِ وايكيكي أوْ بِلادِ واقِ الواق . وَقَدْ تَعَرَّضَ أثْناءَ ذَلِكَ إلى أهْوالٍ وَمَشاقَّ ، واجَهَها بِما تَوافَرَ لَهُ مِنْ عُلومٍ وَمُبْتَكَراتٍ تَوَصَّلَ إلَيْها العُلَماءُ العَرَبُ ؛ فاسْتَخْدَمَ البُوصَلَةَ والأسْطُرْلابَ لِتَحْديدِ المَعالِمِ المِلاحِيَّةِ ؛ وَعِنْدَما هاجَمَ القَراصِنَةُ سَفينَتَهُ اسْتَخْدَمَ المَجانيقَ لِصَدِّهِمْ ؛ وَفي مُعامَلاتِهِ المالِيَّةِ كانَ يَسْتَخْدِمُ الصُّكوكَ عِنْدَ اللُّزومِ . وَمِنْ نافِلَةِ القَوْلِ أنَّ الصَّكَّ هُوَ الأصْلُ العَرَبِيُّ لِلَفْظَةِ (شيك) المُسْتَخْدَمَةِ اليَوْمَ في المُعامَلاتِ المالِيَّةِ .

وَأرْجو أنْ تَحوزَ هَذِهِ القِصَّةُ إعْجابَ أبْنائِنا الأعِزَّاءِ في وَطَنِنا العَرَبِيِّ . وَأسَجِّلُ شُكْري وَامْتِناني لِكُلِّ مَنْ حَثَّني عَلى المُضِيِّ في هَذا العَمَلِ حَتَّى اكْتَمَلَ بِهَذِهِ الصّورَةِ .

وَقَدْ كانَ لِلْمُلاحَظاتِ القَيِّمَةِ الَّتي أبْداها عَدَدٌ مِنَ الأصْدِقاءِ الَّذينَ اطَّلَعوا عَلى هَذِهِ القِصَّةِ في بِداياتِها الأولى وَجاهَتُها ؛ مِمَّا

حَدا بي إلى أخْذِها في الاعْتِبارِ ما وَجَدْتُ إلى ذَلِكَ سَبيلاً . وَأخُصُّ بِالشُّكْرِ في هَذا الصَّدَدِ الأصْدِقاءَ عبدَ الرَّحْمن شاكِر وَرجب الشّاعر وَسَمير الشيشكلي . وَأوَجِّهُ شُكْري أيْضاً لِبَقِيَّةِ الأصْدِقاءِ مِمَّنْ لا يَتَّسِعُ المَقامُ لِذِكْرِ أسْمائِهِمْ .

نيويورك ، رمضان ١٤١٣ هجريّة　　　　**المؤَلف**

فبراير ١٩٩٣ ميلاديّة

الفصل الأوّل

البَصْرَة

في أحَدِ القُصورِ الجَميلَةِ بِمَدينَةِ البَصْرَةِ الواقِعَةِ عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرَيْ دِجْلَةَ وَالفُراتِ ، بِالقُرْبِ مِنَ الخَليجِ العَرَبِيِّ ، وُلِدَ إِيادُ بْنُ السِّنْدِبادِ البَحّارِ المُغامِرِ المَشْهورِ . وَكانَتْ أُمُّ إِيادٍ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَحَدِ سَلاطينِ مَلَقا ، قَدْ تُوُفِّيَتْ إِثْرَ حُمّى أَصابَتْها بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ مَوْلِدِهِ؛ حينَ كانَ أَبوهُ في إِحْدى رِحْلاتِهِ ، فَتَوَلَّتْ رِعايَتَهُ جَدَّتُهُ لأَبيهِ ، وَكَفَلَهُ عَمُّهُ .

وَكانَ قَصْرُ السِّنْدِبادِ بَديعَ الطِّرازِ ، حَتّى إِنَّهُ كانَ مَطْمَعَ وُجَهاءِ المَدينَةِ بِمَنْ فيهِمُ الوالي ؛ فَكانَ القَصْرُ عَلى شَكْلٍ مُرَبَّعٍ يُحيطُ بِفِناءٍ فَسيحٍ تَتَوَسَّطُهُ نافورَةٌ تَنْطَلِقُ المِياهُ مِنْها ، وَتُحيطُ بِها أَشْجارٌ وَأَزْهارٌ مُخْتَلِفَةُ الأَلْوانِ تُدْخِلُ البَهْجَةَ في النُّفوسِ . وَفي رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ فِناءِ القَصْرِ كانَ ثَمَّ بُرْجٌ يُقالُ لَهُ مِصْيَدَةُ الهَواءِ ؛ وَهُوَ مِنْ

مُبْتَكَراتِ ذَلِكَ العَصْرِ ، فَكانَ الهَواءُ يَدْخُلُ مِنْ مَنافِذِهِ العُلْيا ، فَيَمُرُّ عَبْرَ قَنَواتٍ مُتَّجِهَةٍ إلى أَسْفَلَ ، لِيَمُرَّ بَعْدَ ذَلِكَ في قَنَواتٍ يَصِلُ إِلَيْها الماءُ . فَإذا لامَسَ الهَواءُ القَنَواتِ الَّتي امْتَلأَتْ ماءً بارِداً تَسَلَّلَ إلى القَصْرِ مِنْ مَنافِذَ مُهَيَّأَةٍ لِذَلِكَ ؛ فَلَطُفَ الجَوُّ فيهِ فَلا يَكادُ أَحَدٌ يُحِسُّ بِالحَرِّ .

وَفي طَرَفٍ قَصِيٍّ مِنْ أَطْرافِ حَديقَةِ القَصْرِ ، كانَتْ ثَمَّةَ حَظيرَةُ خُيولِ السِّنْدِبادِ ، وَفيها المُهْرُ رَباحُ الَّذي أُهْدِيَ لإيادٍ يَوْمَ مَوْلِدِهِ ، وَكانَ مُهْراً أَبْيَضَ اللَّوْنِ مِنْ سُلالَةِ الخُيولِ العَرَبِيَّةِ الأَصيلَةِ ، الَّتي لا يَمَلُّ النَّاظِرُ إِلَيْها مِنْ حُسْنِها . وَعَلى مَسافاتٍ مِنْ قَصْرِ السِّنْدِبادِ كانَتْ ثَمَّةَ قُصورٌ أُخْرى لِكُبَراءِ المَدينَةِ وَوُجَهائِها ؛ وَمِنْ بَيْنِها قَصْرُ عَمِّ إيادٍ ، الَّذي اتَّخَذَهُ كَأَحَدِ أَبْنائِهِ ، وَاهْتَمَّ بِتَعْليمِهِ عَلى يَدِ فُقَهاءِ البَصْرَةِ وَعُلَمائِها وَشُعَرائِها ، كَما عَلَّمَهُ فُنونَ الفُروسِيَّةِ ؛ فَنَشَأَ إيادٌ يُجيدُ تِلْكَ الفُنونَ ، كَما بَرَعَ في السِّباحَةِ وَالغَوْصِ كَشَأْنِ أَبْناءِ المَوانِئِ .

وَكانَتِ البَصْرَةُ في ذَلِكَ الوَقْتِ جَوْهَرَةَ المَدائِنِ ؛ لأَنَّها كانَتْ مُلْتَقى الطُّرُقِ البَحْرِيَّةِ ، فَكانَ ميناؤُها يَزْخَرُ بِالسُّفُنِ القادِمَةِ مِنْ شَتَّى بِقاعِ الأَرْضِ . وَكانَتْ شَوارِعُها مَرْصوفَةً وَمُضاءَةً بِقَناديلِ الزَّيْتِ لَيْلاً ؛ فَلا يُحِسُّ السَّائِرُ في شَوارِعِها بِالوَحْشَةِ . وَأَيْنَما تَوَجَّهَ

السَّائِرُ أَلْفى وُجوهًا لِبَحّارَةٍ قَدِموا مِنْ مُخْتَلِفِ بِقاعِ الأَرْضِ ؛ مِنَ الصِّينِ وَالهِنْدِ وَسومَطْرَةَ وَما وَراءَها .

وَكانَتْ أَسْواقُ البَصْرَةِ تَعجُّ بِالباعَةِ الَّذينَ تَخْتَلِطُ أَصْواتُهُمْ ، وَهُمْ يُنادونَ عَلى بَضائِعِهِمْ بِلُغَةِ كُلِّ رَهْطٍ مِنَ البَحّارَةِ يَتَجَوَّلُ في السُّوقِ. وَكانَتِ الحَرَكَةُ لا تَهْدَأُ في أَسْواقِ البَصْرَةِ لَيْلاً أَوْ نَهاراً ؛ وَكَثيراً ما انْقَلَبَ لَيْلُها نَهاراً بِوُصولِ سَفينَةٍ تَحْمِلُ عَلى مَتْنِها مِنْ كُنوزِ الشَّرْقِ وَتَوابِلِهِ ما يَجْعَلُ التُّجّارَ يَهْجُرونَ مَضاجِعَهُمْ ، وَيُهْرَعونَ إِلى حَوانيتِهِمْ فَيَفْتَحونَها ، وَيُعَلِّقونَ أَمامَها قَناديلَ الزَّيْتِ لاجْتِذابِ بَحّارَةِ تِلْكَ السُّفُنِ ، الَّذينَ ما إِنْ يُشاهِدوا عَلى البُعْدِ تِلْكَ الأَنْوارَ المُتَلأْلِئَةَ البَديعَةَ ؛ حَتّى تَتَمَلَّكَهُمْ رَغْبَةٌ شَديدَةٌ في النُّزولِ إِلى البَرِّ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا أَيّاماً وَرُبَّما شُهوراً دونَ أَنْ تَطَأَ أَقْدامُهُمُ اليابِسَةَ ، فَيُسارِعوا إِلى مُغادَرَةِ سَفينَتِهِمْ دونَ انْتِظارٍ لانْبِلاجِ الصُّبْحِ .

وَقَدْ ذاعَ صيتُ البَصْرَةِ كَميناءٍ عالَمِيٍّ يَؤُمُّهُ البَحّارَةُ وَالتُّجّارُ . وَكَثيراً ما طابَ المُقامُ لِبَعْضِهِمْ فيها فاتَّخَذوها لَهُمْ مَوْطِناً ؛ فَكانَ فيها أَقْوامٌ جاءوا مِنْ مِصْرَ أَوْ تونُسَ ، وَمِنْ حَضْرَمَوْتَ – مِثْلُ أُسْرَةِ السِّنْدِبادِ – وَمِنْ عُمانَ ، بَلْ وَشَرْقِ أَفْريقْيا وَمَلَقا ، وَمِنْ جاوَةَ وَسومَطْرَةَ .



وَكانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ وَفَدوا إلى البَصْرَةِ وَأقاموا بِها أسْرَةُ ابْنِ صَيْفور ، الّتي اقْتَصَرَتْ عَلَيْهِ وَعَلى ابْنَتِهِ حِمْنَةَ ؛ أمّا امْرَأتُهُ فَلَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ عَنْها شَيْءٌ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ عَنِ ابْنِ صَيْفورٍ ذاتِهِ إلّا النَّزْرَ اليَسيرَ ، وَكانَ الظَّنُّ الغالِبُ أنَّهُ جاءَ مِنَ الأنْدَلُسِ . وَقَلَّما كانَتِ ابْنَتُهُ حِمْنَةُ تَلْعَبُ مَعَ أتْرابِها مِنْ صَبايا البَصْرَةِ ، كَعادَةِ مَنْ هُنَّ في مِثْلِ عُمْرِها ؛ وَما كانَ أبوها لِيَدَعَها تَلْعَبُ مَعَهُنَّ كُلَّما تاقَتْ إلى ذَلِكَ ، بَلْ كانَ يَأمُرُها بِنَبْرَةٍ مُتَوَعِّدَةٍ بِتَرْكِ ما هِيَ فيهِ وَالإسْراعِ إلى مُساعَدَتِهِ في إدارَةِ الخانِ وَالحانوتِ اللَّذَيْنِ

يَمْلِكُهُما.

وَكانَ الخانُ مَقْصِدَ كَثيرٍ مِنَ البَحّارَةِ الّذين يأْوُونَ إليْهِ ؛ لِمَوْقِعِهِ القَريبِ مِنَ الميناءِ . أمّا الحانوتُ فَقَدْ ذاعَ صيتُهُ لأنَّهُ كانَ يَحْفِلُ بِكُلِّ ما هُوَ طَريفٌ وَغَريبٌ مِمّا يَحْرِصُ المُتْرَفونَ عَلى اقْتِنائِهِ ؛ فَكانَتْ فيهِ أنْواعٌ كَثيرَةٌ مِنَ الطُّيورِ النّادِرَةِ وَالحَيَواناتِ العَجيبَةِ ، فَضْلاً عَمّا تَزْدانُ بِهِ أرْفُفُهُ مِنْ صِناعاتِ ذَلِكَ العَصْرِ وَمُبْتَكَراتِهِ ، وَخاصَّةً مِمّا يَلْزَمُ السُّفُنَ في رِحْلاتِها . فَلا غَرْوَ أنْ شُغِفَ أهْلُ البَصْرَةِ بِالمُرورِ بِالقُرْبِ مِنْ ذَلِكَ الحانوتِ ؛ لإمْتاعِ أعْيُنِهِمْ وَإشْباعِ فُضولِهِمْ . وَلَمْ يَشِذَّ عَنْ ذَلِكَ إيادٌ وَأقْرانُهُ ؛ فَكانوا يَمُرّونَ عَلى ذَلِكَ الحانوتِ في ذَهابِهِمْ وَإيابِهِمْ تَرَقُّباً لِكُلِّ عَجيبٍ وَطَريفٍ .

لكِنَّ مَنْظَرَ السُّفُنِ في غُدُوِّها وَرُسُوِّها وَرَواحِها ، وَحَرَكَةَ البَحّارَةِ فَوْقَ ظُهورِها ، فَضْلاً عَنْ ضَجيجِ الباعَةِ – كانَ أكْثَرَ ما يَشُدُّ اهْتِمامَ صِبْيانِ البَصْرَةِ وَيَجْلُبُ المُتْعَةَ لَهُمْ ؛ فَكانوا يَقْضونَ ساعاتٍ مِنَ النَّهارِ وَرَدَحاً مِنَ اللّيْلِ يَتَأمَّلونَ السُّفُنَ وَمَلّاحيها ، وَيَحْلُمونَ بِالسَّفَرِ عَلى مُتونِها إلى حَيْثُ المُغامَرَةُ وَالثَّرْوَةُ . وَكانَ كَثيرٌ مِنْ أولَئِكَ الصِّبْيَةِ لا يَخْشى البَحْرَ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ نَشَأ يَعْمَلُ كَأبيهِ في حِرْفَةِ الغَوْصِ لِصَيْدِ اللُّؤْلُؤِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ مُساعِداً لِبَنّائي سُفُنِ « الدّاو » العَرَبِيَّةِ الشَّهيرَةِ .

وَكانَ يَحْلو لإيادٍ - مُنْذُ صِغَرِهِ - أَنْ يَنْطَلِقَ مَعَ أَقْرانِهِ عَلى صَهَواتِ الجِيادِ إلى الصَّحْراءِ غَرْبَ مَدينَةِ البَصْرَةِ ؛ فَيَتَسابَقوا أَوْ يَلْعَبوا لُعْبَةَ الكُرَةِ وَالصَّوْلَجانِ . وَلَمْ تَكُنِ الكُرَةُ إلّا إهابَ عَنْزَةٍ حُشِيَ بِقُماشٍ أَوْ ما شاكَلَهُ ؛ فَيَصيرُ مَنْفوخاً كالكُرَةِ . وَلَمْ يَكُنِ الصَّوْلَجانُ سِوى عَصاً مَعْقوفَةٍ مِنْ أَحَدِ طَرَفَيْها يُمْسِكُها اللّاعِبُ مِنْ طَرَفِها الآخَرِ . وَكانَ أَمْهَرُ اللّاعِبينَ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَسْتَخْلِصَها مِنْ غَريمِهِ لِيَقْذِفَ بِها إلى زَميلِهِ وَهُوَ فَوْقَ صَهْوَةِ جَوادِهِ .

وَفي أَحْيانٍ أُخْرى كانَ إيادٌ وَأَقْرانُهُ يَقْضونَ الوَقْتَ في الصَّيْدِ وَالقَنْصِ ؛ وَعِنْدَئِذٍ كانوا يَصْطَحِبونَ مَعَهُمْ صُقورَهُمْ وَكِلابَهُمُ المُدَرَّبَةَ . وَقَدْ أَنْقَذَ إيادٌ في إحْدى رِحْلاتِ الصَّيْدِ تِلْكَ ظَبْيَةً صَغيرَةً كادَتْ تَفْتِكُ بِها الذِّئابُ ، وَأَهْداها إلى ابْنَةِ عَمِّهِ نُهَيْلَةَ الَّتي فَرِحَتْ بِها كَثيراً ، وَجَعَلَتْ تُرْضِعُها مِنْ لَبَنِ الماعِزِ حَتّى صارَتْ تَتْبَعُها أَيْنَما ذَهَبَتْ ، كَأَنَّها أُمُّها .

الفصل الثاني

سَفينَةٌ مِنَ الشَّرْق

كَثيراً ما كانَ إيادٌ يَقْصِدُ إلى مَرْسى السُّفُنِ مَعَ أصْحابِهِ لِتَأمُّلِ السُّفُنِ ، أوْ صَيْدِ السَّمَكِ بِالشَّصِّ ، أوْ لِلْغَوْصِ مَعَ الفِتْيانِ الّذينَ اتَّخَذوا مِنْ صَيْدِ مَحارِ اللُّؤْلُؤِ حِرْفَةً لَهُمْ . وَكانَ أمْتَعُ وَقْتٍ يَقْضيهِ جالِساً فَوْقَ صَخْرَةٍ تُشْرِفُ عَلى الميناءِ ، يَنْظُرُ إلى السُّفُنِ ، وَيُطْلِقُ العِنانَ لأحْلامِهِ ، مُتَخَيِّلاً عَوْدَةَ أبيهِ في سَفينَتِهِ « زينَةُ البِحارِ » وَمَعَهُ مِنْ صُنوفِ الهَدايا كُلُّ غَريبٍ وَطَريفٍ ، وَلِيَحْكِيَ لَهُ ما لاقاهُ في رِحْلَتِهِ .

وَانْقَضَتْ أيّامٌ فَشُهورٌ فَأعْوامٌ دونَ أنْ تَتَحَقَّقَ الأحْلامُ ، بَلْ تَرَكَتْ مَكانَها لِلْهَواجِسِ : فَماذا لَوْ أنَّ أباهُ تَقَطَّعَتْ بِهِ الأسْبابُ في إحْدى الجُزُرِ البَعيدَةِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَمُدُّ لَهُ يَدَ العَوْنِ ؟

وَأخَذَ يُلِحُّ عَلى إيادٍ خاطِرٌ بِأنْ يَعْتَلِيَ مَتْنَ إحْدى السُّفُنِ وَيُقْلِعَ

بِها إلى البِحارِ المَجْهولَةِ ؛ لَعَلَّهُ يَعْثُرُ عَلى أبيهِ فَيَمُدُّ لَهُ يَدَ العَوْنِ .

وَأَسَرَّ إيادٌ إلى جَدَّتِهِ بِذَلِكَ الخاطِرِ ؛ فَانْتابَها الفَزَعُ ؛ فَهِيَ وَإِنِ انْفَطَرَ كَبِدُها حُزْنًا عَلى غِيابِ ابْنِها السِّنْدِبادِ – لَمْ تَكُنْ بِالَّتي تَرْضى أَنْ يُفارِقَها حَفيدُها إيادٌ بَحْثًا عَنْهُ ؛ فَقَدْ كانَ وُجودُهُ بِالقُرْبِ مِنْها مَصْدَرَ عَزائِها الوَحيدَ . وَلَمّا فاتَحَ إيادٌ عَمَّهُ في هَذا الأَمْرِ ؛ طَلَبَ إِلَيْهِ التَّرَيُّثَ إلى أَنْ يَكْبَرَ وَيَشْتَدَّ عودُهُ وَيَتَعَلَّمَ فُنونَ المِلاحَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ إيادٌ في ذَلِكَ الوَقْتِ قَدْ جاوَزَ بَعْدُ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَرَغْمَ أَنَّ التَّرَيُّثَ كانَ قاسِيًا عَلى نَفْسِهِ فَقَدْ آثَرَ عَدَمَ مُخالَفَةِ عَمِّهِ . وَشَرَعَ في تَعَلُّمِ فُنونِ المِلاحَةِ مِنْ فَوْرِهِ لِكَيْ لا يَكونَ لأَحَدٍ عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، فَجَعَلَ يَقْضي أَوْقاتًا طَويلَةً مُبْحِرًا في قارِبٍ شِراعِيٍّ في مِياهِ الخَليجِ العَرَبِيِّ ، وَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَحْسُبُ اتِّجاهَ الرِّيحِ ، وَأَتْقَنَ تَوْجيهَ الدَّفَّةِ وَالمُحافَظَةَ عَلى اتِّجاهِ القارِبِ ، وَ وَجَدَ في ذَلِكَ مُتْعَةً كَبيرَةً .

وَفي لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الصَّيْفِ الحارَّةِ سَمِعَ تُجّارُ البَصْرَةِ بِوُصولِ سَفينَةٍ ضَخْمَةٍ قادِمَةٍ مِنْ بَحْرِ الصّينِ وَعَلَيْها بِضاعَةٌ رائِجَةٌ . وَكانَ الحَريرُ وَالتَّوابِلُ أَهَمَّ ما تَجْلُبُهُ السُّفُنُ القادِمَةُ مِنَ الشَّرْقِ ، فَهُرِعَ التُّجّارُ إلى حَوانيتِهِمْ يَفْتَحونَها ، وَيَمَّمَ شَطْرَ الميناءِ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ

- كَدَأْبِهِمْ - لِلتَّرْويحِ عَنِ النَّفْسِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الحارَّةِ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ إيادٌ وأَصْحابُهُ . وَلَمّا وَصَلوا إلى الميناءِ جَلَسوا عَلى حافَةِ مَرْسى السُّفُنِ ، يَتَطَلَّعونَ إلى السَّفينَةِ وَهِيَ تُلْقي مَراسِيَها ، في حينَ انْهَمَكَ بَحّارَتُها في طَيِّ القُلوعِ وَتَنْفيذِ ما يُصْدِرُهُ الرُّبّانُ مِنْ أوامِرَ .

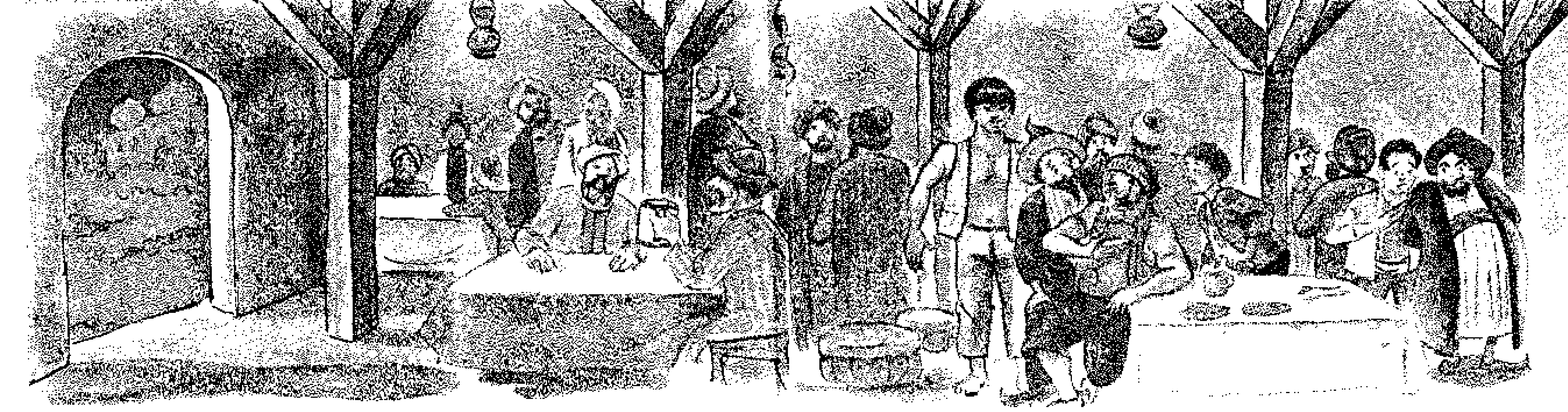
وَلاحَظَ حَنّا السُّروجِيّ صَديقُ إيادٍ شُرودَهُ ؛ فَسَأَلَهُ عَمّا بِهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ وَطَّدَ عَزْمَهُ عَلى الرَّحيلِ عَلى مَتْنِ تِلْكَ السَّفينَةِ مَهْما كَلَّفَهُ الأَمْرُ . وَسَمِعَ طَرَفاً مِنْ ذَلِكَ الحِوارِ سالِمٌ الحَبَشِيّ صَديقُ إيادٍ أيْضاً ، وَكانَ يَجْلِسُ إلى جانِبِهِ مِنَ النّاحِيَةِ الأُخْرى ؛ فَحاوَلَ عَبَثاً ثَنْيَهُ عَنْ عَزْمِهِ وَلَكِنَّهُ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ لَمّا رَأى تَصْميمَ إيادٍ .

الفصل الثالث

في خانِ ابْنِ صَيْفور

بَعْدَ أنِ اطْمَأنَّ الرُّبّانُ إلى أنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ على ظَهْرِ سَفينَتِهِ ، سَمَحَ لِلْبَحّارَةِ بِالنُّزولِ ، وَأمَرَ بَعْضَهُمْ بِالبَقاءِ عَلى ظَهْرِها لِحِراسَتِها . فَمُدَّتْ ألْواحُ النُّزولِ إلى البَرِّ ، وَانْطَلَقَ البَحّارَةُ يَتَصايَحونَ حامِلينَ مَعَهُمْ بِضاعَتَهُمْ ، وَالرُّبّانُ في إثْرِهِمْ ، قاصِدينَ خاناتِ البَصْرَةِ وَحوانيتَها . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ انْطَلَقَ إيادٌ وَرِفاقُهُ عائِدينَ إلى بُيوتِهِمْ . وَلَمَحَ إيادٌ رُبّانَ السَّفينَةِ وَبَعْضَ مَلّاحيهِ يُعَرِّجونَ عَلى خانِ ابْنِ صَيْفورٍ ، بَيْدَ أنَّهُ واصَلَ سَيْرَهُ مَعَ لِداتِهِ ، حَتّى إذا دَخَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ دارَهُ قَفَلَ إيادٌ راجِعاً إلى خانِ ابْنِ صَيْفورٍ .

وَكانَ دَأبُ إيادٍ – كُلَّما وَصَلَتْ سَفينَةٌ مِنْ إحْدى الجِهاتِ البَعيدَةِ – أنْ يَعْمِدَ إلى لِقاءِ رُبّانِها ؛ عَسى أنْ يَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئاً عَنْ أبيهِ . وَرَغْمَ مُرورِ تِلْكَ السَّنَواتِ الطَّويلَةِ لَمْ يَتَطَرَّقِ اليَأسُ إلى قَلْبِهِ ،



وَلَمْ يَفْقِدِ الأَمَلَ في عَوْدَةِ أَبيهِ .

وَلَمْ يُطِقْ إيادٌ صَبْرًا حَتّى الصَّباحِ ، فَآثَرَ لِقاءَ رُبّانِ تِلْكَ السَّفينَةِ مِنْ فَوْرِهِ . وَلَمّا بَلَغَ الخانَ جالَ بِبَصَرِهِ بَيْنَ الحاضِرينَ مِمَّنْ كانَ يَغَصُّ بِهِمُ المَكانُ ؛ فَلَمَحَ الرُّبّانَ جالِسًا إلى مائِدَةٍ في رُكْنٍ قَصِيٍّ ، وَأَمامَهُ أَطايِبُ الطَّعامِ وَالشَّرابِ . وَاتَّجَهَ إيادٌ إلى مائِدَةِ الرُّبّانِ مُباشَرَةً وَحَيّاهُ ، مُسْتَأْذِنًا إيّاهُ في الجُلوسِ . وَلَمّا أَذِنَ لَهُ بادَرَهُ قائِلاً :

« اِسْمي إيادٌ ، وَقَدْ جِئْتُ إلَيْكَ لَعَلّي أَجِدُ عِنْدَكَ أَخْبارًا عَنْ أَبي البَحّارِ . »

نَظَرَ إلَيْهِ الرُّبّانُ مُسْتَغْرِبًا ، وَسَأَلَهُ : « ما الَّذي يَجْعَلُكَ تَظُنُّني

عَليمًا بِأَخْبارِ الخَلْقِ ؟»

« لأَنَّ أَبي كانَ بَحّارًا مَعْروفًا ، كَما أَنَّ آخِرَ أَسْفارِهِ كانَتْ في مَشارِقِ بَحْرِ الصّينِ . »

« ما اسْمُ أَبيكَ ، يا فَتى ؟»

« اِسْمُهُ السِّنْدِبادُ . »

لَفَتَ ذَلِكَ الحَديثُ انْتِباهَ ابْنِ صَيْفورٍ ، وَلَمّا سَمِعَ اسْمَ السِّنْدِبادِ أَرْهَفَ السَّمْعَ حَتّى لا يَفوتَهُ شَيْءٌ ، وَاقْتَرَبَ مِنْ مائِدَةِ الرُّبّانِ كَأَنَّما يَقومُ عَلى خِدْمَتِهِ ، وَسَأَلَهُ :

« هَلْ يَبْغي سَيِّدي الرُّبّانُ شَيْئًا آخَرَ ؟»

« لا ! لا ! وَلَكِنَّ هَذا الفَتى يُريدُ أَنْ يَسْمَعَ خَبَرًا عَنْ أَبيهِ . »

« أظُنُّني سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ اسْمَ السِّنْدِبادِ ؟»

« نَعَمْ ، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَبوهُ .»

« مَتى رَأَيْتَهُ ؟ وَأَيْنَ الْتَقَيْتَهُ آخِرَ مَرَّةٍ ؟»

تَعَجَّبَ إِيادٌ مِنْ فُضولِ ابْنِ صَيْفورٍ وَإِقْحامِهِ نَفْسَهُ فيما لا يَعْنيهِ ، وَلكِنَّهُ حافَظَ عَلى هُدوئِهِ بَعْدَ أَنِ انْتَعَشَ لَدَيْهِ الأَمَلُ بِأَنْ يَجِدَ عِنْدَ ذَلِكَ الرُّبّانِ طَرَفًا مِنْ أَخْبارِ أَبيهِ ؛ فَوَجَّهَ حَديثَهُ إِلَيْهِ قائِلاً :

« هَلّا أَخْبَرْتَني إِنْ كُنْتَ رَأَيْتَ أَبي : أَيْنَ وَمَتى كانَ ذَلِكَ ؟ وَماذا كانَتْ وِجْهَتُهُ؟ وَهَلْ أَصابَهُ مَكْروهٌ ؟»

« رُوَيْدَكَ ، يا فَتى ! فَقَدْ لَقيتُ أَباكَ لِقاءً عابِرًا ، لَكِنِّي سَآتيكَ بِمَنْ قَدْ تَجِدُ عِنْدَهُ الإِجابَةَ عَنْ أَسْئِلَتِكَ كُلِّها أَوْ بَعْضِها .»

وَ الْتَفَتَ الرُّبّانُ إِلى أَحَدِ أَرْكانِ الخانِ ، وَنادى بِصَوْتٍ عالٍ : « يا كالاواهو .» فَانْتَفَضَ كالاواهو قائِمًا وَهَرْوَلَ إِلى مائِدَةِ الرُّبّانِ؛ وَكانَ بَحّارًا لَهُ مَلامِحُ صينِيَّةٌ لَوْلا بَشَرَتُهُ السَّمْراءُ . وَاقْتَرَبَ كالاواهو مِنْ مائِدَةِ الرُّبّانِ ، وَنَظَرَ إِلى قِلادَةٍ مِنَ الفِضَّةِ مُعَلَّقَةٍ عَلى صَدْرِ إِيادٍ ، ثُمَّ صاحَ في دَهْشَةٍ : « فَلْتَبْتَلِعْني أَمْواجُ البَحْرِ إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُ هَذِهِ القِلادَةَ مِنْ قَبْلُ !»

قالَ لَهُ إيادٌ : « هَذِهِ القِلادَةُ هَدِيَّةٌ مِنْ أبي السِّنْدِبادِ ، أوْصى جَدَّتي بِأنْ تَحْرِصَ عَلَيْها مِنَ الضَّياعِ ، وَأنْ تُعْطِيَني إيّاها عِنْدَما أشِبُّ عَنِ الطَّوْقِ . »

« أ أنْتَ ابْنُ السِّنْدِبادِ ؟ »

« أجَلْ ! ماذا عِنْدَكَ مِنْ أخْبارِهِ ؟ »

« لَقَدْ قابَلْتُهُ في أحَدِ موانِئِ بَحْرِ الصِّينِ ، وَقَدْ دَلَّهُ عَلَيَّ هَذا الرُّبّانُ حينَ سَألَهُ إنْ كانَ يَعْرِفُ بَحّارَةً مِنْ وايكيكي أوْ يَعْرِفُ الطَّريقَ إلَيْها . »

« أ أنْتَ مِنْ تِلْكَ البِلادِ حَقًّا ؟ »

« أجَلْ ، وَكُنْتُ دَليلَ أبيكَ إلَيْها . »

وَخَطَرَ لإيادٍ أنْ يَسْألَ كالاواهو عَمّا كَتَبَهُ بَعْضُ الرَّحّالَةِ العَرَبِ عَنْ تِلْكَ البِلادِ ، لَوْلا تَشَوُّقُهُ لِسَماعِ أخْبارِ أبيهِ ، وَهُوَ ما لَمْ يَخْفَ عَلى كالاواهو ، فاسْتَأنَفَ كَلامَهُ قائِلاً : « سَأُخْبِرُكَ بِما أعْرِفُهُ مِنْ أخْبارِ أبيكَ ، عَلى أنْ تَدَعَني أفْحَصُ هَذِهِ القِلادَةَ أوَّلاً . »

نَزَعَ إيادٌ القِلادَةَ عَنْ صَدْرِهِ وَناوَلَها كالاواهو ، الَّذي أخَذَ يَتَفَرَّسُ فيها . وَلَمْ يَسْتَطِعِ ابْنُ صَيْفورٍ مُقاوَمَةَ فُضولِهِ – كَعادَتِهِ –

فاقْتَرَبَ أَكْثَرَ لِيَنْظُرَ إلى القِلادَةِ عَنْ كَثَبٍ . وَكانَ شَكْلُ تِلْكَ القِلادَةِ غَيْرَ مَألوفٍ نَوْعًا ؛ إذْ كانَتْ مُحَدَّبَةً وَكَأَنَّها شَطْرُ كُرَةٍ ، وَكانَ عَلى أَحَدِ وَجْهَيْها ما يُشْبِهُ مَعالِمَ الأَرْضِ ، أمّا الوَجْهُ الآخَرُ فَكانَتْ عَلَيْهِ حُروفٌ كالطَّلاسِمِ بِاسْتِثْناءِ عِبارَةٍ واحِدَةٍ بِالعَرَبِيَّةِ ، قَرَأَها ابْنُ صَيْفورٍ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ ، وَأَخَذَ يُرَدِّدُها ، وَكَأَنَّهُ يُحاوِلُ البَحْثَ عَنْ مَغْزاها .

وَكانَتِ العِبارَةُ تَقولُ : « لا بُدَّ مِنْ سَرَنْديبَ لِلْقاصي وَالقَريبِ ».

رَدَّ كالاواهو القِلادَةَ إلى إيادٍ وَهُوَ يَقولُ إنَّها تُشْبِهُ قِلادَةً اعْتادَ السِّنْدِبادُ أَنْ يَضَعَها عَلى صَدْرِهِ ، وَلا تَكادُ تَخْتَلِفُ عَنْها حَتّى لَكَأَنَّهُما صُبَّتا في قالَبٍ واحِدٍ .

وَ اسْتَطْرَدَ قائِلاً : « لَقَدْ ضَمَّني أبوكَ إلى سَفينَتِهِ قاصِداً التَّوَجُّهَ إلى وايكيكي في جَزيرَةِ أواهو . وَقَدِ اخْتارَني لأَنّي مِنْ أَبْنائِها ؛ حَيْثُ وُلِدْتُ في قَرْيَةِ هِليوه – إحْدى قُرى تِلْكَ الجَزيرَةِ ، كَما أَعْرِفُ طُرُقَ المِلاحَةِ في تِلْكَ الجِهاتِ .»

وَتَمَلَّكَ الفُضولُ ابْنَ صَيْفورٍ – كالعادَةِ – فَتَدَخَّلَ مُقاطِعًا : « تُرى ماذا كانَ غَرَضُ السِّنْدِبادِ مِنْ رِحْلَتِهِ هَذِهِ المَرَّةَ ؟ مَزيداً مِنَ الأَمْوالِ وَالقُصورِ وَالضِّياعِ ، وَهُوَ الَّذي لا يُدانيهِ أَحَدٌ في ثَرائِهِ ؟»

وَكادَ إيادٌ يَرُدُّ عَلى ابْنِ صَيْفورٍ ، زاجِرًا إيّاهُ عَنِ الكَلامِ بِهَذِهِ اللَّهْجَةِ عَنْ أبيهِ ، لَوْلا أنْ كَفاهُ كالاواهو مئُونَةَ ذَلِكَ ، فَقَدِ اسْتَرْسَلَ قائِلاً :

« لا أحْسَبُ أنَّ السِّنْدِبادَكانَ يَسْعى وَراءَ الثَّرْوَةِ في رِحْلَتِهِ تِلْكَ ؛ فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ أنَّ ما في بِلادِنا لا يَصْلُحُ لِرِحْلَةِ العَوْدَةِ الطَّويلَةِ ؛ فَثِمارُ بِلادِنا وَإنْ تَكُنْ طَيِّبَةً فَهِيَ سَريعَةُ العَطَبِ ، وَلَيْسَتْ كالتَّوابِلِ وَالعُطورِ أوِ القَزِّ وَالدِّيباجِ . وَأكْبَرُ الظَّنِّ أنَّ تِلْكَ الرِّحْلَةَ لَمْ تَكُنْ لِغَرَضِ التِّجارَةِ ؛ فَلَعَلَّهُ كانَ يُرْضي فُضولاً في نَفْسِهِ ، أوْ لَعَلَّ في الأمْرِ سِرًّا لَمْ أعْرِفْهُ !»

تَدَخَّلَ ابْنُ صَيْفورٍ سائِلاً : « سِرٌّ ؟ أيُّ سِرٍّ يا تُرى ؟»

« وَأنّى لي أنْ أعْرِفَ ؟ لكِنّي ما زِلْتُ أتَعَجَّبُ مِمّا أنْفَقَهُ مِنْ مالٍ في شِراءِ سَفينَةٍ كَبيرَةٍ ، ما كانَ أكْثَرَ أشْرِعَتَها ! ثُمَّ لا يَهْتَمُّ بِأنْ يُحَمِّلَها بِبِضاعَةٍ تَعودُ عَلَيْهِ بِمالٍ وَفيرٍ ، أوْ بِما أنْفَقَهُ في تَجْهيزِها !»

وَقَبْلَ أنْ يُقْحِمَ ابْنُ صَيْفورٍ نَفْسَهُ مَرَّةً أخْرى سَألَهُ إيادٌ : « أ لَمْ تَحْمِلِ السَّفينَةُ بِضاعَةً ؟»

« بَلى ! كانَتْ تَحْمِلُ بِضاعَةً ، لكِنَّ السِّنْدِبادَ لَمْ يَكُنْ مُهْتَمًّا بِأمْرِ تِلْكَ البِضاعَةِ قَدْرَ اهْتِمامِهِ بِصُنْدوقٍ صَغيرٍ مِنْها .»

سَأَلَهُ ابْنُ صَيْفورٍ في لَهْفَةٍ : « صُندوقٌ ؟ تُرى ماذا كانَ في ذَلِكَ الصُّنْدوقِ ؟ وَما الَّذي جَرى لَهُ ؟»

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ اقْتَرَبَ ساقي الخانِ مِنِ ابْنِ صَيْفورٍ ، وَأَسَرَّ في أُذُنِهِ ؛ فانْسَحَبَ مِنَ المَكانِ دونَ أَنْ يَلْحَظَ أَحَدٌ اضْطِرابَهُ أَوِ امْتِقاعَ لَوْنِهِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ رَدَّ كالاواهو الَّذي اسْتَطْرَدَ قائِلاً :

« أَمّا الصُّنْدوقُ فَلا أَعْلَمُ ما كانَ فيهِ وَلا ما فَعَلَ السِّنْدِبادُ بِهِ ، وَأَمّا السِّنْدِبادُ فَكانَ رُبّاناً فَذًّا عَليماً بِفُنونِ المِلاحَةِ وَأَحْوالِ الجَوِّ ، خَبيراً بِطَبائِعِ المَلّاحينَ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ العَمَلَ مَعَهُ وَتَعَلَّمْتُ عَلى يَدَيْهِ الكَثيرَ ، كَما كانَ شُجاعاً سَخِيًّا ، فَلا غَرْوَ أَنْ أَحَبَّهُ البَحّارَةُ وَأَطاعوهُ . وَلَسْتُ نادِماً عَلى شَيْءٍ نَدَمي عَلى تَرْكِ العَمَلِ عَلى سَفينَتِهِ ، بَعْدَ وُصولي إِلى بَلَدي وَحُصولي عَلى أَجْري . لَقَدْ كانَ الأَجْرُ كَبيراً فَأَغْراني ذَلِكَ بِالعَوْدَةِ إِلى قَرْيَتي ؛ رَغْبَةً في الاسْتِقْرارِ ، وَكانَ ذَلِكَ آخِرَ عَهْدي بِأَبيكَ .»

« أَ لَمْ يُفْصِحْ أَبي أَمامَكَ عَنْ وُجْهَتِهِ ، أَوْ عَمّا كانَ يَعْتَزِمُ أَنْ يَفْعَلَهُ بَعْدَ وُصولِهِ إِلى بِلادِ واقِ الواق . . . عَفْواً ! أَعْني وايكيكي ؟»

« مُطْلَقاً ! وَلَمْ يَكُنْ يَعْنيني ذَلِكَ في شَيْءٍ ، كَما أَنّي كُنْتُ

راضياً بِما أصبْتُ مِنْ مالٍ ، وَلَمْ أعُدْ أفَكِّرُ في رُكوبِ البَحْرِ حَتَّى وَلَوْ عُرِضَتْ عَلَيَّ كُنوزُ الأرْضِ .»

وَهَمَّ إيادٌ بِأنْ يَسْألَهُ عَمَّا دَفَعَهُ إلى رُكوبِ البَحْرِ مَرَّةً أخْرى ، لَوْلا أنَّهُ قاطَعَهُ قائِلاً : « أظُنُّني أعْرِفُ ما يَجولُ بِخاطِرِكَ ؛ فإلَيْكَ الجَوابَ : لَقَدْ مَكَثْتُ بَيْنَ أهْلي مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى نَفِدَ مالي ، فَعُدْتُ إلى خَليجِ وايكيكي أمْتَهِنُ أعْمالاً شَتَّى ، حَتَّى وَصَلَتْ هَذِهِ السَّفينَةُ . وَلَمَّا كانَ رُبَّانُها يَعْرِفُني مِنْ قَبْلُ فَقَدْ ألْحَقَني بِالعَمَلِ فيها دونَ تَرَدُّدٍ .»

عِنْدَما وَصَلَ كالاواهو إلى هَذِهِ النُّقْطَةِ كانَ جَلِيًّا أنَّهُ لَمْ يَعُدْ عِنْدَهُ ما يُضيفُهُ ، فَكادَ اليَأسُ يَسْتَوْلي عَلى قَلْبِ إيادٍ لَوْلا بَصيصٌ مِنَ الأمَلِ ؛ فَماذا لَوْ كانَتِ الطَّلاسِمُ المَكْتوبَةُ عَلى القِلادَةِ نِداءً خَفِيًّا لَهُ مِنْ أبيهِ ؛ وَكَأنَّما أرادَ أنْ يُبْلِغَهُ رِسالَةً ما ؟

لَمْ تَكُنِ العِبارَةُ المَنْقوشَةُ بِالعَرَبِيَّةِ تَعْني الكَثيرَ ، فَهِيَ لا تَعْني سِوى أنَّ سَرَنْديبَ مَحَطَّةٌ في طَريقِ المُسافِرِ بَحْراً . وَلكِنْ ما شَأْنُ بَقِيَّةِ العِباراتِ المَكْتوبَةِ بِلُغَةٍ أوْ رُبَّما بِلُغاتٍ أخْرى؟ وَنَزَعَ إيادٌ القِلادَةَ مَرَّةً أخْرى عَنْ صَدْرِهِ وَناوَلَها كالاواهو، سائِلاً إيَّاهُ إنْ كانَ يَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الطَّلاسِمِ . وَدونَ أنْ يُمْعِنَ هَذا النَّظَرَ فيها رَدَّها إلى إيادٍ

قائِلاً :

« إنَّ بَعْضَ الحُروفِ المَحْفورَةِ عَلَيْها تُشْبِهُ تِلْكَ الَّتي كُنْتُ أَراها مَكْتوبَةً عَلى بَعْضِ السُّفُنِ الصِّينِيَّةِ ؛ لَكِنَّ هَذا مَبْلَغي مِنَ العِلْمِ بِتِلْكَ اللُّغَةِ !»

وَلَمْ يَجِدْ إِيادٌ بُدًّا مِنَ الانْصِرافِ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ كالاواهو مِنْ حَديثِهِ فَشَكَرَهُ وَشَكَرَ الرُّبَّانَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ بِأَدَبٍ في الانْصِرافِ ، وَغادَرَ الخانَ وَنَفْسُهُ تُحَدِّثُهُ بِأَنَّ لِلْقِلادَةِ سِرًّا قَدْ يُساعِدُ الكَشْفُ عَنْهُ في مَعْرِفَةِ ما جَرى لأَبيهِ . وَلَمْ يَكُنْ إِيادٌ وَحْدَهُ الَّذي أَثارَ اهْتِمامَهُ حَديثُ كالاواهو عَنِ القِلادَةِ ، فَقَدْ شَغَلَ ذَلِكَ الأَمْرُ أَيْضًا ابْنَ صَيْفورٍ الَّذي اضْطُرَّ إِلى التَّوَجُّهِ إِلى المِنْضَدَةِ الَّتي أَخْبَرَهُ السَّاقي بِأَنَّ بَحَّارَتَها يَوَدّونَ لِقاءَهُ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ مَرّوا بِقَوْمٍ مِنَ الأَنْدَلُسِ في سَفينَةٍ ذَكَروا أَنَّهُمْ يَقْصِدونَ خانَ ابْنِ صَيْفورٍ في البَصْرَةِ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبَ ابْنُ صَيْفورٍ مِنَ المِنْضَدَةِ ابْتَدَرَهُ أَحَدُ البَحَّارَةِ قائِلاً: « لَقَدِ الْتَقَيْنا رَهْطًا مِنَ البَحَّارَةِ قُبالَةَ ساحِلِ عُمانَ أَخْبَرونا عَنْ هَذا الخانِ حَتَّى أَحْبَبْنا النُّزولَ فيهِ .»

وَلَمْ يَنْبِسِ ابْنُ صَيْفورٍ بِكَلِمَةٍ ، بَلْ بَدا عَلَيْهِ وَكَأَنَّهُ اعْتادَ مِثْلَ ذَلِكَ المَديحِ مِنَ البَحَّارَةِ ، الَّذينَ يَتَوَدَّدونَ إِلَيْهِ طَمَعًا في خِدْمَةٍ

أفْضَلَ ، فاكْتَفى بِهَزِّ رَأْسِهِ وَقَدْ رَسَمَ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةً باهِتَةً خالِيَةً مِنْ أيِّ مَعْنًى ، ولكِنَّها كانَتْ كافِيَةً لِجَعْلِ البَحّارِ يَسْتَرْسِلُ في كَلامِهِ ، فَمَضى قائِلاً :

« لَقَدْ أصابَ العَطَبُ دَفَّةَ سَفينَةِ أولَئِكَ البَحّارَةِ ؛ فَرَسَوْا عَلى ساحِلِ عُمانَ لِتَرْميمِها ، وَلا بُدَّ أَنَّهُمُ الآنَ في طَريقِهِمْ إلى البَصْرَةِ ، وَكانَ يَبْدو مِنْ كَلامِهِمْ عَنْكَ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِكَ أَنَّهُمْ مِنْ أقْرِبائِكَ !»

هَتَفَ ابْنُ صَيْفورٍ قائِلاً : « إنَّ لي أقْرِباءَ في الأنْدَلُسِ ، فَهَلّا وَصَفْتَهُمْ لي ؛ فَإنّي في شَوْقٍ لِلُقْياهُمْ !»

وَ وَصَفَهُمُ المَلّاحُ لابْنِ صَيْفورٍ ، وَلَمّا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ شَكَرَهُ قائِلاً : « إنَّهُمْ أقْرِبائي حَقًّا ، فَما أشَدَّ فَرَحي بِهَذِهِ البُشْرى ! وَلأُكافِئَنَّكَ عَلَيْها أعْظَمَ مُكافَأةٍ ، فَأنْتَ ضَيْفي حَتّى تَرْحَلَ سَفينَتُكَ . »

وَالْتَفَتَ ابْنُ صَيْفورٍ إلى ساقيهِ وَأمَرَهُ بِأنْ يَسْهَرَ عَلى راحَةِ ذَلِكَ البَحّارِ ، وَلا يَتَقاضى مِنْهُ أجْرًا عَلى ما يُصيبُ مِنْ طَعامٍ أوْ شَرابٍ . ثُمَّ انْصَرَفَ وَسْطَ ذُهولِ السّاقي ، الّذي لَمْ يَعْهَدْهُ سَخِيًّا مُنْذُ عَمِلَ مَعَهُ .

الفصل الرابع

مُساعَدَةٌ في أوانِها

عادَ إيادٌ إلى دارِهِ وَباتَ مُسَهَّداً يُفكِّرُ في أمْرِ أبيهِ وَالقِلادَةِ وَكالاواهو وَبِلادِ واقِ الواقِ . وَلَمْ يَكَدِ الصُّبْحُ يَتَنَفَّسُ حَتَّى مَضى إلى غُرْفَةِ جَدَّتِهِ ، يُخْبِرُها بِما حَدَثَ ، وَيُلِحُّ عَلَيْها - مِنْ جَديدٍ - أنْ تَأذَنَ لَهُ بِالسَّفَرِ لِلْبَحْثِ عَنْ أبيهِ ، وَالتَّوَسُّطَ لَدى عَمِّهِ لِيَأذَنَ لَهُ هُوَ أيْضاً بِالسَّفَرِ ، وَيُزَوِّدَهُ بِبَعْضِ المالِ الَّذي تَرَكَهُ أبوهُ وَأصْبَحَ تَحْتَ وِصايَةِ عَمِّهِ .

وَكانَتِ الجَدَّةُ يَتَنازَعُها الإشْفاقُ عَلى حَفيدِها مِنَ المَخاطِرِ مِنْ جِهَةٍ ، وَالحَنينُ إلى ابْنِها السِّنْدِبادِ الَّذي أنْعَشَ حَديثُ كالاواهو أمَلَها في العُثورِ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ أخْرى . أمَّا العَمُّ فَكانَ يَعْتَقِدُ أنَّ أخاهُ السِّنْدِبادَ قَدْ هَلَكَ ، وَأنَّ البَحْثَ عَنْهُ بَعْدَ كُلِّ تِلْكَ السِّنينَ ضَرْبٌ مِنَ العَبَثِ وَإتْلافٌ لِمالِ ابْنِ أخيهِ اليَتيمِ ، الَّذي لا يَزالُ

بَعْدُ فَتًى غَضٌ الإهابِ ، لا يُمْكِنُهُ مُواجَهَةُ المَخاطِرِ وَالأَهْوالِ .

وَفكَّرَ إِيادٌ في أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلى رَبابِنَةِ السُّفُنِ الرّاسِيَةِ في المِيناءِ ؛ لَعَلَّ أَحَدَهُمْ يَقْبَلُ إِلْحاقَهُ بِالعَمَلِ مَعَهُ عَلى سَفينَتِهِ ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَمامَهُ مِنْ بارِقَةِ أَمَلٍ سِوى ذَلِكَ . وَما إِنِ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الفِكْرَةُ حَتَّى يَمَّمَ مِنْ فَوْرِهِ شَطْرَ المِيناءِ وَقَدْ كادَ النَّهارُ يَنْتَصِفُ .

وَلَمّا بَلَغَ مَراسِيَ السُّفُنِ وَجَدَها –كالعادَةِ– تَموجُ بِالحَرَكَةِ ؛ فالبَحّارَةُ يَروحونَ وَيَغْدونَ وَهُمْ يُنْزِلونَ بَضائِعَ أَوْ يَحْمِلونَها إِلى مُتونِ سُفُنِهِمْ . وَكانَ بَحّارَةُ السَّفينَةِ الَّتي قَدِمَتْ بِالأَمْسِ مِنَ الشَّرْقِ يُحاوِلونَ عَبَثًا إِرْغامَ بَعْضِ الخُيولِ العَرَبِيَّةِ الأَصيلَةِ عَلى الصُّعودِ فَوْقَ أَلْواحٍ مَمْدودَةٍ بَيْنَ السَّفينَةِ وَاليابِسَةِ .

وَكانَتِ الخُيولُ تَصْهَلُ وَتُجْفِلُ وَتَأْبى الصُّعودَ ؛ لأَنَّها لَمْ تَعْتَدْ رُكوبَ البَحْرِ . وَأَدْرَكَ إِيادٌ ذَلِكَ فاقْتَرَبَ مِنْ أَحَدِ البَحّارَةِ الَّذينَ اسْتَبَدَّتْ بِهِمُ الحَيْرَةُ وَلَمْ يَدْروا ما يَصْنَعونَ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ بِقِطْعَةٍ مِنَ القُماشِ . وَلَمّا جاءَهُ بِها غَمّى عَيْنَيْ أَقْوى الجِيادِ وَأَجْمَحِها ، وَأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلَيْهِ مُلاطِفًا إِيّاهُ حَتَّى هَدَأَ ، فاقْتادَهُ فَوْقَ أَلْواحِ الصُّعودِ ، وَتَبِعَتْهُ بَقِيَّةُ الجِيادِ حَتَّى صَعِدَتْ جَميعُها سالِمَةً فَوْقَ ظَهْرِ السَّفينَةِ . وَوَجَدَ إِيادٌ كالاواهو أَمامَهُ ، وَكانَ يُشاهِدُ ما

حَدَثَ ؛ فابْتَدَرَهُ قائِلاً :

« لَكَأَنَّكَ أَنْتَ إِيادٌ ، ذَلِكَ الفَتى الَّذي سَأَلَني بِالأَمْسِ عَنِ السِّنْدِبادِ ؟»

رَدَّ إِيادٌ مُبْتَسِماً : « أَجَلْ ، إِنَّني هُوَ . وَأَرْجو أَلا أَكونَ قَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ !»

« لا ، لا ! وَلَكَ الشُّكْرُ عَلى ما صَنَعْتَهُ اليَوْمَ ، فَهَذِهِ الجِيادُ هَدِيَّةٌ مِنَ الخَليفَةِ إِلى خاقانِ الصِّينِ ، وَلا بُدَّ لِلْهَدِيَّةِ أَنْ تَصِلَ سالِمَةً ، وَسَتَبْدَأُ رِحْلَتَها اليَوْمَ سالِمَةً بِفَضْلِ بَراعَتِكَ . هَلْ عِنْدَكَ أَيْضاً مِنْ وَسيلَةٍ لِرَفْعِ تِلْكَ المَجانيقِ إِلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ؛ حَيْثُ إِنَّها هَدِيَّةٌ مِنَ الخَليفَةِ إِلى مَلِكِ سَرَنْديبَ ؟»

وَنَظَرَ إِيادٌ إِلى حَيْثُ أَشارَ كالاواهو فَوَجَدَ عَدَداً مِنَ المَجانيقِ وَقَدْ صُفَّتْ عَلى اليابِسَةِ بِجِوارِ السَّفينَةِ ، فَأَجابَهُ : « أَجَلْ ، بِوُسْعي أَنْ أَفْعَلَ ذلِكَ .»

« يَبْدو أَنَّكَ واسِعُ الحيلَةِ كَأَبيكَ .»

« بَلْ إِنَّ الأَمْرَ بَسيطٌ كَما دَرَسْناهُ في عِلْمِ الرَّوافِعِ ؛ فَأْتِني بِواحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ البَكَراتِ الَّتي تَشُدّونَ إِلَيْها الأَشْرِعَةَ ، وَحَبْلٍ مَتين

وَعارِضَةٍ ، واجْعَلْ مَعي بَعْضَ البَحَّارَةِ ؛ وَسَتَكونُ هَذِهِ المَجانيقُ بِعَوْنِ اللهِ فَوْقَ ظَهْرِ السَّفينَةِ قَبْلَ غُروبِ شَمْسِ اليَوْمِ .»

وَأَسْرَعَ كالاواهو يَأْمُرُ بَعْضَ البَحَّارَةِ بِتَنْفيذِ ما طَلَبَهُ إِيادٌ ، وَهُوَ لا يُصَدِّقُ أُذُنَيْهِ ، فَقَدْ كانَ يَظُنُّ أَنَّ رَفْعَ تِلْكَ المَجانيقِ سَيَسْتَغْرِقُ يَوْمَيْنِ عَلى الأَقَلِّ . وَجاءَ البَحَّارَةُ بِما طَلَبَهُ إِيادٌ ، فَتَسَلَّقَ صارِيَ السَّفينَةِ الأَوْسَطَ في خِفَّةِ الفَهْدِ ، وَشَدَّ إِلَيْهِ العارِضَةَ ، وَشَدَّ البَكَرَةَ إِلى العارِضَةِ ، وَأَدْخَلَ الحَبْلَ في البَكَرَةِ بِحَيْثُ يَتَدَلَّى مِنْ كِلْتا جِهَتَيْها إِلى أَسْفَلَ ، حَتَّى وَصَلَ طَرَفاهُ إِلى اليابِسَةِ قُرْبَ المَجانيقِ المَصْفوفَةِ.

وَطَلَبَ إِيادٌ مِنْ بَعْضِ البَحَّارَةِ تَثْبيتَ المَجانيقِ إِلى الحَبْلِ واحِدَةً فَواحِدَةً ، وَطَلَبَ مِنَ الآخَرينَ أَنْ يَشُدّوا الحَبْلَ مِنَ الطَّرَفِ الآخَرِ فَفَعَلوا . وَأَخَذَتِ المَجانيقُ تَرْتَفِعُ رُوَيْداً رُوَيْداً ، واحِدَةً بَعْدَ الأُخْرى ، وَمَتى حاذَتْ أَعْلى جانِبِ السَّفينَةِ جَذَبَها المَلّاحونَ وَصَفّوها عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، وَهُمْ يَتَصايَحونَ في مَرَحٍ وَإِعْجابٍ ، مِنْ نَجاحِ ذَلِكَ التَّدْبيرِ ، حَتَّى فَرَغوا مِنْ رَفْعِها جَميعاً قَبْلَ أَنْ تُوَدِّعَ أَذْرُعُ الشَّمْسِ الذَّهَبِيَّةُ قِبابَ البَصْرَةِ .

وَكانَ رُبّانُ السَّفينَةِ في قَمْرَتِهِ يَتَفاوَضُ عَلى صَفْقَةٍ مِنْ لَوازِمِ السُّفُنِ ، عِنْدَما صَكَّ سَمْعَيْهِ ضَجيجُ البَحّارَةِ وَصِياحُهُمْ ؛ فَخَرَجَ

يَسْتَطْلِعُ الأَمْرَ ، وَأَخَذَ يُراقِبُ ما يَحْدُثُ وَقَدْ عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَهُ . وَما إِنْ فَرَغَ البَحّارَةُ مِنْ مُهِمَّتِهِمْ حَتَّى نادى الرُّبّانُ كالاواهو ؛ طالِبًا مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ بِإِيادٍ . وَعِنْدَما دَلَفَ الاثْنانِ إِلى قَمْرَةِ الرُّبّانِ أَلْفَيا عِنْدَهُ ابْنَ صَيْفورٍ ، وَكانَ أَمامَهُما عَلى مِنْضَدَةٍ صَغيرَةٍ بَعْضُ أَدَواتِ المِلاحَةِ الَّتي طَلَبَها الرُّبّانُ . وَنَظَرَ ابْنُ صَيْفورٍ إِلى إِيادٍ وَكَأَنَّهُ يَسْتَنْكِرُ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِ صَفْقَةً وَشيكَةً ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ الإِعْرابِ عَنْ ضَيْقِهِ إِلّا تَرْحيبُ الرُّبّانِ بِإِيادٍ وَمُبادَرَتُهُ إِيّاهُ بِقَوْلِهِ : « لَعَلَّ ما سَمِعْتَهُ بِالأَمْسِ مِنْ كالاواهو لَمْ يَرْوِ غُلَّتَكَ ؛ فَجِئْتَ تَسْتَوْضِحُ أُمورًا غَمَضَتْ عَلَيْكَ ؟»

« ما لِهَذا جِئْتُ ، وَإِنَّما جِئْتُ أَطْلُبُ العَمَلَ بِسَفينَتِكَ ، وَسَتَجِدُني - إِنْ شاءَ اللهُ - مَلّاحًا نافِعًا .»

« لا شَكَّ عِنْدي في أَنَّ مِثْلَكَ يَصْلُحُ مَلّاحًا نافِعًا ، وَإِنْ كُنْتَ تَبْدو صَغيرَ السِّنِّ !»

وَتَدَخَّلَ ابْنُ صَيْفورٍ مُقاطِعًا : « أَجَلْ ، إِنَّهُ صَبِيٌّ صَغيرٌ ، وَسَيُقيمُ عَمُّهُ الدُّنْيا وَيُقْعِدُها إِنْ أَلْحَقْتَهُ بِسَفينَتِكَ ؛ فَلا تَفْعَلْ ذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ نُصْحًا !»

وَلَكِنَّ كالاواهو صاحَ قائِلاً : « بَلِ اسْتَأْجِرْهُ ، يا سَيِّدي الرُّبّانَ ؛

لِتَسْتَعِينَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ وَعَجِيبِ حِيَلِهِ ؛ فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ ما صَنَعَ بِالمَجانِيقِ لَعَلِمْتَ أَنَّ لَهُ شَأْنًا !»

« لَقَدْ رَأَيْتُ ما صَنَعَ ، وَإِنَّهُ لَكَما تَقولُ تَمامًا .»

« أَلَمْ تَرَ أَيْضًا ما صَنَعَ بِالخُيولِ ؟»

« ماذا صَنَعَ بِها ؟»

وَقَصَّ كالاواهو عَلى الرُّبّانِ ما صَنَعَ إِيادٌ بِالخُيولِ ، حَتّى إِذا أَتَمَّ قِصَّتَهُ حَثَّهُ عَلى الانْتِفاعِ بِهِ قائِلاً : « ما أَظُنُّ هَذا الفَتى إِلّا رَجُلاً كَأَبيهِ ، فَهَذا الشِّبْلُ مِنْ ذاكَ الأَسَدِ حَقًّا !»

وَبَدا عَلى الرُّبّانِ أَنَّهُ اقْتَنَعَ بِكَلامِ كالاواهو ، وَلِذا فَما إِنْ حاوَلَ ابْنُ صَيْفورٍ إِقْحامَ نَفْسِهِ في الأَمْرِ مَرَّةً أُخْرى حَتّى نَهَرَهُ الرُّبّانُ قائِلاً: « لا شَأْنَ لَكَ بِذَلِكَ ، وَسَنُقْنِعُ عَمَّهُ حَتّى يَقْبَلَ أَنْ يَدَعَهُ يَلْتَحِقُ بِسَفينَتِنا .»

ثُمَّ قالَ لِكالاواهو: « ما دُمْنا قَدْ فَرَغْنا مِنْ أَمْرِ المَجانيقِ وَبَقِيَتْ عِنْدَنا فُسْحَةٌ مِنَ الوَقْتِ ؛ فَهَيّا بِنا نَنْزِلْ إِلى المَدينَةِ لِنُقابِلَ عَمَّ هَذا الفَتى وَنُكَلِّمَهُ في الأَمْرِ .»

وَقَبْلَ أَنْ يَهْبِطَ مِنَ السَّفينَةِ الْتَفَتَ إِلى ابْنِ صَيْفورٍ قائِلاً :

« سَنَسْتَأنِفُ كَلامَنا عَنْ بِضاعَتِكَ بَعْدَ عَوْدَتِنا مِنَ المَدينَةِ ؛ فَإنْ شِئْتَ انْتَظَرْتَ ، وَإنْ شِئْتَ عُدْتَ إلَيْنا غَداً . »

صاحَ ابْنُ صَيْفورٍ : « وَماذا عَنْ سَفَري مَعَكُمْ ؟ »

« سَنَتَكَلَّمُ في هَذا أيْضاً بَعْدَ عَوْدَتِنا مِنَ المَدينَةِ . »

الفصل الخامس

الوَداعُ

غادَرَ ابْنُ صَيفورٍ السَّفينَةَ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا ؛ ثُمَّ تَبِعَهُ الرُّبَّانُ وَكالاواهو ، وَإِيادٌ الَّذي اصْطَحَبَهُمْ إِلى قَصْرِ عَمِّهِ. وَتَمَكَّنَ الرُّبَّانُ وَكالاواهو مِنْ إِقْناعِ عَمِّ إِيادٍ بِقُدْرَةِ ابْنِ أَخيهِ عَلى العَمَلِ بَحّارًا. وَرَوى لَهُ كالاواهو – في إِعْجابٍ – ما صَنَعَ إِيادٌ ، مِمَّا جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِالفَخْرِ مِنْ صُنْعِ ابْنِ أَخيهِ ، وَأَدْخَلَ الطُّمَأْنينَةَ إِلى قَلْبِهِ . وَهَمَّ عَمُّ إِيادٍ بِأَنْ يُزَوِّدَهُ بِما يَحْتاجُ مِنْ مالٍ في سَفَرِهِ؛ فَطَمْأَنَهُ الرُّبَّانُ بِأَنَّهُ سَيَحْصُلُ عَلى أَجْرٍ يَكْفيهِ .

وَ وَدَّعَ إِيادٌ عَمَّهُ وَأَبْناءَ عَمِّهِ وَتَبادَلَ مَعَهُمُ الهَدايا ، وَكانَتْ هَدِيَّةُ الصَّغيرَةِ نُهَيْلَةَ طاوُوسًا بَديعَ المَنْظَرِ . وَ وَعَدَهُمْ بِأَنْ يُحْضِرَ لَهُمْ مِنَ الهَدايا كُلَّ طَريفٍ وَغَريبٍ ، إِنْ عادَ إِلَيْهِمْ سالِمًا .

خَرَجَ الرُّبَّانُ وَكالاواهو ، وَعادا إِلى مَرْسى السُّفُنِ مارِّينَ

بِحَوانيتِ البَصْرَةِ ، فاشْتَرى كُلٌّ مِنْهُما ما شاءَ أنْ يَشْتَرِيَ . أمَّا إيادٌ فَقَدْ عادَ إلى دارِهِ فاصْطَحَبَ فَرَسَهُ وَأخَذَ بَعْضَ مُقْتَنياتِه ، وَعَرَّجَ عَلى دورِ أصْحابِهِ يُوَدِّعُهُمْ واحِداً فَواحِداً . وَأهْدى فَرَسَهُ إلى جارِهِ وَرَفيقِ صِباهُ حَنّا السُّروجِيِّ ، وَأهْدى صَقْرَهُ إلى صَديقِهِ سالِمٍ الحَبَشِيِّ ، وَأهْدى بَقِيَّةَ أقْرانِهِ هَدايا أخْرى .

وَكانَتْ لَحَظاتٍ أليمَةً عَلى نَفْسِ إيادٍ أنْ يُوَدِّعَ رِفاقَ الصِّبا ، وَلكِنَّ النِّداءَ الخَفِيَّ بِأنْ يَرْكَبَ المَجْهولَ بَحْثاً عَنْ أبيهِ مَنَحَهُ قُوَّةً تَغَلَّبَ بِها عَلى ذَلِكَ الألَمِ .

وَانْفَلَتَ إيادٌ عائِداً إلى دارِهِ لِيُجَهِّزَ ما يَلْزَمُهُ في رِحْلَتِهِ مِنْ ثِيابٍ لِكُسْوَتِهِ ، وَمُشْطٍ وَسِواكٍ وَطيبٍ لِلزّينَةِ ، وَوَرَقٍ وَمِدادٍ وَأقْلامٍ لِلْكِتابَةِ وَكانَ مِنْ أطْرَفِ ما أخَذَهُ ساعَتُهُ الدَّقّاقَةُ لِيَعْرِفَ بِها الوَقْتَ . وَ وَضَعَ إيادٌ ذَلِكَ كُلَّهُ مَعَ بَعْضِ الهَدايا وَالتُّحَفِ في صُنْدوقٍ وَأحْكَمَ إغْلاقَهُ ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى غُرْفَةِ جَدَّتِهِ لِيُخْبِرَها بِموافَقَةِ عَمِّهِ عَلى سَفَرِهِ؛ طالِباً مِنْها أنْ تُبارِكَ سَفَرَهُ وَتَدْعُوَ لَهُ . وَلَمْ يَخْلُدْ إلى فِراشِهِ حَتّى اطْمَأنَّ إلى أنَّها قَدْ طابَتْ نَفْساً .

أمّا ابْنُ صَيْفورٍ فَمُنْذُ عَرَفَ بِخَبَرِ السَّفينَةِ الَّتي تَحْمِلُ بَحّارَةً مِنَ الأنْدَلُسِ في طَريقِها إلى البَصْرَةِ ؛ صارَ وَكَأنَّ بِهِ مَسّاً ، فَجَعَلَ

يَعْرِضُ بَضائِعَهُ لِلْبَيْعِ بِأَبْخَسِ الأَسْعارِ ، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ عَرَضَ حانوتَهُ وَخانَهُ لِلْبَيْعِ ، وَأَبْلَغَ ابْنَتَهُ بِاعْتِزامِهِ الرَّحيلَ ، وَطَلَبَ مِنْها تَجْهيزَ ما يَلْزَمُ مِمّا خَفَّ حَمْلُهُ وَغَلا ثَمَنُهُ ، فَأَذْعَنَتْ لأَمْرِهِ وَهِيَ لا تَدْري سَبَبَ اضْطِرابِهِ .

وَقَدْ شَغَلَهُ أَمْرُ قِلادَةِ إِيادٍ ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ رُبَّما كانَ وَراءَها سِرٌّ أَوْ كَنْزٌ ثَمينٌ ، فَيَمَّمَ شَطْرَ دارِ السِّنْدِبادِ وَطَلَبَ مِنَ الخَدَمِ إِدْخالَهُ عَلى إِيادٍ . وَإِزاءَ إِلْحاحِهِ أَدْخَلَهُ الخَدَمُ عَلى إِيادٍ ، الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدِ اسْتَغْرَقَ بَعْدُ في النَّوْمِ . وَطَفِقَ ابْنُ صَيْفورٍ يَعْتَذِرُ عَنْ مَسْلَكِهِ مُقْسِماً بِأَغْلَظِ الأَيْمانِ أَنَّهُ إِنَّما كانَ يَخْشى عَلَيْهِ مِنْ أَهْوالِ السَّفَرِ في البَحْرِ ، وَقَدْ جاءَ الآنَ لِيُثْبِتَ صَفاءَ نِيَّتِهِ وَاسْتِعْدادَهُ لِمُساعَدَتِهِ ؛ بِمَدِّهِ عَلى سَبيلِ القَرْضِ بِما يَلْزَمُهُ مِنْ مالٍ في رِحْلَتِهِ . وَشَعَرَ إِيادٌ بِأَنَّهُ يُضْمِرُ في نَفْسِهِ شَيْئاً ، وَرَأى أَنْ يُسايِرَهُ حَتّى يَعْلَمَ دَخيلَتَهُ ، فَقالَ لَهُ:

« أَشْكُرُكَ عَلى هَذا الكَرَمِ ! وَلَكِنْ ما يَضْمَنُ لَكَ أَنْ أَرُدَّ لَكَ ما تُقْرِضُني إِيّاهُ ؟»

« لا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُعْطِيَني رَهْناً بِهِ .»

« ما عِنْدي ما أَرْهَنُهُ !»

« عِنْدَكَ هَذِهِ القِلادَةُ .»

« وَكَمْ سَتُعْطيني مُقابِلَ رَهْنِها ؟»

« إنَّها لَيْسَتْ بِذاتِ قيمَةٍ مِنْ حَيْثُ ما فيها مِنْ فِضَّةٍ ، لكِنّي أعْلَمُ مَدى اعْتِزازِكَ بِها ؛ وَلِذا سَأُقْرِضُكَ مِئَةَ دينارٍ ذَهَبًا ، وَأنا مُطْمَئِنٌّ أنَّكَ سَتَرُدُّ القَرْضَ لِفَكِّ الرَّهْنِ .»

وَأدْرَكَ إيادٌ أنَّ ابْنَ صَيْفورٍ لا يَزالُ طامِعًا في القِلادَةِ ، وَقَدْ أدْهَشَهُ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَكُنِ ابْنُ صَيْفورٍ بِالَّذي يَدْفَعُ هَذا القَدْرَ مِنَ المالِ لإتْيانِ عَمَلٍ مِنْ أعْمالِ البِرِّ ؛ كَما أنَّ إيادًا لَمْ يَكُنْ لِيُفَرِّطَ في تِلْكَ القِلادَةِ مَهْما عُرِضَ عَلَيْهِ ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ في حَزْمٍ قائِلاً :

« لَنْ أرْهَنَ تِلْكَ القِلادَةَ ، وَما بي حاجَةٌ إلى قَرْضٍ ؛ فَسَأُحْصُلُ عَلى أجْرٍ مِنْ عَمَلي بَحّارًا ؛ فَشُكْرًا لَكَ ، وَأرْجو أنْ تَدَعَني الآنَ وَشَأني !»

وَلَمْ يَجِدِ ابْنُ صَيْفورٍ بُدًّا مِنَ الانْصِرافِ دونَ أنْ يُحَقِّقَ مُبْتَغاهُ .

وَفي فَجْرِ اليَوْمِ التّالي نَهَضَ إيادٌ فَتَوَضَّأَ وَصَلّى ، وَمَكَثَ يَنْتَظِرُ بُزوغَ الشَّمْسِ ، حَتّى إذا دَبَّتِ الحَرَكَةُ في أرْجاءِ الدّارِ هُرِعَ إلى غُرْفَةِ جَدَّتِهِ يُوَدِّعُها . وَمَرَّتْ عَلَيْهِما لَحَظاتٌ أليمَةٌ ، وَمَرَّةً أخْرى اسْتَحْضَرَ إيادٌ في ذِهْنِهِ ذَلِكَ النِّداءَ الخَفِيَّ لِيَشُدَّ بِهِ عَزيمَتَهُ ، وَيَتَغَلَّبَ عَلى ألَمِ فِراقِ جَدَّتِهِ . وَما لَبِثَ أنِ انْفَلَتَ إلى غُرْفَتِهِ

فَحَمَلَ مَتاعَهُ وَخَرَجَ مِنَ الدّارِ عَلى عَجَلٍ ؛ حَتّى لا تَضْعُفَ إرادَتُهُ وَيَنْكُصَ عَلى عَقِبَيْهِ .

وَبَعْدَ أَنْ بَعُدَ عَنِ الدّارِ تَمَهَّلَ في سَيْرِهِ ، مُتَّخِذاً أَطْوَلَ الطُّرُقاتِ إلى الميناءِ ؛ لِيَمْلأَ عَيْنَيْهِ مِنْ مَراتِعِ صِباهُ الَّتي لا يَدْري مَتى يَعودُ إلَيْها ، ثُمَّ عَرَّجَ عَلى أَسْواقِ البَصْرَةِ ، وَكانَ أَصْحابُ الحَوانيتِ قَدْ شَرَعوا يَفْتَحونَ أَبْوابَها . وَما لَبِثَ أَنْ وَصَلَ إلى الميناءِ وَ وَجَدَ أَلْواحَ الصُّعودِ مَمْدودَةً ، فَصَعِدَ عَلَيْها وَحَطَّ مَتاعَهُ عَنْ ظَهْرِهِ .

وَلَمَحَ إيادٌ بَحّاراً مُنْهَمِكاً في رَتْقِ أَحَدِ قُلوعِ السَّفينَةِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ كُلٍّ مِنَ الرُّبّانِ وَكالاواهو ، وَعَلِمَ مِنْهُ أَنَّهُما نَزَلا إلى المَدينَةِ لإنْجازِ بَعْضِ الأَعْمالِ وَلَمْ يَرْجِعا بَعْدُ . وَعَرَضَ إيادٌ أَنْ يُساعِدَ البَحّارَ في رَتْقِ الشِّراعِ فَرَحَّبَ بِذَلِكَ ، وَظَلَّ الاثْنانِ يَرْتِقانِ الشِّراعَ وَهُما يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ ، حَتّى كادَ النَّهارُ يَنْتَصِفُ .

وَأَحَسَّ إيادٌ بِالجوعِ وَتَذَكَّرَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دارِهِ دونَ أَنْ يَتَبَلَّغَ بِشَيْءٍ ؛ وَأَدْرَكَ البَحّارُ ذَلِكَ فَجاءَهُ بِبَعْضِ الطَّعامِ الَّذي أَعَدَّهُ طاهي السَّفينَةِ ، فَجَعَلا يَأْكُلانِ مَعاً ، ثُمَّ اسْتَأْنَفا إصْلاحَ الشِّراعِ حَتّى فَرَغا مِنْ عَمَلِهِما ، ثُمَّ قاما بِطَيِّهِ . وَما لَبِثَ أَنِ انْضَمَّ إلَيْهِما بَعْضُ البَحّارَةِ مِمَّنْ عادوا مِنَ المَدينَةِ ، وَجَلَسَ إيادٌ يَسْتَمِعُ إلى ما

يَقُصُّهُ كُلٌّ مِنْهُمْ عَنْ مُغامَراتِهِ .

وَكانَ الوَقْتُ بَعْدَ العَصْرِ بِقَليلٍ عِنْدَما انْقَلَبَ السُّكونُ إلى حَرَكَةٍ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ؛ فَقَدْ لَمَحَ أَحَدُ البَحَّارَةِ الرُّبَّانَ وَكالاواهو وَشَخْصَيْنِ آخَرَيْنِ ، وَمِنْ وَرائِهِمْ بَعْضُ الدَّوابِّ تَحْمِلُ أَمْتِعَةً . وَاسْتَطاعَ إِيادٌ أَنْ يُمَيِّزَ وَجْهَ ابْنِ صَيْفورٍ بَيْنَ القادِمينَ ، أَمَّا الشَّخْصُ الرَّابِعُ ، فَلِضَآلَةِ حَجْمِهِ ، أَدْرَكَ إِيادٌ أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ حِمْنَةَ . وَقَدْ تَمَلَّكَهُ العَجَبُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَما تَمَلَّكَ بَقِيَّةَ البَحَّارَةِ . وَلكِنْ لَمْ يَطُلْ بِهِمْ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ صَعِدَ الرُّبَّانُ إِلى ظَهْرِ السَّفينَةِ وَ وَجَّهَ كَلامَهُ إِلى البَحَّارَةِ قائِلاً :

« سَنَصْحَبُ مَعَنا هَذَيْنِ المُسافِرَيْنِ ، فَدَبِّروا لَهُما مَكانًا ، وَ وَفِّروا لَهُما سُبُلَ الرَّاحَةِ .»

وَأَسْرَعَ البَحَّارَةُ يُنَفِّذونَ أَمْرَ الرُّبَّانِ ، وَسَمِعَ إِيادٌ أَحَدَهُمْ يُغَمْغِمُ قائِلاً : « ما أَظُنُّ إِلا أَنَّهُما دَفَعا لِلرُّبَّانِ مَبْلَغًا مِنَ المالِ يَسيلُ لَهُ اللُّعابُ حَتَّى قَبِلَ اصْطِحابَهُما عَلى مَتْنِ سَفينَتِهِ ؛ فَعَهْدي بِهِ أَنَّهُ لا يَسْمَحُ بِحَمْلِ مُسافِرينَ في السَّفينَةِ !»

قالَ آخَرُ : « بَلْ قُلْ إِنَّهُما ابْتاعا السَّفينَةَ !»

وَكانَ أَكْثَرَ ما أَدْهَشَ إِيادًا هُوَ تَرْكُ ابْنِ صَيْفورٍ لِلْبَصْرَةِ عَلى

ماكانَ لَهُ فيها مِنْ تِجارَةٍ رائِجَةٍ .وَمُقامٍ كَريمٍ ، وَتَجَشُّمُهُ لِمَشاقِّ الرِّحْلَةِ بِالبَحْرِ هُوَ وَابْنَتِهِ . وَلَمْ تَكُنْ عادَةُ إِيادٍ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِما لا يَعْنيهِ ، فَجَلَسَ مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلى أَحَدِ صَواري السَّفينَةِ ، يَسْتَعْرِضُ أَحْداثَ حَياتِهِ الماضِيَةَ ، وَيُفَكِّرُ فيما يُخَبِّئُهُ لَهُ الغَدُ .

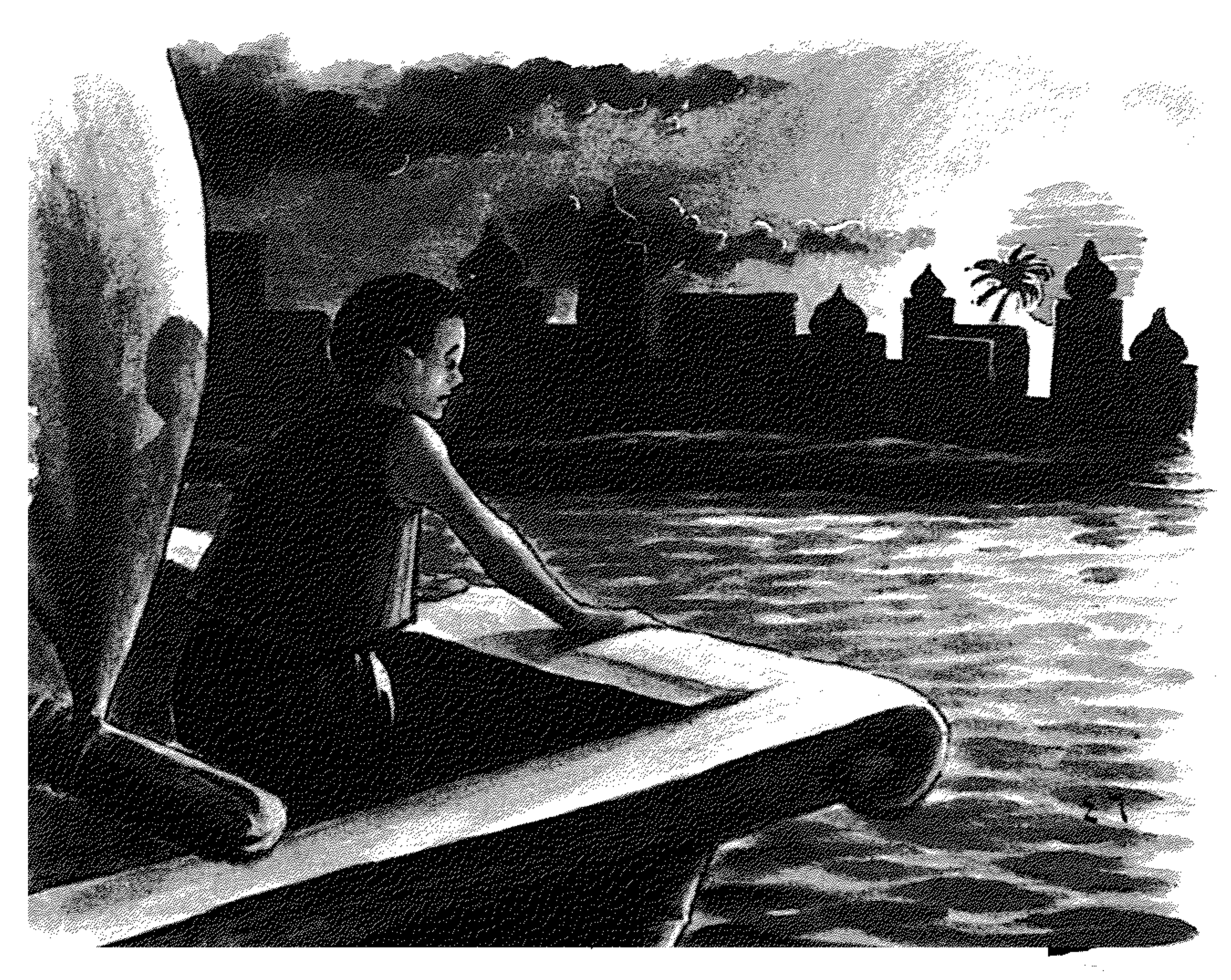
وَبَعْدَ أَنْ تَفَقَّدَ الرُّبّانُ مُؤَنَ السَّفينَةِ وَأَقْواتَ البَحّارَةِ وَأَعْلافَ الخُيولِ وَمِياهَ الشُّرْبِ ، أَمَرَ البَحّارَةَ بِتَجْهيزِ السَّفينَةِ لِلإِقْلاعِ . وَفي الحالِ انْطَلَقَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُؤَدّي واجِبَهُ المُحَدَّدَ في نِظامٍ وَتَرْتيبٍ بَديعَيْنِ دونَ أَدْنى تَقاعُسٍ . وَمَنْ يَعْرِفْ حَياةَ البَحْرِ يُدْرِكْ أَنَّ ذَلِكَ يُصْبِحُ لِلْبَحّارِ طَبيعَةً مُكْتَسَبَةً ؛ فَمَصيرُ السَّفينَةِ يَتَوَقَّفُ عَلى سُرْعَةِ تَصَرُّفِ البَحّارَةِ وَتَعاوُنِهِمْ في دَرْءِ الأَخْطارِ .

وَقَدْ شارَكَ إِيادٌ في العَمَلِ المُكَلَّفِ بِهِ حينَ أَمَرَ الرُّبّانُ بِتَجْهيزِ السَّفينَةِ ، وَلَمْ يَسْتَنْكِفْ مِنَ القِيامِ بِأَشَقِّ المَهامِّ وَأَخْطَرِها مَتى طُلِبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ . فَتَسَلَّقَ صارِيَ السَّفينَةِ الأَوْسَطَ ، وَهُوَ أَعْلى صَواريها ، حينَ طَلَبَ مِنْهُ كالاواهو ذَلِكَ ، ثُمَّ فَكَّ الشِّراعَ الأَكْبَرَ ، وَأَحْكَمَ شَدَّ الحِبالِ المُتَّصِلَةِ بِهِ إِلى الحَلَقاتِ الحَديدِيَّةِ المُثَبَّتَةِ عَلى سَطْحِ السَّفينَةِ .

وَكانَ الرُّبّانُ واقِفاً يُتابِعُ ما يَفْعَلُهُ بَحّارَتُهُ ، وَمِنْ حينٍ لآخَرَ

يُصْدِرُ بَعْضَ الأوامِرِ السَّريعَةِ المُتَلاحِقَةِ فَيُنَفِّذُها مَنْ هُوَ مُكَلَّفٌ بِها .
وَعِنْدَما بُسِطَتْ أشْرِعَةُ السَّفينَةِ جَميعُها أمَرَ الرُّبّانُ بِرَفْعِ المِرْساةِ وَتَوْجيهِ مُقَدِّمَتِها صَوْبَ الجَنوبِ .

وَراحَتِ السَّفينَةُ الضَّخْمَةُ تَتَحَرَّكُ وَتَشُقُّ بِمُقَدِّمَتِها عُبابَ اليَمِّ ، تارِكَةً وَراءَها خَطًّا مِنَ الزَّبَدِ الأبْيَضِ . وَكانَ إيادٌ قَدْ فَرَغَ مِمّا كُلِّفَ بِهِ ، فَوَقَفَ مُتَّكِئًا عَلى سِياجِ مُؤَخَّرَةِ السَّفينَةِ يَرْقُبُ - في صَمْتٍ - بُيوتَ البَصْرَةِ وَقِبابَها وَمَآذِنَها وَأشْجارَها ، وَهِيَ تَبْتَعِدُ عَنْ ناظِرَيْهِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، في حينِ كانَتِ الشَّمْسُ تُؤْذِنُ بِالمَغيبِ .



وَأَخَذَتْ مَعالِمُ المَدينَةِ تَتَلاشى حَتّى لَمْ يَعُدْ يَبْدو مِنْها إلّا أضْواءً مُتَراقِصَةً تَنْبَعِثُ مِنَ القَناديلِ وَالمَسارِجِ .

وَما لَبِثَتِ الشَّمْسُ أنْ تَوارَتْ تَماماً وَراءَ الأفُقِ كَما تَوارَتِ البَصْرَةُ في دَياجيرِ الظَّلامِ . وَجاءَ بَحّارٌ فَأضاءَ القَناديلَ المُعَلَّقَةَ في مُؤَخِّرَةِ السَّفينَةِ ؛ لِتَكونَ نِبْراساً تَهْتَدي بِهِ بَقِيَّةُ السُّفُنِ في حُلْكَةِ اللَّيْلِ فَلا تَرْتَطِمَ بِها . وَقَدِ انْشَغَلَ إيادٌ لِفَتْرَةٍ بِمُراقَبَةِ ما يَصْنَعُهُ ذَلِكَ البَحّارُ ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى السَّماءِ الصّافِيَةِ الَّتي تَتَلألأُ نُجومُها ، فَأدْخَلَ ذَلِكَ بَعْضَ السَّكينَةِ إلى قَلْبِهِ .

وَلَمْ تَكُنِ المِلاحَةُ في ذَلِكَ العَصْرِ أشَقَّ لَيْلاً مِنْها أثْناءَ النَّهارِ ؛ نَظَراً لِتَقَدُّمِ عِلْمِ الفَلَكِ وَفُنونِ المِلاحَةِ عَلى يَدِ العُلَماءِ العَرَبِ ، فَلَمْ يَكُنْ عَسيراً عَلى الرَّبابِنَةِ أنْ يَهْتَدوا بِالنُّجومِ وَالكَواكِبِ لَيْلاً كَما يَهْتَدونَ بِمَواقِعِ الشَّمْسِ نَهاراً ، حَتّى في البِحارِ وَالمُحيطاتِ الواسِعَةِ .

وَقَدْ واصَلَتِ السَّفينَةُ إبْحارَها دونَ تَوَقُّفٍ في مَرافِئِ الخَليجِ العَرَبِيِّ لِعَدَمِ احْتِياجِها إلى المُؤَنِ ، وَرَغْبَةً مِنَ الرُّبّانِ في الاسْتِفادَةِ مِنَ الرِّياحِ المَوْسِمِيَّةِ في قَطْعِ شَوْطٍ مِنَ الرِّحْلَةِ . وَتَوَقَّفَتِ السَّفينَةُ بَعْضَ الوَقْتِ في بومباي لِلتَّزَوُّدِ بِالمِياهِ وَالمُؤَنِ وَالأعْلافِ ، ثُمَّ

اسْتَأنفَتْ إبْحارَها مُتَّجِهَةً إلى سَرَنْديبَ . بَيْدَ أنَّ الرُّبّانَ اضْطُرَّ إلى تَغْيِيرِ مَسارِ رِحْلَتِهِ وَالاتِّجاهِ إلى أقْرَبِ ميناءٍ ؛ لإصابَةِ بَعْضِ البَحّارَةِ - مِمَّنْ نَزَلوا إلى البَرِّ في بومباي - بِالتَّسَمُّمِ مِنْ جَرّاءِ تَناوُلِ طَعامٍ فاسِدٍ . وَلَمْ يَرَ الرُّبّانُ بُدًّا مِنْ إنْزالِهِمْ إلى البَرِّ لِلتَّداوي وَالرّاحَةِ ، وَلِيَسْتَبْدِلَ بِهِمْ بَحارَةً آخَرينَ يُواصِلونَ مَعَهُ الرِّحْلَةَ وَيَتَحَمَّلونَ مَشاقَّها . وَكانَ ميناءُ قَليقوطَ هُوَ أقْرَبَ المَوانِئِ في الطَّريقِ ، فَأمَرَ الرُّبّانُ بِتَوْجيهِ السَّفينَةِ إلَيْهِ .

الفصل السادس

أعْيادُ قليقوط

كانَ ابْنُ صَيْفورٍ يَتَحَيَّنُ الفُرَصَ لِيَعْرِفَ سِرَّ القِلادَةِ قَبْلَ بُلوغِ السَّفينَةِ وُجْهَتَها النِّهائِيَّةَ ، فَظَلَّ يُعْمِلُ فِكْرَهُ وَيُدَبِّرُ الخُطَطَ ، حَتّى أَلْقَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها لَيْلاً في ميناءِ قَليقوطَ . وَاقْتَرَبَ ابْنُ صَيْفورٍ مِنْ إِيادٍ ، الَّذي كانَ مُتَّكِئاً عَلى سِياجِ السَّفينَةِ الأَيْمَنِ ، يَتَطَلَّعُ إِلى أَنْوارِ المَدينَةِ المُتَلأْلِئَةِ في الظَّلامِ ، وَكانَتْ أَصْواتُ الأَبْواقِ وَالطُّبولِ تُسْمَعُ مِنْ بَعيدٍ ، وَقالَ لَهُ : « يَبْدو أَنَّ القَوْمَ في عيدٍ !»

لَمْ يَكُنْ إِيادٌ يَرْتاحُ لِحَديثِ ابْنِ صَيْفورٍ ، وَلَكِنَّهُ رَأى مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ أَنْ يُسامِرَهُ في تِلْكَ السّاعَةِ ؛ فَأَجابَهُ بِاقْتِضابٍ : « أَظُنُّ أَنَّ الأَمْرَ كَما تَقولُ .»

وَكَأَنَّما كانَ ذَلِكَ الرَّدُّ هُوَ ما يَحْتاجُهُ ابْنُ صَيْفورٍ لِيَسْتَرْسِلَ في الكَلامِ ، فاسْتَطْرَدَ قائِلاً : « سَأَنْزِلُ غَداً إِلى البَرِّ مَعَ ابْنَتي لِنُشاهِدَ

أعْيادَ أولَئِكَ النَّاسِ ، فَلَعَلَّ فيها ما يُدْخِلُ البَهْجَةَ وَيُذْهِبُ الوَحْشَةَ بَعْدَ المُدَّةِ الَّتي قَضَيْناها وَحْدَنا عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، فَهَلّا صَحِبْتَنا ؟»

« لا أعْلَمُ إنْ كانَ الرُّبّانُ سَيُكَلِّفُني بِالمُكوثِ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ أوْ يَسْمَحُ لي بِالنُّزولِ .»

« إنْ شِئْتَ خاطَبْتُهُ في ذَلِكَ !»

« أرْجو ألا تَفْعَلَ ذَلِكَ ، بَلْ دَعْ هَذا الأمْرَ لي !»

وَلَمَّا أسْفَرَ الصُّبْحُ اسْتَأْذَنَ إيادٌ مِنَ الرُّبّانِ في النُّزولِ إلى البَرِّ ، فَأذِنَ لَهُ وَلِبَعْضِ البَحّارَةِ وَاسْتَبْقى الآخَرينَ لِحِراسَةِ السَّفينَةِ . وَكَلَّفَ كالاواهو بِاصْطِحابِ البَحّارَةِ المَرْضى إلى البَرِّ ؛ لِيَعْهَدَ بِهِمْ إلى مَنْ يُداويهِمْ وَيَعْتَني بِهِمْ حَتَّى يَعودَ مِنْ رِحْلَتِهِ ، أوْ يَجِدوا عَمَلاً في سَفينَةٍ أخْرى ، كَما كَلَّفَهُ بِاسْتِئْجارِ بَحّارَةٍ آخَرينَ عِوَضاً عَنْهُمْ . وَنَزَلَ مَنْ أذِنَ لَهُمُ الرُّبّانُ بِالنُّزولِ ، وَكانَ إيادٌ وَابْنُ صَيْفورٍ وَحِمْنَةُ بَيْنَ مَنْ نَزَلوا .

وَتَصادَفَ أنْ كانَ نُزولُهُمْ في يَوْمِ « الدّيفالي » – وَهُوَ مِنْ أهَمِّ الأعْيادِ الدّينِيَّةِ عِنْدَ الهُنْدوسِ . وَكانَ الزِّحامُ شَديداً وَالقَيْظُ لا يُطاقُ. وَ وَقَفَ إيادٌ يُشاهِدُ مَواكِبَ الفِيَلَةِ وَهِيَ تَمُرُّ أمامَهُ بِخُطُواتِها الثَّقيلَةِ

فَتُثيرُ الغُبارَ . وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ تَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَجِدِ ابْنَ صَيْفورٍ وَابْنَتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَمامَهُ مِنْ سَبيلٍ لِتَتَبُّعِ آثارِهِما وَسْطَ هَذا الزِّحامِ . وَطَمْأَنَ نَفْسَهُ بِأَنَّ الميناءَ غَيْرُ بَعيدٍ ، حَتّى إِنَّهُ كانَ يَسْتَطيعُ – إذا ما نَظَرَ خَلْفَهُ – رُؤْيَةَ السُّفُنِ الرّاسِيَةِ . فَلَوْ أَنَّهُما أَرادا العَوْدَةَ لَما ضَلّا الطَّريقَ .

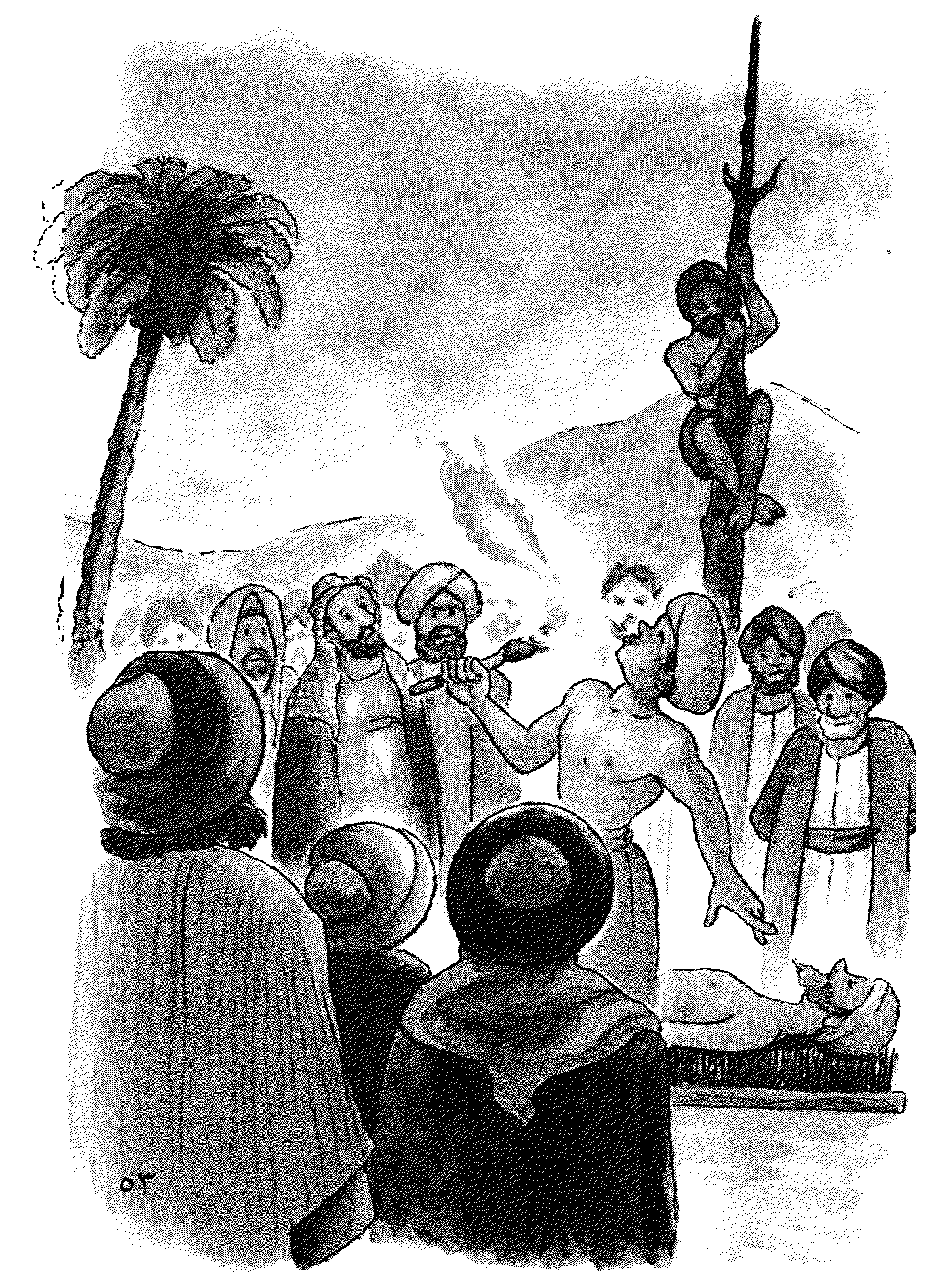
وَاسْتَمَرَّتِ الفِيَلَةُ تَمُرُّ وَقَدْ كُسِيَتْ بِالدِّيباجِ وَالحَريرِ المُلَوَّنِ بِأَلْوانٍ زاهِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَطُرِّزَتْ كُسْوَتُها بِالقَصَبِ وَطُعِّمَتْ بِالأَحْجارِ الكَريمَةِ . وَكانَ عَلى ظَهْرِ كُلٍّ مِنْها هَوْدَجٌ يَحْمِلُ عَدَداً مِنَ النّاسِ ، بَعْضُهُمْ مِنَ الجُنْدِ وَبَعْضُهُمْ مِنْ بِطانَةِ المِهْراجا . وَسارَتْ في المُقَدِّمَةِ الفِيَلَةُ الَّتي تَحْمِلُ نافِخي الأَبْواقِ وَقارِعي الطُّبولِ وَحامِلي الأَعْلامِ ، وَتَبِعَتْها تِلْكَ الَّتي تَحْمِلُ المِهْراجا وَأُسْرَتَهُ وَخاصَّتَهُ ، وَكانَتْ أَكْثَرَ زينَةً مِنْ سابِقَتِها .

أَمّا الشَّوارِعُ وَالأَزِقَّةُ الجانِبِيَّةُ المُؤَدِّيَةُ إِلى الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ الَّذي يَمُرُّ فيهِ المَوْكِبُ ، فَكانَتْ تَموجُ أَيْضاً بِالحَرَكَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ ما يَجْري فيها بِأَقَلَّ تَسْلِيَةً وَإِمْتاعاً . فَفي مَواضِعَ جِدِّ مُتَقارِبَةٍ وَقَفَ الحُواةُ وَالسَّحَرَةُ وَنافِخو اللَّهَبِ وَسُوّاسُ القُرودِ ، يَعْرِضونَ أَلْعابَهُمْ طَلَباً لِلرِّزْقِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفُخُ في مِزْمارِهِ فَتَخْرُجُ أَفْعى تَتَراقَصُ مِنْ سَلَّةٍ مَوْضوعَةٍ أَمامَهُ ؛ وَإِلى جِوارِهِ آخَرُ يَبْتَلِعُ شُعْلَةً مِنَ اللَّهَبِ ثُمَّ يَنْفُثُها

مِنْ فَمِهِ دونَ أنْ يُصابَ بِضَرَرٍ ؛ وَثالِثٌ يَزْدَرِدُ السَّيْفَ حَتَّى مِقْبَضِهِ ثُمَّ يَنْزِعُهُ مِنْ جَوْفِهِ دونَ أنْ تَقْطُرَ مِنْهُ قَطْرَةُ دَمٍ ؛ وَرابِعٌ قَدْ تَمَدَّدَ عَلى سَريرٍ مِنَ المَساميرِ وَكَأنَّهُ يَتَقَلَّبُ عَلى حَشِيَّةٍ مِنْ ريشِ النَّعامِ ؛ في حينِ يَصيحُ سائِسُ القُرودِ فيها فَتَصْدَعُ بِأمْرِهِ وَتَأْتي بِحَرَكاتٍ مُسَلِّيَةٍ تَبْعَثُ عَلى الضَّحِكِ وَالعَجَبِ .

وَقَدْ هالَ إِياداً ما لَمَسَهُ مِنِ اكْتِظاظِ المَدينَةِ بِجُموعِ الفُقَراءِ والمَساكينِ ، رَغْمَ مَظاهِرِ الغِنى الفاحِشِ الَّتي تَجَلَّتْ في مَوْكِبِ الفيلَةِ . وَكانَتْ عَلاماتُ البُؤْسِ وَالجوعِ بادِيَةً عَلى مُعْظَمِ النّاسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ يَنْتَظِرُ الكِسْرَةَ أنْ تَسْقُطَ مِنْ طِفْلٍ مِنْ أبْناءِ المَحْظوظينَ ، لِيُهْرَعَ إلى الْتِقاطِها وَازْدِرادِها ، وَقَدْ يُنازِعُهُ غَيْرُهُ فيها . وَحَرَّكَتْ أماراتُ الفَقْرِ وَالجوعِ مَشاعِرَ الشَّفَقَةِ في قَلْبِ إِيادٍ؛ فَجَعَلَ يَجودُ بِما مَعَهُ مِنْ مالٍ ، فَتَحَلَّقَ حَوْلَهُ خَلْقٌ كَثيرٌ ؛ طَمَعًا في إِحْسانِهِ .

وَلَمْ يَلْحَظْ إِيادٌ في أوَّلِ الأمْرِ تَزايُدَ الزِّحامِ حَوْلَهُ ؛ لأنَّ الشَّوارِعَ كانَتْ تَعِجُّ بِالنّاسِ فِعْلاً ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ غَيْرَ قَليلٍ حَتّى ألْفى نَفْسَهُ مُحاطًا بِسِياجٍ بَشَرِيٍّ أحْكَمَتْ حَلَقاتُهُ ، وَاخْتَلَطَ فيهِ الشَّحّاذونَ وَالمَساكينُ بِالبائِعينَ وَالحُواةِ وَسُوّاسِ القُرودِ . وَأحَسَّ إِيادٌ بِأنَّهُ يَكادُ يَخْتَنِقُ ؛ فَأخَذَ يَدْفَعُ المُتَزاحِمينَ بَعيداً عَنْهُ دونَ جَدْوى،



حَتَّى أَشْرَفَ عَلى الهَلاكِ .

وَلَمْ يَلْبَثِ الزِّحامُ أنِ انْفَرَجَ عَنْ إيادٍ فَجْأَةً كَما طَوَّقَهُ فَجْأَةً ، وَكَأَنَّ يَداً خَفِيَّةً كانَتْ تُحَرِّكُهُ في كِلْتا الحالَتَيْنِ . وَنَظَرَ إيادٌ حَوْلَهُ وَهُوَ لا يُصَدِّقُ أَنَّهُ نَجا ، فَوَجَدَ النَّاسَ يُفْسِحونَ مَجالاً لِمُرورِ بَعْضِ الأَبْقارِ ، وَكانَ بادِيًا مِنْ حَرَكاتِ النَّاسِ وَإِيماءاتِهِمْ أَنَّهُمْ يُجِلُّونَها وَيَنْظُرونَ إِلَيْها نَظْرَةَ تَقْديسٍ .

وَطَفِقَ إيادٌ يُصْلِحُ مِنْ هِنْدامِهِ وَيَنْفُضُ ما عَلِقَ بِهِ مِنْ غُبارٍ . وَسَرْعانَ ما تَنَبَّهَ إِلى أَنَّ القِلادَةَ لَيْسَتْ في مَوْضِعِها مِنْ صَدْرِهِ ، فَأَخَذَ يُجيلُ النَّظَرَ في الأَرْضِ فَلَمْ يَجِدْ لَها أَثَرًا . وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ رُبَّما تَكونُ الرِّمالُ قَدْ طَمَرَتْها بِسَبَبِ تَدافُعِ النَّاسِ ؛ فَأَخَذَ يُمَشِّطُ الأَرْضَ بِأَصابِعِهِ في أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ بَحْثًا عَنْها . وَأَثارَ ذَلِكَ فُضولَ بَعْضِ الواقِفينَ فَشَرَعوا يُحاكونَهُ ؛ بَعْضُهُمْ طَمَعًا في الغَنيمَةِ وَبَعْضُهُمْ بِدافِعِ الرَّغْبَةِ في المُساعَدَةِ .

وَأَيْقَنَ إيادٌ أَنَّ العُثورَ عَلى القِلادَةِ وَسْطَ تِلْكَ الجُموعِ ضَرْبٌ مِنَ المُحالِ ، لَكِنَّ نَفْسَهُ لَمْ تُطاوِعْهُ في أَنْ يُغادِرَ المَكانَ قَبْلَ أَنْ يُعاوِدَ البَحْثَ حينَ تَهْدَأُ الحَرَكَةُ وَيَقِلُّ الزِّحامُ ، فَأَوى إِلى الظِّلِّ لِيَسْتَريحَ في حينَ واصَلَ عَدَدٌ مِنَ المُتَطَفِّلينَ البَحْثَ في الرِّمالِ ،

وَهُمْ لا يَدْرونَ عَنْ أيِّ شَيْءٍ يَبْحَثونَ ، أوْ ما كانَ يَبْحَثُ عَنْهُ إيادٌ .

وَمَضى وَقْتٌ طَويلٌ وَهُوَ عَلى حالَتِهِ هَذِهِ لا يُريدُ مُغادَرَةَ مَكانِهِ ، وَيُمَنّي نَفْسَهُ بِأنْ يَعْثُرَ أحَدُ أولَئِكَ المُتَطَفِّلينَ عَلى القِلادَةِ فَيُكافِئَهُ بِبَعْضِ المالِ . وَبَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ ناداهُ الفَقيرُ الهِنْدِيُّ الرّاقِدُ عَلى سَريرِ المَساميرِ ؛ فاقْتَرَبَ مِنْهُ إيادٌ ، وَدونَ أنْ يَنْهَضَ الرَّجُلُ مِنْ مَكانِهِ قالَ لَهُ : « لَنْ تَجِدَ ما ضاعَ مِنْكَ هُنا ، بَلْ سَتَجِدُهُ عِنْدَ راجي لال .»

سَألَهُ إيادٌ مُتَلَهِّفًا : « راجي لال ؟ وَمَنْ يَكونُ راجي لال ؟ »

وَلَمْ يَكْتَرِثِ الفَقيرُ الهِنْدِيُّ بِالرَّدِّ عَلى سُؤالِهِ ، بَلْ عاوَدَ رُقادَهُ وَأغْمَضَ عَيْنَيْهِ .

وَكانَ بَعْضُ المَساكينِ مِمَّنْ أحْسَنَ إلَيْهِمْ إيادٌ قَدْ عادوا يَتَحَلَّقونَ حَوْلَهُ ، وَسَمِعَ أحَدُهُمْ ذَلِكَ الحِوارَ فَقالَ لإيادٍ : « أنا أعْرِفُ راجي لال ، وَسَأصْحَبُكَ إلَيْهِ ، فَلا تَبْتَئِسْ ! »

وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ مَناصٌ مِنْ أنْ يَذْهَبَ إيادٌ مَعَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذي تَطَوَّعَ لِيَدُلَّهُ عَلى مَكانِ راجي لال ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ قِلادَتَهُ الضّائِعَةَ . فَسارَ مَعَ دَليلِهِ يَتَحَدَّثانِ بِقَدْرِ ما تَسْمَحُ بِهِ إجادَةُ الرَّجُلِ لِلْعَرَبِيَّةِ . وَأثْناءَ الحَديثِ عَرَفَ إيادٌ مِنْهُ أنَّ اسْمَ مَدينَتِهِ يُنْطَقُ « كاليكوت » لا

« قَليقوط » كَما يَنْطِقُها البَحّارَةُ العَرَبُ .

وَانْطَلَقَ الاثْنانِ حَتّى خَرَجا مِنَ المَدينَةِ ، فَأَخَذَتِ الدّورُ وَالقُصورُ البَديعَةُ البِناءِ وَالمَحوطَةُ بِالبَساتينِ تَتَوارى وَراءَ حُجُبٍ مِنَ الأَشْجارِ ، وَتَحُلُّ مَكانَها أَكْواخٌ قَذِرَةٌ مِنَ الطّينِ مَعْروشَةٌ بِأَوْراقِ الشَّجَرِ ، وَتَكْتَنِفُها الأَحْراشُ الكَثيفَةُ المُلْتَفَّةُ وَأَشْجارُ جَوْزِ النّارَجيلِ الباسِقَةُ .

وَأَجْهَدَ العَطَشُ إِياداً ، وَأَدْرَكَ الدَّليلُ ذَلِكَ فَتَسَلَّقَ إِحْدى أَشْجارِ الجَوْزِ في خِفَّةٍ وَمَهارَةٍ ، وَما لَبِثَ أَنْ هَبَطَ بِثَمَرَتَيْنِ مِنْ جَوْزِ الهِنْدِ ، فَدَقَّهُما بِحَجَرٍ حَتّى انْشَقَّتْ كُلٌّ مِنْهُما وَسالَ رَحيقُهُما ، فَناوَلَ إِياداً إِحْداها لِيَرْوِيَ ظَمَأَهُ ، وَأَخَذَ يَعُبُّ هُوَ مِنَ الأُخْرى .

وَما لَبِثا أَنْ بَلَغا أَحَدَ الأَكْواخِ ، وَعَلِمَ إِيادٌ مِنْ دَليلِهِ أَنَّ ذَلِكَ كوخُ راجي لال . وَاسْتَأْذَنَ الدَّليلُ في الدُّخولِ فَأَذِنَ لَهُ وَحْدَهُ ، وَبَقِيَ إِيادٌ يَنْتَظِرُ صاحِبَهُ خارِجَ الكوخِ ، وَيَنْظُرُ إِلى القُرودِ الَّتي تَقْفِزُ عَلى أَغْصانِ الشَّجَرِ . وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ خَرَجَ الرَّجُلُ يُبَشِّرُ إِياداً بِأَنَّ قِلادَتَهُ الضّائِعَةَ سَتَعودُ إِلَيْهِ ، وَاسْتَأْنَفَ الاثْنانِ السَّيْرَ .

وَعَرَفَ إِيادٌ مِنْ صاحِبِهِ أَنَّ راجي لال هُوَ كَبيرُ أَصْحابِ الحِرَفِ مِنَ الحُواةِ وَسُوّاسِ القُرودِ وَمُزْدَرِدي السُّيوفِ . وَعَرَفَ أَيْضاً أَنَّ بَعْضَ سُوّاسِ القُرودِ يُدَرِّبونَ القِرَدَةَ عَلى سَرِقَةِ الحُلِيِّ ، وَقَدْ عَلِمَ

راجي لال بِسَرِقَةِ القِلادَةِ ، وَسَيُعيدُها سارِقُها إلى إيادٍ بِأَمْرٍ مِنْهُ .

وَساوَرَ إياداً الشَّكُّ فيما قالَهُ دَليلُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ مُتابَعَةِ السَّيْرِ مَعَهُ بَعْدَ أَنْ حَلَّ الظَّلامُ وَلَمْ يَعُدْ يُمَيِّزُ الطَّريقَ الَّتي سَيَعودُ مِنْها . وَبَعْدَ مَسيرَةِ ساعَةٍ ازْدادَ مَعَها تَكاثُفُ الأَحْراشِ ، وَصَلا إلى كوخٍ امْتَلأَتْ ساحَتُهُ بِالقِرَدَةِ . وَنادى الدَّليلُ صاحِبَ الكوخِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، وَبَدا عَلى وَجْهِهِ أَنَّهُ عَرَفَ إياداً عَلى الفَوْرِ ، وَهَمَّ بِأَنْ يَعودَ أَدْراجَهُ داخِلَ الكوخِ لَوْلا أَنِ اسْتَوْقَفَهُ الدَّليلُ وَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُما أَقْبَلا مِنْ عِنْدِ راجي لال ؛ فَتَسَمَّرَ الرَّجُلُ في مَكانِهِ ، وَطَفِقَ الرَّجُلانِ يَتَحاوَرانِ بِرَطانَةٍ لَمْ يَفْهَمْ مِنْها إيادٌ حَرْفاً . وَما كانَ أَشَدَّ عَجَبَ إيادٍ حينَ دَخَلَ الرَّجُلُ إلى كوخِهِ وَعادَ يَحْمِلُ لِفافَةً ناوَلَها إياداً ، الَّذي فَتَحَها لِيَجِدَ فيها قِلادَتَهُ الضّائِعَةَ .

وَانْصَرَفَ إيادٌ وَدَليلُهُ عائِدَيْنِ إلى المَدينَةِ . وَلَمْ يُخْفِ إيادٌ دَهْشَتَهُ مِمّا حَدَثَ ؛ فَقالَ لَهُ الدَّليلُ : « لَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ سائِسِ القُرودِ أَنَّ رَجُلاً أَغْراهُ بِسَرِقَةِ القِلادَةِ وَ وَعَدَهُ بِمُكافَأَةٍ سَخِيَّةٍ إِنْ جاءَهُ بِها ، وَما لَبِثا أَنِ اخْتَلَفا عَلى قيمَةِ المُكافَأَةِ ، ثُمَّ تَراضَيا عَلى أَنْ يَذْهَبا إلى أَحَدِ الصّاغَةِ لِيَصْنَعَ لِلرَّجُلِ قِلادَةً مِثْلَها ؛ فاحْتَفَظَ سائِسُ القُرودِ بِقِلادَتِكَ الَّتي سَرَقَها ، وَفازَ أَيْضاً بِمَبْلَغٍ مِنَ المالِ . وَقَدْ زَلَّ لِسانُهُ فَعَرَفْتُ مِنْهُ قيمَةَ المُكافَأَةِ الَّتي أَخْفى أَمْرَها عَنْ شَيْخِهِ راجي لال ،

وَهَدَّدْتُهُ بِفَضْحِ أمْرِهِ لِشَيْخِهِ ؛ فَما كانَ مِنْهُ إلّا أنْ رَدَّ القِلادَةَ صاغِراً ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَساوَمَنا عَلَيْها دَهْراً !»

وَأبْدى إيادٌ شُكْرَهُ وَامْتِنانَهُ لِلدَّليلِ وَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَكْتُمَ عَجَبَهُ مِنْ سَطْوَةِ شَيْخِ الحِرَفِيِّينَ عَلى أتْباعِهِ ، وَأفْصَحَ عَنْ ذَلِكَ لِدَليلِهِ الَّذي أخْبَرَهُ بِأنَّ شَيْخَ الحِرَفِيِّينَ يَسْتَطيعُ - لَوْ شاءَ - أنْ يُعاقِبَ مَنْ يَخونُهُ بِالمَوْتِ حَرْقًا أوْ بِقَطْعِ بَعْضِ أطْرافِهِ ؛ فَلا عَجَبَ أنْ دانَ لَهُ أتْباعُهُ بِالطّاعَةِ العَمْياءِ .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ بَلَغَ الاثْنانِ وَسَطَ المَدينَةِ ، وَأخْرَجَ إيادٌ بَعْضَ المالِ لِيُعْطِيَهُ لِدَليلِهِ مُكافَأةً لَهُ عَلى صَنيعِهِ ، فَأبى قائِلاً : « إنَّ المَعْروفَ لا يَضيعُ .»

وَفارَقَهُ إيادٌ ثُمَّ أغَذَّ السَّيْرَ لِيَصِلَ إلى مَرْسى السُّفُنِ بَعْدَ انْتِصافِ اللَّيْلِ بِقَليلٍ ؛ وَكانَ الجَهْدُ وَالجوعُ قَدْ بَلَغا مِنْهُ مَبْلَغًا عَظيماً . وَلَمْ يَسْتَطِعْ إيادٌ - رَغْمَ ذَلِكَ - أنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ التَّفْكيرِ فيما جَرى لَهُ ، وَخَطَرَ لَهُ أنْ يَكونَ لابْنِ صَيْفورٍ يَدٌ في ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ أقْصى ذَلِكَ الخاطِرَ ؛ فَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَتَّهِمونَ النّاسَ بِمُجَرَّدِ الظَّنِّ .

وَصَعِدَ إيادٌ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ وَتَوَجَّهَ إلى مَرْبَطِ الخُيولِ لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْها ، ثُمَّ طَلَبَ إلى الطّاهي أنْ يَأتِيَهُ بِطَعامٍ ، وَبَعْدَ أنْ فَرَغَ مِنْ

تناوُلِه اغْتَسَلَ وَصَلَّى ، ثُمَّ آوى إلى فِراشِهِ وَقَدْ غَلَبَهُ التَّعَبُ ؛ فَراحَ في سُباتٍ عَميقٍ لَمْ يُفِقْ مِنْهُ إلّا عَلى نِداءِ الرُّبّانِ عَلى البَحّارَةِ بِتَجْهيزِ السَّفينَةِ لِلإقْلاعِ إلى سَرَنْديبَ .

وَنَهَضَ إياذُ مُسْرِعًا لِيُشارِكَ البَحّارَةَ عَمَلَهُمْ ، وَناوَلَهُ أَحَدُهُمْ طَعامًا لِفَطورِهِ فَجَعَلَ يَتَناوَلُهُ وَهُوَ يَعْمَلُ ما كُلِّفَ بِهِ . وَارْتَفَعَتْ أَشْرِعَةُ السَّفينَةِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا لِتَدْفَعَها الرِّياحُ المُواتِيَةُ في اتِّجاهِ سَرَنْديبَ ، قُرْبَ الطَّرَفِ الجَنوبِيِّ لِشِبْهِ القارَّةِ الهِنْدِيَّةِ .

وَبَعْدَ أَيّامٍ وَلَيالٍ لاحَ ساحِلُ جَزيرَةِ سَرَنْديبَ ، فَأَمَرَ الرُّبّانُ بِطَيِّ الأَشْرِعَةِ واحِدًا فَواحِدًا ؛ حَتّى تَخِفَّ سُرْعَةُ السَّفينَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَدَخَلَتِ السَّفينَةُ المَرْفَأَ تَتَهادى ، حَتّى إذا بَلَغَتْ أَقْرَبَ نُقْطَةٍ مِنَ البَرِّ صالِحَةٍ لِلرُّسُوِّ ، أَمَرَ الرُّبّانُ بِإِنْزالِ المِرْساةِ وَمَدِّ أَلْواحِ النُّزولِ إلى البَرِّ .

الفصل السابع

في جَزيرَةِ سَرَنْديب

كانَ ابْنُ صَيْفورٍ وَابْنَتُهُ يَتَطَلَّعانِ إلى البَرِّ في حينِ تُلْقي السَّفينَةُ مَراسِيَها . وَلَمَحَهُ الرُّبّانُ وَهُوَ يَتَأَهَّبُ لِلنُّزولِ بِصُحْبَةِ كالاواهو لِمُقابَلَةِ والي المَدينَةِ ؛ لإعْلامِهِ بِوُصولِ المَجانيقِ المُهْداةِ مِنَ الخَليفَةِ إلى المَلِكِ ، فَقالَ لَهُ بِنَبْرَةٍ تَنِمُّ عَنِ الضّيقِ :

« ها قَدْ وَصَلْنا إلى سَرَنْديبَ ، فَلَعَلَّكَ تَجِدُ فيها ما كُنْتَ تَنْشُدُهُ !»

وَغَمْغَمَ ابْنُ صَيْفورٍ بِإِجابَةٍ مُبْهَمَةٍ خافِتَةٍ . وَلَمّا كانَ الرُّبّانُ في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ فَقَدْ نَزَلَ وَلَمْ يُعَقِّبْ . وَلاحَظَ كالاواهو ضيقَهُ فَقالَ لَهُ مُحاوِلاً أَنْ يُسَرِّيَ عَنْهُ:

« أرى أَنَّهُ لا يَزالُ في نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ هَذا الرَّجُلِ ، وَما هُوَ إلا شَيْخٌ عَجوزٌ لا يُخْشى جانِبُهُ ! »

« لا أكتُمُكَ أنّي أجِدُ فيهِ ما لا يَجْعَلُني أسْتَريحُ إلَيْهِ ، وَلَوْلا إلْحاحُ والي البَصْرَةِ ما قَبِلْتُ سَفَرَهُ مَعَنا - كَما تَعْلَمُ - وَلَمْ آمَنْ أنْ أرْفُضَ طَلَبَ الوالي فَيَأمُرَ جُنودَهُ بِمُضايَقَتِنا . وَلا بُدَّ أنَّ لِهَذا الرَّجُلِ حِظْوَةً كَبيرَةً عِنْدَهُ ؛ فَمَنْ كانَ مِثْلَهُ لا تُقْعِدُهُ الوَسيلَةُ عَنِ الوُصولِ إلى غَرَضِهِ .»

« لكِنْ لا مَناصَ مِنْ أنْ يَبْرَحَ السَّفينَةَ في هَذا المَرْفَأ أوْ ذاكَ ، فَهُوَ ما جاءَ إلّا لِيَسْتَرِدَّ المالَ الَّذي لَهُ عِنْدَ بَعْضِ تُجّارِ المَشْرِقِ ، كَما قالَ .»

« أ وَتَحْسَبُ أنَّ الأمْرَ هكَذا ؟ ما عَهِدْتُكَ بِهَذِهِ السَّذاجَةِ ، يا كالاواهو !»

« فَما شَأنُهُ إذاً ؟»

« لا أدْري ، وَإنْ كُنْتُ أرى أنَّ في الأمْرِ سِرًّا لَمْ يَبُحْ بِهِ . لَيْتَهُ يَبْرَحُ سَفينَتَنا ؛ فَإنّي أتَوَجَّسُ مِنْهُ شَرًّا !»

« إنْ كانَ الأمْرُ كَما تَقولُ ؛ فَلْنَدَعْهُ يَرْحَلْ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ مَتى بَلَغْنا المَرْفَأَ الَّذي يَنْشُدُهُ ؛ حَتّى لا يَشْكُوَنا لِوالي البَصْرَةِ مَتى عادَ .»

« الرَّأيُ ما قُلْتَ !»

* * *

كانَ إيادٌ يتوقُ إلى النُّزولِ إلى برِّ الجزيرةِ لِيَلْتقِيَ أحَدَ أهْلِها ؛ عَلَّهُ يَسْتَطيعُ مُساعَدَتَهُ في فَكِّ بَعْضِ طَلاسِمِ القِلادَةِ ؛ فَهُوَ لَمْ يَنْسَ أنَّ سَرَنْديبَ هِيَ أوَّلُ الطَّريقِ - كَما هُوَ مَكْتوبٌ على القِلادَةِ - وَكانَ يُراوِدُهُ خاطِرٌ بِأنْ تكونَ بَعْضُ العِباراتِ المَنْقوشَةِ عَلى القِلادَةِ مَكْتوبَةً بِلُغَةِ تِلْكَ الجَزيرَةِ ؛ مِمَّا يُقَرِّبُهُ مِنَ الوُصولِ إلى هَدَفِهِ . وَفاتَحَ إيادٌ الرُّبّانَ بِرَغْبَتِهِ في النُّزولِ إلى البَرِّ ، فَوَعَدَهُ بِأنْ يَأذَنَ لَهُ بِذَلِكَ مَتى فَرَغَ مِنْ أمْرِ الهَدِيَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِن بُدٍّ سِوى الانْتِظارِ عَلى مَضَضٍ ، وَأحْزَنَهُ أنَّ الرُّبّانَ سَمَحَ بِنُزولِ بَحّارَةٍ آخَرينَ دونَهُ .

وَما إنْ وَصَلَ الرُّبّانُ وَمُساعِدُهُ وَسَطَ المَدينَةِ حَتّى تَبَيَّنا أنَّها تَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأةِ الفَوْضى ؛ فَقَدْ خَرَجَتْ بَعْضُ القَبائِلِ عَلى والي المَدينَةِ ، وَطَفِقَ اللُّصوصُ يَعيثونَ فيها فَساداً ، وَيُعْمِلونَ فيها النَّهْبَ وَالحَرْقَ دونَ أنْ يَجِدوا لَهُمْ رادِعاً . وَقَدْ تَعَرَّضَ الرُّبّانُ وَمُساعِدُهُ كالاواهو لِلْخَطَرِ فِعْلاً ، وَكادَتْ شِرْذِمَةٌ مِنَ اللُّصوصِ تَفْتِكُ بِهِما لَوْلا أنَّ الرُّبّانَ اسْتَخْدَمَ حيلَةً مُجَرَّبَةً ؛ فَنَثَرَ صُرَّةً مِنَ المالِ عَلى اللُّصوصِ الَّذينَ انْكَفَئوا يَجْمَعونَها ؛ مِمّا أتاحَ فُسْحَةً مِنَ الوَقْتِ لِهُروبِهِما عائِدَيْنِ إلى السَّفينَةِ دونَ أنْ يَتَمَكَّنا مِنْ مُقابَلَةِ الوالي .

وَصَعِدَ الرُّبّانُ وَمُساعِدُهُ فَوْقَ الألْواحِ المَمْدودَةِ وَهُما يَلْهَثانِ .

وَاقْتَرَبَ إِيادُ مِنْهُما لِيَتَبَيَّنَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ ، وَلاحَظَ كالاواهو اكْتِئابَهُ فَسَأَلَهُ : « لَعَلَّهُ قَدْ أَحْزَنَكَ أَنَّ الرُّبّانَ لَمْ يَسْمَحْ لَكَ بِالنُّزولِ في حينَ سَمَحَ لِبَحّارَةٍ آخَرينَ بِذَلِكَ ؟ »

« لَقَدْ أَحْزَنَني ذَلِكَ حَقاً ! لكِنْ ما خَطْبُكُما ؟ »

« هَوِّنْ عَلَيْكَ ! إِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلاّ لِحاجَتِهِ إِلى تَدْبيرِكَ في إِنْزالِ المَجانيقِ ؛ وَلَوْلا ذَلِكَ لَسَمَحَ لَكَ بِالنُّزولِ مَعَ مَنْ نَزَلوا . وَلَوْ عَرَفْتَ ما جَرى لَنا ؛ لَما أَحْبَبْتَ النُّزولَ إِلى بَرِّ هَذِهِ الجَزيرَةِ قَطُّ ! »

وَأَخَذَ كالاواهو يَرْوي لإِيادٍ ما جَرى لَهُ وَلِلرُّبّانِ ؛ مِمّا جَعَلَ القَلَقَ يَتَسَرَّبُ إِلى نَفْسِ إِيادٍ بِشَأْنِ المَلاّحينَ التُّعَساءِ ، الَّذينَ نَزَلوا في الصَّباحِ وَلَمْ يَرْجِعوا بَعْدُ إِلى السَّفينَةِ . غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَفُتَّ في عَضُدِهِ أَوْ يَثْنِهِ عَنْ عَزْمِهِ بِأَنْ يَنْزِلَ إِلى المَدينَةِ ؛ عَلَّهُ يَلْقى أَحَداً مِنْ أَهْلِها فَيَسْأَلَهُ إِنْ كانَ في النَّقْشِ المَحْفورِ عَلى القِلادَةِ شَيْءٌ مَكْتوبٌ بِلُغَةِ أَهْلِ سَرَنْديبَ . وَلَمْ يَنَلْ مِنْ عَزْمِهِ ما بَدا عَلى وُجوهِ وَأَبْدانِ البَحّارَةِ – الَّذينَ عادوا – مِنْ آثارِ العِراكِ مَعَ اللُّصوصِ .

وَظَلَّتِ السَّفينَةُ راسِيَةً في الميناءِ حَتّى يَنْجَلِيَ الأَمْرُ ؛ وَقَدْ أَمَرَ الرُّبّانُ بِأَلا يَهْبِطَ أَحَدٌ ، وَظَلَّ يَرْقُبُ الميناءَ مِنْ فَوْقِ السَّفينَةِ مُتَحَيِّناً

فُرْصَةً تَهْدَأُ فيها الأمورُ فَيُنْزِلُ المجانيقَ وَيَفْرَغُ مِنْ أمْرِها . وَلكِنَّ الأمورَ تَطَوَّرَتْ بِسُرْعَةٍ وَازْدادَتْ سوءًا وَغُموضًا ، وَأَخَذَتِ المُؤونَةُ وَالمِياهُ العَذْبَةُ وَأَعْلافُ الخُيولِ في النَّفادِ ؛ فَخَشِيَ الرُّبّانُ أنْ يَهْلِكَ البَحّارَةُ وَالخُيولُ ، وَأَمَرَ البَحّارَةَ أنْ يُجَهِّزوا السَّفينَةَ لِلإقْلاعِ إلى أقْرَبِ ميناءٍ .

وَرَأى إيادٌ أنَّ السَّفينَةَ سَتُقْلِعُ دونَ أنْ تُتاحَ لَهُ فُرْصَةُ الاسْتِعْلامِ عَمّا هُوَ مَكْتوبٌ عَلى القِلادَةِ ؛ فَأَلَحَّ عَلى الرُّبّانِ أنْ يَسْمَحَ لَهُ بِالنُّزولِ . وَسَمَحَ لَهُ الرُّبّانُ بِذَلِكَ شَريطَةَ أنْ يَعودَ قَبْلَ مَوْعِدٍ مَعْلومٍ ضَرَبَهُ لَهُ وَإلّا أَبْحَرَ بِدونِهِ .

وَنَزَلَ إيادٌ مِنَ السَّفينَةِ ، وَأَسْرَعَ ابْنُ صَيْفورٍ وَابْنَتُهُ في إثْرِهِ . وَقَدْ لاحَظَ الرُّبّانُ ذَلِكَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ مِنَ النُّزولِ ، وَلَعَلَّهُ كانَ يُمَنّي النَّفْسَ بِألا يَرى وَجْهَهُ مَرَّةً أخْرى . أمّا إيادٌ فَلَمْ يَلْحَظْ نُزولَ ابْنِ صَيْفورٍ وَابْنَتِهِ في إثْرِهِ ؛ فَقَدْ كانَ مَشْغولاً بِأمْرِ القِلادَةِ وَالمَخاطِرِ الّتي حَدَّثَهُ عَنْها كالاواهو ؛ وَلَوْ أنَّهُ الْتَفَتَ وَراءَهُ لَرَأى مَنْ يَتَعَقَّبُهُ مِنْ بُعْدٍ .

وَما إنْ أصْبَحَ إيادٌ في الشّارِعِ المُحاذي لِلْميناءِ حَتّى تَبَيَّنَ لَهُ ، كَما تَبَيَّنَ لابْنِ صَيْفورٍ وَحِمْنَةَ ، مَدى الخَطَرِ المُحْدِقِ . وَرَأى هَذانِ أنَّ خَيْرَ ما يَدْرَأُ عَنْهُما الخَطَرَ أنْ يَحْسَبَهُما اللُّصوصُ مِنْ مَساكينِ

المَدينَةِ ؛ فَمَزَّقَ ابْنُ صَيفورٍ ثِيابَهُ وَذَرَّ عَلى نَفْسِهِ التُّرابَ ، وَفَعَلَتِ ابْنَتُهُ مِثْلَهُ ، وَجَعَلا يَتَكَفَّفانِ النّاسَ ، فانْطَلَتْ حيلَتُهُما عَلى اللُّصوصِ ، وَلَمْ يَعودا مَطْمَعًا لأَحَدٍ .

أَمَّا إِيادٌ فَقَدْ تَسَلَّحَ بِالحَذَرِ ، وَجَعَلَ يَبْحَثُ عَنْ صاحِبِ حانوتٍ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِ القِلادَةَ ، وَيَطْلُبَ إِلَيْهِ أَنْ يَقْرَأَ لَهُ النَّقْشَ المَكْتوبَ عَلَيْها إِنْ كانَ بِلُغَةِ أَهْلِ الجَزيرَةِ . وَفيما هُوَ كَذَلِكَ إِذا بِشِرْذِمَةٍ مِنَ اللُّصوصِ يُحْدِقونَ بِشَيْخٍ وَيُوسِعونَهُ ضَرْبًا ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدوا مَعَهُ ما كانوا يَرْجونَ مِنْ مالٍ . وَكانَ الشَّيْخُ يَتَوَسَّلُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَرْحَموا ضَعْفَهُ ، وَأَخَذَ يَسْتَغيثُ مُسْتَنْجِدًا بِمَنْ يُنْقِذُهُ دونَ أَنْ يَسْتَجيبَ لَهُ أَحَدٌ ؛ فَقَدْ تَمَلَّكَ الخَوْفُ النّاسَ فَقَبَعوا في بُيوتِهِمْ لا يَجْرُءونَ عَلى مُغادَرَتِها إِلّا لِلضَّرورَةِ ؛ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ المَوْتَ يَتَرَصَّدُهُمْ في كُلِّ رُكْنٍ .

وَلَمَحَ الشَّيْخُ إِيادًا فَجَعَلَ يَسْتَجيرُ بِهِ ، وَغَلَتِ الدِّماءُ في عُروقِ إِيادٍ مِنْ هَذا المَشْهَدِ ؛ فَالْتَقَطَ عودًا مُشْتَعِلاً وَ وَثَبَ نَحْوَ اللُّصوصِ في خُطُواتٍ مُتَلاحِقَةٍ ، وَهُوَ يُزَمْجِرُ ، آمِرًا إِيّاهُمْ بِتَرْكِ العَجوزِ وَشَأْنَهُ . وَيَبْدو أَنَّ ظُهورَ إِيادٍ المُفاجِئَ وَحَمْلَتَهُ عَلَيْهِمْ قَدْ أَرْبَكَهُمْ ؛ فَآثَروا السَّلامَةَ وَالفِرارَ ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ حَمَلوا الشَّيْخَ وَأَلْقَوْهُ في اليَمِّ .

وَنظَرَ إِيادٌ إلى البُقْعَةِ الَّتي أَلْقى اللُّصوصُ فيها الشَّيْخَ فَوَجَدَهُ يَتَخَبَّطُ في الماءِ وَيوشِكُ عَلى الغَرَقِ ؛ فَقَفَزَ مِنْ فَوْرِه إِلى الماءِ وَسَبَحَ بِقُوَّةٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ وَأَحاطَهُ بِساعِدٍ ، ثُمَّ سَبَحَ بِساعِدِهِ الآخَرِ عائِداً إِلى البَرِّ ، وَحَمَلَهُ وَأَجْلَسَهُ وَظَلَّ إِلى جِوارِهِ حَتَّى أَفاقَ ، وَجَعَلَ إِيادٌ يُذْهِبُ عَنْهُ الرَّوْعَ حَتَّى اطْمَأَنَّ . وَتَبَيَّنَ لإِيادٍ أَنَّ الشَّيْخَ يَعْرِفُ قَدْراً مِنَ العَرَبِيَّةِ لاشْتِغالِهِ بِالتِّجارَةِ ؛ فَسُرَّ لِذَلِكَ وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُرافِقَهُ حَتَّى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ ، وَلَعَلَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْرَأَ لَهُ النَّقْشَ المَحْفورَ عَلى القِلادَةِ .

وَبَيْنَما هُما في الطَّريقِ إِلى دارِ الشَّيْخِ ، قَصَّ عَلَيْهِ إِيادٌ ما جَرى لَهُ مُنْذُ غادَرَ البَصْرَةَ حَتَّى وَصَلَ إِلى سَرَنْديبَ . وَلَمَّا وَصَلا إِلى الدَّارِ أَشْعَلَ الشَّيْخُ سِراجاً ، وَهَمَّ بِأَنْ يُقَدِّمَ لإِيادٍ ما يُقَدَّمُ لِلضُّيوفِ ، فَبادَرَهُ هَذا مُعْتَذِراً وَهُوَ يَقولُ :

« إِنِّي في عَجَلَةٍ مِنْ أَمْري ، يا عَمَّاهُ ؛ إِذْ توشِكُ سَفينَتي عَلى الإِبْحارِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرى ، وَأَخْشى أَلا أَجِدَ بُدًّا مِنَ الانْصِرافِ قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئاً مِمَّا هُوَ مَنْقوشٌ عَلى هَذِهِ القِلادَةِ ؛ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُسْدِيَ إِلَيَّ مَعْروفاً ؟»

« لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي مَرَّتَيْنِ ؛ فَأَيُّ مَعْروفٍ يُكافِئُ صَنيعَكَ ؟»

« لَوِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَقْرَأَ لي هَذا النَّقْشَ أوْ حَتَّى بَعْضَهُ لَكانَ هَذا أعْظَمَ مَعْروفٍ تُسْديهِ إلَيَّ .»

وَتناوَلَ الشَّيْخُ القِلادَةَ مِنْ يَدِ إيادٍ وَقَرَّبَها مِنْ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ هَتَفَ قائِلاً : « يا لَلْعَجَبِ ! إنَّ عَلَيْها عِبارَةً بِاللُّغَةِ السَّنْهالِيَّةِ الَّتي يَتَكَلَّمُها غالِبِيَّةُ أهْلِ الجَزيرَةِ ، وَمَعْناها : إذا رَأَيْتَ أنْيابَ نُمورٍ سومَطْرَةَ تَلْمَعُ في ظَلامِ اللَّيْلِ فَلا تَظُنَّ أنَّها تَبْتَسِمُ لَكَ . وَإذا رَأَيْتَ رُءوسَ جِبالٍ جاوَةَ تَتَوَهَّجُ في حُلْكَةِ اللَّيْلِ فَلا تَظُنَّ أنَّها تُنيرُ لَكَ الطَّريقَ !»

وَأعادَ الشَّيْخُ القِلادَةَ لإيادٍ قائِلاً : « هَذا هُوَ كُلُّ المَكْتوبِ بِاللُّغَةِ السَّنْهالِيَّةِ ، أمَّا بَقِيَّةُ النَّقْشِ فَمَكْتوبٌ بِأحْرُفٍ أخْرى لا أعْلَمُها .»

وَشَكَرَهُ إيادٌ وَهَمَّ بِالانْصِرافِ فاسْتَوْقَفَهُ الشَّيْخُ قائِلاً : « لا يَنْبَغي أنْ أدَعَكَ تَنْصَرِفُ ؛ فَما وَفَيْتُ لَكَ دَيْني بَعْدُ ، فَخَبِّرْني هَلْ دَبَّرْتُمْ أمْرَ الماءِ وَالمُؤونَةِ لِسَفينَتِكُمْ ؟»

« إنَّ هَذا مِنْ عَمَلِ الرُّبّانِ وَإنْ كُنْتُ لا أدْري كَيْفَ سَيُدَبِّرُ هَذا الأمْرَ ، وَالفَوْضى تَعُمُّ أرْجاءَ المَدينَةِ ؟»

« لَنْ يَكونَ هَذا الأمْرُ يَسيراً حَتَّى عَلى الرُّبّانِ المُحَنَّكِ ؛ فَدَعْ هَذا الأمْرَ لي .»

« ما أريدُ أنْ أشُقّ عَلَيْكَ !»

« لا مَشقَّةَ ألْبَتَّةَ ؛ فَفي بُسْتاني عَيْنُ ماءٍ ، وَخزائِني عامِرَةٌ بِالمُؤَنِ، فَخُذْ ما تَحْتاجونَهُ لِسَفينَتِكُمْ .»

« إنْ نَأخُذْ شَيْئًا فَبِثَمَنِهِ ؛ وَسَنَنْقُدُكَ الثَّمَنَ مَتى وَصَلَتِ المُؤَنُ إلى السَّفينَةِ .»

« كَما تَشاءُ ، وَلَوْ أنَّكُمْ إنْ لَمْ تَأخُذوا حاجَتَكُمْ مِنَ المُؤَنِ نَهَبَها اللُّصوصُ أوْ سَرَقوا المالَ الَّذي سَتُعْطونَني إيَّاهُ ؛ وَلَقَدْ وَدِدْتُ أنْ أكافِئَكَ عَلى صَنيعِكَ !»

وَنادى الشَّيْخُ فِتْيانَهُ وَأمَرَهُمْ بِتَجْهيزِ ما يَلْزَمُ السَّفينَةَ مِنْ مِياهٍ وَمُؤَنٍ وَأعْلافٍ ، وَالتَّوَجُّهِ مَعَ إيادٍ إلى مَرْسى السُّفُنِ وَمَعَهُمْ أسْلِحَتُهُمْ ؛ حَتَّى لا يَتَعَرَّضَ لَهُمُ اللُّصوصُ بِسوءٍ . وَ وَدَّعَ إيادٌ الشَّيْخَ مُتَمَنِّيًا لَهُ العافِيَةَ وَحُسْنَ الجَزاءِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَ الخَدَمِ لِيَفْعَلوا ما أمَرَهُمْ بِهِ سَيِّدُهُمْ ، وَ وَضَعوا المُؤَنَ وَالمِياهَ وَالأعْلافَ في مَرْكَباتٍ تَجُرُّها الثِّيرانُ ، ثُمَّ يَمَّموا شَطْرَ مَرْسى السُّفُنِ .

وَلَمْ يَكُنْ في مَنْظَرِ مُتَسَوِّلَيْنِ يَسْتَنِدانِ إلى جِدارِ الدَّارِ الَّتي خَرَجَ مِنْها إيادٌ ، وَيَتَكَفَّفانِ النَّاسَ ، ما يُثيرُ ريبَةَ أحَدٍ . وَلكِنْ ما إنْ مَرَّتْ لَحَظاتٌ عَلى خُروجِهِ حَتَّى طَرَقَ المُتَسَوِّلانِ بابَ الدَّارِ ، وَلَمَّا فُتِحَ

لَهُما دَلَفا إلى الدَّاخِلِ دونَ استِئْذانٍ . وَلَمْ يَكُنِ المُتَسَوِّلانِ غَيْرَ ابْنِ صَيْفورٍ وَابْنَتِهِ حِمْنَةَ !

كانَ ابْنُ صَيْفورٍ قَدْ سَمِعَ طَرَفًا مِنَ الحَديثِ الَّذي دارَ بَيْنَ الشَّيْخِ وَإيادٍ . وَدونَ مُقَدِّماتٍ قالَ لِلشَّيْخِ الَّذي باغَتَهُ دُخولُهُما المُفاجِئُ وَهَيْئَتُهُما الزَّرِيَّةُ : « لَقَدْ جِئْتُ في أَثَرِ لُصوصٍ سَرَقوا مِنِّي قِلادَةً ، وَرَأَيْتُ أَحَدَهُمْ قاصِدًا دارَكَ ؛ فَلَعَلِّي أَجِدُ عِنْدَكَ خَبَرَها ؟ »

وَلَمْ يُنْكِرِ الشَّيْخُ حُضورَ إيادٍ وَمَعَهُ قِلادَةٌ وَإِنِ اسْتَنْكَرَ أَنْ يَكونَ إيادٌ لِصًّا ؛ لأَنَّ أَفعالَهُ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَفْعالِ اللُّصوصِ . وَعَرَضَ أَنْ يُرْسِلَ في إِثْرِهِ مَنْ يَأْتي بِهِ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ . وَكَمْ كانَتْ دَهْشَتُهُ عِنْدَما لَمْ يُبْدِ ابْنُ صَيْفورٍ رَغْبَةً في ذَلِكَ ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ كُلَّ ما يَعْنيهِ أَنْ يَعْرِفَ ما صارَ مِنْ أَمْرِ القِلادَةِ ، وَما كانَ الغَرَضُ مِنْ عَرْضِها عَلَيْهِ ؛ وَ وَعَدَهُ بِمُكافَأَةٍ سَخِيَّةٍ .

وَساوَرَ الشَّكُّ الشَّيْخَ في أَمْرِ ابْنِ صَيْفورٍ ، الَّذي بَدا وَكَأَنَّهُ غَيْرُ مُهْتَمٍّ بِاسْتِخْلاصِ مالِهِ مِمَّنْ سَرَقَهُ ، فَقالَ لَهُ بِحَزْمٍ : « لَسْتُ في حِلٍّ مِنْ أَنْ أُخْبِرَكَ بِأَمْرِ القِلادَةِ ، أَوِ الغَرَضِ مِنْ عَرْضِها عَلَيَّ ، وَلَوْ أَعْطَيْتَني كُنوزَ الأَرْضِ ؛ فَفي ذَلِكَ خِيانَةٌ لِمَنْ أَنْقَذَ حَياتي مَرَّتَيْنِ ! »

وَبَدا الضّيقُ عَلى وَجْهِ ابْنِ صَيْفورٍ ، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الانْصِرافِ هُوَ وَابْنَتُهُ لَمّا رَأى إِصْرارَ الشَّيْخِ عَلى كِتْمانِ أَمْرِ القِلادَةِ ؛ فَخَرَجَ وَهُوَ يَتَوَعَّدُ بِالانْتِقامِ . وَكَما كانَتِ الأَسْمالُ المُهَلْهَلَةُ الَّتي يَرْتَديها هُوَ وَابْنَتُهُ خَيْرَ دِرْعٍ لَهُما في ذَهابِهِما - كانَتْ كَذَلِكَ في إِيابِهِما . وَبَيْنَما هُما عائِدانِ إِلى مَرْسى السُّفُنِ مَرّا بِجَماعَةٍ مِنَ اللُّصوصِ يُحْدِقونَ بِمَرْكَبَةٍ تَجُرُّها الثِّيرانُ ، وَعَلَيْها بَعْضُ جِرارِ الماءِ وَالزّادِ .

وَخَطَرَتْ لابْنِ صَيْفورٍ فِكْرَةٌ شَجَّعَهُ عَلَيْها ما رَآهُ مِنْ عَدَمِ اكْتِراثِ اللُّصوصِ بِهِ أَوْ بِابْنَتِهِ لِرَثاثَةِ أَسْمالِهِما ؛ فَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ - خُلْسَةً - قِطْعَةَ نُقودٍ ذَهَبِيَّةً ، وَلَوَّحَ بِها لِلُّصوصِ وَهُوَ يُشيرُ إِلى دارِ الشَّيْخِ الَّتي خَرَجَ مِنْها لِلتَّوِّ ؛ وَفَهِمَ اللُّصوصُ أَنَّهُ أَتى بِها مِنْ تِلْكَ الدّارِ ؛ فَانْطَلَقوا جَميعًا صَوْبَ الدّارِ مُمَنّينَ أَنْفُسَهُمْ بِالغَنيمَةِ .

وَ وَجَدَ ابْنُ صَيْفورٍ سائِقَ المَرْكَبَةِ مُصابًا بِطَعْنَةٍ في صَدْرِهِ وَالدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْهُ بِغَزارَةٍ وَهُوَ يَئِنُّ مِنَ الأَلَمِ ؛ فَدَفَعَهُ ابْنُ صَيْفورٍ مِنْ فَوْقِ العَرَبَةِ لِيَسْقُطَ عَلى الأَرْضِ ، وَجَذَبَ ابْنَتَهُ فَأَجْلَسَها إِلى جِوارِهِ عَلى مَقْعَدِ السّائِقِ ، وَأَلْهَبَ ظُهورَ الثِّيرانِ بِالسَّوْطِ ؛ فَانْطَلَقَتْ مُسْرِعَةً .



وَمَرَّتْ لحظاتٌ قالَتْ بَعْدَها حِمْنَةُ : « لَقَدْ كانَ الرَّجُلُ يُشيرُ إلى الماءِ كَما لَوْ كانَ يُريدُ أنْ يَشْرَبَ ، أ فَلَمْ يَكُنْ بِوُسْعِنا أنْ نَسْقِيَهُ أوْ نَفْعَلَ شَيْئًا لِمُساعَدَتِهِ ؟ »

« أ فَقَدْتِ عَقْلَكِ ، يا بُنَيَّتي ؟ لَقَدْ كانَ الرَّجُلُ في النَّزْعِ الأخيرِ ، وَلَمْ تَكُنْ شَرْبَةُ ماءٍ بِالَّتي تَشْفيهِ . وَلَوْ أنّنا تَأخَّرْنا أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لَعادَ إلَيْنا اللُّصوصُ وَفَتَكوا بِنا ؛ وَما كُنَّا اسْتَحْوَذْنا على هَذِهِ المَرْكَبَةِ بِما عَلَيْها الآنَ . وَسَتَعْلَمينَ غَدًا أنَّ ما يَفْعَلُهُ أبوكِ هُوَ عَيْنُ الصَّوابِ وَفيهِ الخَيْرُ لِكِلَيْنا ! »

وَالْتَزَمَتْ حِمْنَةُ الصَّمْتَ إزاءَ حُجَجِ أبيها ، حَتَّى وَصَلَتِ المَرْكَبَةُ إلى مَرْسى السُّفُنِ ، فَنادى ابْنُ صَيْفورٍ الرُّبّانَ لِيُرِيَهُ ما جاءَ بِهِ ، وَأطَلَّ الرُّبّانُ مِنْ قَمْرَتِهِ يَسْتَطْلِعُ الأمْرَ ، فَبادَرَهُ هَذا قائِلاً : « لَقَدْ كادَ جَلْبُ الماءِ لِسَفينَتِنا هَذِهِ يُكَلِّفُنا حَياتَنا ! اُنْظُرْ ما حَدَثَ لِثِيابِنا ؛ لَقَدْ كادَ اللُّصوصُ أنْ يَفْتِكوا بِنا لَوْلا بَقِيَّةٌ مِنْ حُسْنِ التَّدْبيرِ وَالفِطْنَةِ ! »

وَلَمَّا كانَ الرُّبّانُ قَدِ اكْتَسَبَ خِبْرَةً بِطَبائِعِ النُّفوسِ مِنْ طولِ تَعامُلِهِ مَعَ البَحّارَةِ وَتُجّارِ المَوانِئِ في بُلْدانٍ شَتَّى ؛ فَقَدْ أدْرَكَ أنَّ ابْنَ صَيْفورٍ يُضْمِرُ في نَفْسِهِ شَيْئًا ؛ فَصاحَ فيهِ بِلَهْجَةٍ قاطِعَةٍ: « دَعْكَ

مِنْ هَذِهِ المُقَدِّماتِ وَأَخْرِجْ ما في جَعْبَتِكَ !»

كانَ ابْنُ صَيْفورٍ يُدْرِكُ أَنَّهُ لَنْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتَّى يَعودَ إِياذ وَمَعَهُ المَرْكَباتُ الَّتي تَحْمِلُ المُؤونَةَ وَالمِياهَ فَلا يَجِدَ مَجالاً لِلْمُساوَمَةِ ؛ فَصاحَ قائِلاً : « لَيْسَ بِخافٍ عَلى أَحَدٍ أَنَّ الماءَ نَفِدَ مِنْ سَفينَتِنا ، وَما هَذا إِلّا بِسَبَبِ سوءِ تَدْبيرِكَ ؛ فَقَدْ أَطَلْتَ مُكوثَنا بِهَذا المَكانِ المَشْئومِ حَتَّى كِدْنا نَهْلِكُ عَطَشاً !»

« أَفْصِحْ عَنْ مُرادِكَ وَأَوْجِزْ في كَلامِكَ ؛ فَقَدْ كادَ صَبْري يَنْفَدُ !»

« لا خَيْرَ في سَفينَةٍ يَموتُ بَحّارَتُها عَطَشاً ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَشْرَبوا مِنْ هَذا الماءِ فَلَكُمْ ذَلِكَ ؛ عَلى أَنْ تُصْبِحَ السَّفينَةُ مِلْكاً لي .»

تَمَلَّكَ الرُّبّانَ غَضَبٌ هائِلٌ حَتَّى كادَ يَهْبِطُ مِنَ السَّفينَةِ فَيَفْتِكُ بِابْنِ صَيْفورٍ ، لَوْلا أَنْ حالَ كالاواهو بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَاسْتَأْذَنَهُ في مُعالَجَةِ ذَلِكَ الأَمْرِ . وَكانَ بَعْضُ البَحّارَةِ قَدْ تَجَمَّعوا يَرْقُبونَ ما يَحْدُثُ وَقَدْ أَجْهَدَهُمُ العَطَشُ . وَرَأى ابْنُ صَيْفورٍ أَنْ يَطْرُقَ الحَديدَ وَهُوَ ساخِنٌ ؛ فَقالَ بِصَوْتٍ عالٍ تَعَمَّدَ أَنْ يُسْمِعَهُ البَحّارَةَ :

« لَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّ بِوُسْعِ بَحّارَةِ سَفينَتِنا أَنْ يَصْبِروا عَلى العَطَشِ حَتَّى نَصِلَ إِلى أَقْرَبِ مَرْفَأٍ ، وَهُوَ يَبْعُدُ عَنّا أَيّاماً وَلَيالِيَ ؛ إِنَّنا لَنْ نَبْلُغَهُ

إلّا وَقَدْ هَلَكَ هَذا أَوْ ذاكَ عَطَشًا ! »

وَجَعَلَ يُشيرُ بِسَبَّابَتِهِ إلى بَعْضِهِمْ مِمَّا أَدْخَلَ الفَزَعَ في قُلوبِهِمْ. ثُمَّ اسْتَطْرَدَ قائِلاً بِالنَّبْرَةِ العالِيَةِ ذاتِها : « كانَ أَجْدَرَ بِكَ أَنْ تَخْجَلَ مِنْ نَفْسِكَ ؛ إذْ تَرْضى بِأَنْ يَهْلِكَ هَؤُلاءِ الرِّجالُ عَطَشًا لِسوءِ تَدْبيرِكَ ، وَهُمُ الَّذينَ عَرَّضوا أَنْفُسَهُمْ لِلْخَطَرِ مِنْ أَجْلِكَ ، وَما ذَلِكَ إلّا لأنانِيَتِكَ وَجَشَعِكَ وَحِرْصِكَ عَلى تَمَلُّكِ السَّفينَةِ ، غَيْرَ عابِئٍ بِما يُصيبُ هَؤُلاءِ المَساكينَ ، في حينِ أَنَّ الماءَ أَمامَهُمْ مَبْذولٌ !»

وَجَعَلَ يُجيلُ بَصَرَهُ بَيْنَ البَحّارَةِ فَيَجِدُ لِكَلامِهِ صَدًى في نُفوسِهِمْ ؛ فَقَدْ أَخَذوا يُغَمْغِمونَ وَيُبْدونَ تَذَمُّرَهُمْ . وَلَمْ يَخْفَ ذَلِكَ عَلى الرُّبّانِ الَّذي أَصَرَّ عَلى أَنْ يُبارِحَ ابْنُ صَيْفورٍ السَّفينَةَ هُوَ وَابْنَتُهُ في الحالِ .

وَأَظْهَرَ ابْنُ صَيْفورٍ عَدَمَ اكْتِراثِهِ ، وَهَمَّ بِالصُّعودِ إلى السَّفينَةِ وَكَأَنَّهُ يَتَأَهَّبُ لِحَمْلِ مَتاعِهِ وَمُغادَرَةِ السَّفينَةِ . وَرَأى كالاواهو أَنْ يَتَدَخَّلَ ؛ إشْفاقًا عَلى ابْنِ صَيْفورٍ وَحِمْيَةً مِنْ لُصوصِ المَدينَةِ ؛ وَخَشْيَةَ أَنْ يَتَمَرَّدَ المَلّاحونَ عَلى الرُّبّانِ مَتى ظَنّوا أَنَّهُ يَحولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الماءِ ، فانْتَحى بِالرُّبّانِ جانِبًا وَهَمَسَ لَهُ قائِلاً : « لا إخالُكَ تَدَعُ هَذا الشَّيْخَ وَابْنَتَهُ يَتَعَرَّضانِ لِلْهَلاكِ ؛ بِإصْرارِكَ عَلى مُبارَحَتِهِما السَّفينَةَ

وَسْطَ هَذا الهَرْجِ وَالمَرْجِ !»

« أ ما رَأَيْتَ كَيْفَ وَصَلَ بِهِ جَشَعُهُ ؟»

« لَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْخَطَرِ هُوَ وَابْنَتُهُ وَهُما يَجْلُبانِ الماءَ ، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَطْلُبَ الثَّمَنَ الَّذي يُريدُهُ !»

« أَأُعْطيهِ سَفينَتي لِقاءَ جُرْعَةِ ماءٍ ؟»

« أرى أَنْ نُسايِرَهُ ؛ لَعَلَّنا نَظْفَرُ بِالماءِ بِثَمَنٍ مَعْقولٍ ، وَلا نُضْطَرُّ إِلى التَّنازُلِ لَهُ عَنِ السَّفينَةِ .»

« ماذا نَفْعَلُ إِذًا ؟»

« دَعِ الأَمْرَ لي .»

« حَسَنٌ ! وَسَتَرى كَمْ كُنْتَ مَخْدوعًا في أَمْرِ هَذا الرَّجُلِ !»

« لا مَناصَ مِنْ مُعالَجَةِ الأَمْرِ بِحِكْمَةٍ وَتَرَوٍّ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ بَعْضِ البَحّارَةِ ما لا يَسُرُّ .»

« لَقَدْ رَأَيْتُ هَذا وَهُوَ ما أَهَمَّني ، فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ ؛ فَلَنْ أَنْقُضَ ما تُبْرِمُهُ ، وَسَنَرى كَيْفَ تَكونُ العاقِبَةُ !»

وَانْقَلَبَ الرُّبّانُ إِلى قَمْرَتِهِ فَاعْتَزَلَ فيها ، وَشَرَعَ كالاواهو يَهْبِطُ

مِنَ السَّفينَةِ لِيُساوِمَ ابْنَ صَيْفورٍ ، الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدْ أَكْمَلَ صُعودَهُ بَعْدُ ، وَقالَ لَهُ : « لَوْ طَلَبْتَ ثَمَنًا مَعْقولاً لِقاءَ هَذا الماءِ فَلَنْ يَتَرَدَّدَ الرُّبّانُ في إِعْطائِكَ إِيّاهُ .»

« لا أَقَلَّ مِنَ السَّفينَةِ ثَمَنًا لِهَذا الماءِ !»

« لَوْ تَناوَلَ كُلُّ بَحّارٍ جُرْعَةً أَوْ جُرْعَتَيْنِ مِنْ هَذا الماءِ لَما بَقِيَ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ أَ فَعَدْلٌ هَذا ؟»

« أَ تُريدانِ أَنْ يَهْلِكَ البَحّارَةُ عَطَشاً لِتَحْتَفِظا بِالسَّفينَةِ ؟»

« لَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ ، كَما تَعْلَمُ ، وَنُريدُ أَنْ نَصِلَ إِلى ما فيهِ الخَيْرُ لَنا وَلَكَ .»

« لَوْ كانَ الرُّبّانُ يُريدُ الخَيْرَ لي لَما طَلَبَ مِنّا مُبارَحَةَ السَّفينَةِ في هَذِهِ المَدينَةِ المَشْئومَةِ ، الَّتي يَتَرَصَّدُ المَوْتُ أَهْلَها في كُلِّ رُكْنٍ .»

« إِنَّهُ حينَ سَأَلَكَ ذَلِكَ في الصَّباحِ ؛ ما كانَ يَقْصِدُ إِلْقاءَكَ في التَّهْلُكَةِ ؛ فَما كُنّا نَعْلَمُ أَحْوالَ المَدينَةِ بَعْدُ . وَلَكَ عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَهُ يَدَعُكَ حَتّى تَبْلُغَ وُجْهَتَكَ وَتَنْزِلَ فيها مُخْتاراً .»

وَفي تِلْكَ الأَثْناءِ تَناهى إِلى أَسْماعِ ابْنِ صَيْفورٍ صَريرُ المَرْكَباتِ الَّتي تَحْمِلُ الماءَ ، وَعَلِمَ أَنَّ إِيادًا لَنْ يَلْبَثَ أَنْ يَصِلَ فَيُفْسِدَ تَدْبيرَهُ ،

وَيَجِدَ نَفْسَهُ في مَوْقِفٍ لا تُحْمَدُ عُقْباهُ ؛ فَبادَرَ كالاواهو بِصَوْتٍ تَعَمَّدَ أَنْ يُسْمِعَهُ البَحَّارَةَ : « لا أَحْسَبُ أَنَّهُ يَليقُ أَنْ نَتَكَلَّمَ عَمَّنْ هُوَ أَحَقُّ بِمِلْكِيَّةِ السَّفينَةِ في حينٍ تَكادُ حُلوقُ هؤُلاءِ البَحَّارَةِ المَساكينِ تَجِفُّ !»

وَخاطَبَ البَحَّارَةَ قائِلاً : « هَيَّا انْزِلوا ، يا رِجالُ ، وَاحْمِلوا هَذا الماءَ وَارْوُوا عَطَشَكُمْ ، فَلا خَيْرَ في الحَياةِ بَعْدَكُمْ !»

وَلَمْ يُمْهِلِ البَحَّارَةُ ابْنَ صَيْفورٍ حَتَّى يُتِمَّ كَلامَهُ ، أَوْ يَنْتَظِروا أَمْرًا مِنْ كالاواهو ، الَّذي عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسانَهُ مِنْ هَذا التَّغَيُّرِ المُفاجِئِ الَّذي لَمْ يَدْرِ لَهُ سَبَبًا ؛ بَلْ سارَعوا يَحْمِلونَ جِرارَ الماءِ عَلى ظُهورِهِمْ ، وَبَعْضُهُمْ يَغْتَرِفُ مِنْهُ بِكِلْتا يَدَيْهِ ، وَهُمْ لا يُصَدِّقونَ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنَ الهَلاكِ عَطَشًا .

وَنَظَرَ ابْنُ صَيْفورٍ إِلى كالاواهو وَقالَ لَهُ : « إِنَّني ما أَرَدْتُ مُساوَمَةَ الرُّبَّانِ عَلى السَّفينَةِ ، بَلْ أَرَدْتُ أَنْ أُلَقِّنَهُ دَرْسًا ؛ فَيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ يَأْتي حينٌ مِنَ الدَّهْرِ لا تُساوي سَفينَتُهُ فيهِ جُرْعَةَ ماءٍ ، فَلا يُحَقِّرَنَّ شَأْنَ شَيْخٍ مِسْكينٍ مِثْلي !»

« أَحْسَبُهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ . وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُبارِحَ السَّفينَةَ حَتَّى تَبْلُغَ وُجْهَتَكَ الَّتي تُريدُ ، وَتَنْزِلَ فيها مُخْتارًا .»

« وَمَنْ يَضْمَنُ لي ذَلِكَ ؟»

« أنا بِذَلِكَ ضَمينٌ ؛ فَدَعِ الأمْرَ لي .»

وَتَظاهَرَ ابْنُ صَيْفورٍ بِقَبولِ الاتِّفاقِ نُزولاً عَلى رَغْبَةِ كالاواهو وَاطْمِئْنانًا إلى وَعْدِهِ ، وَشَرَعا يَصْعَدانِ إلى السَّفينَةِ . وَنادى ابْنُ صَيْفورٍ ابْنَتَهُ كَيْ تَتْبَعَهُ ، فَفَعَلَتْ . وَبَيْنَما هُمْ كَذَلِكَ وَصَلَتِ المَرْكَباتُ الَّتي تَحْمِلُ المِياهَ وَالمَئونَةَ ، فَأَحْدَثَتْ ضَجيجًا وَصَلَ إلى مَسامِعِ الرُّبّانِ ؛ فَخَرَجَ مِنْ مَقْصورَتِهِ يَسْتَطْلِعُ الأمْرَ . وَلَمّا انْجَلَتِ الصّورَةُ أمامَهُ صاحَ مُخاطِبًا كالاواهو : « لاتَعْقِدْ مَعَ هَذا الرَّجُلِ اتِّفاقًا !»

وَكانَ كالاواهو قَدْ تَوَقَّفَ أيْضًا عَنِ الصُّعودِ وَتَطَلَّعَ خَلْفَهُ لِيَرى جَمْعًا مِنَ المَرْكَباتِ المُحَمَّلَةِ بِالمُؤَنِ وَالمِياهِ يَقودُها إيادٌ ؛ فَالْتَفَتَ ناحِيَةَ الرُّبّانِ وَصاحَ قائِلاً : « لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ العَذَلَ وَقُضِيَ الأمْرُ ، وَأَعْطَيْتُ الرَّجُلَ كَلِمَتي ؛ فَلا تَنْقُضْ ما أبْرَمْتُهُ .» ثُمَّ أسْرَعَ صاعِدًا لِيُطَمْئِنَ الرُّبّانَ بِأنَّ ابْنَ صَيْفورٍ لا يَطْمَعُ في امْتِلاكِ السَّفينَةِ ، وَأنَّ الاتِّفاقَ مَعَهُ مَقْصورٌ عَلى ضَمانِ تَرْكِهِ وَشَأْنَهُ حَتّى يَصِلَ وُجْهَتَهُ دونَ مُضايَقَةٍ أوْ تَهْديدٍ .

وافَقَ الرُّبّانُ ، مُرْغَمًا ، عَلى ما صَنَعَ كالاواهو ، وَانْهَمَكَ

البَحَّارَةُ في حَمْلِ جِرارِ الماءِ وَالمُؤَنِ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، حَتّى فَرَغوا مِنْ ذَلِكَ . وَأَنْقَدَ الرُّبّانُ كَبيرَ الخَدَمِ الثَّمَنَ ، وَشَرَعَتِ المَرْكَباتُ تَعودُ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ .

وَظَلَّتِ السَّفينَةُ راسِيَةً في مَكانِها أَيّاماً ، وَالرُّبّانُ يَسْتَطْلِعُ المَوْقِفَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِها تارَةً ، أَوْ يُرْسِلُ بَعْضَ البَحّارَةِ في قارِبٍ لاسْتِطْلاعِ المَوْقِفِ عَنْ كَثَبٍ تارَةً أُخْرى ؛ فَقَدْ كانَ يَوَدُّ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ أَمْرِ المَجانيقِ حَتّى تَخِفَّ حُمولَةُ السَّفينَةِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا لإضاعَةِ مَزيدٍ مِنَ الوَقْتِ .

وَجَعَلَتِ الدَّلائِلُ تُشيرُ إلى أَنَّ الأَحْوالَ قَدِ ازْدادَتْ تَدَهْوُراً في المَدينَةِ ، فَأَخَذَتْ سُحُبُ الدُّخانِ تَتَكاثَفُ فَوْقَ المَدينَةِ ، وَامْتَدَّتْ أَلْسِنَةُ النّيرانِ إلى المِنْطَقَةِ المُجاوِرَةِ لِلْميناءِ مُباشَرَةً ، وَتَلاشى الأَمَلُ في التَّمَكُّنِ مِنْ إنْزالِ حُمولَةِ السَّفينَةِ مِنَ المَجانيقِ . وَخَشِيَ الرُّبّانُ أَنْ تَتَناقَصَ المُؤَنُ وَالمِياهُ قَبْلَ أَنْ تَلوحَ بَوادِرُ التَّحَسُّنِ . وَأَهَمَّهُ ذَلِكَ كَثيراً ؛ فَأَشارَ عَلَيْهِ كالاواهو بِاسْتِئْنافِ الرِّحْلَةِ ، وَإِرْجاءِ نُزولِ المَجانيقِ إلى ما بَعْدَ العَوْدَةِ مِنْ بَحْرِ الصّينِ ؛ حَتّى لا تَهْلِكَ الخُيولُ المُهْداةُ إلى خاقانِ تِلْكَ البِلادِ .

وَسَرْعانَ ما تَبَيَّنَ لِلرُّبّانِ صَوابُ ذَلِكَ ؛ فَقَدِ ازْدادَ اللُّصوصُ جُرْأَةً

وَجَسارَةً ، وَأَخَذوا يَنْزِلونَ بِقَوارِبِهِمْ إِلى البَحْرِ ، فَيَتَسَلَّقونَ السُّفُنَ الرّاسِيَةَ ، في الظَّلامِ الدّامِسِ ، وَيَنْهَبونَ ما فيها ، مُسْتَغِلّينَ ذُهولَ البَحّارَةِ مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ ، وَيَقْتُلونَ مَنْ يَقِفُ في طَريقِهِمْ ، وَيُعْمِلونَ النَّهْبَ وَالسَّلْبَ في السَّفينَةِ ، وَيُضْرِمونَ فيها النّيرانَ ، ثُمَّ يَقْفِزونَ مِنْها إِلى قَوارِبِهِمْ عائِدينَ مِنْ حَيْثُ جاءوا .

الفَصْلُ الثامن

أقرباءُ في مَلَقَا

أدْرَكَ الرُّبّانُ أنَّ الدَّوْرَ سَيَحينُ عَلى سَفينَتِهِ إنْ هُوَ تَأخَّرَ في الإبْحارِ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَأصْدَرَ أوامِرَهُ بِالاسْتِعْدادِ لِلإقْلاعِ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ ، وَأمَرَ بِرَفْعِ ألْواحِ النُّزولِ . وَفي مُنْتَصَفِ النَّهارِ كانَتِ الأشْرِعَةُ قَدْ بُسِطَتْ ، فَوَجَّهَ الرُّبّانُ مُقَدِّمَةَ السَّفينَةِ صَوْبَ الجَنوبِ الشَّرْقِيِّ في اتِّجاهِ مَضيقِ مَلَقَا . وَأخَذَتْ مَعالِمُ المَدينَةِ تَتَضاءَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَظْهَرُ مِنْها – عَنْ بُعْدٍ – سِوى سَحابَةٍ مِنَ الدُّخانِ الكَثيفِ .

وَظَلَّتِ السَّفينَةُ تَمْخُرُ عُبابَ الماءِ زُهاءَ أسْبوعَيْنِ ، حَتَّى وَصَلَتْ مِياهَ مَضيقِ مَلَقَا صَبيحَةَ يَوْمِ الجُمُعَةِ الأخيرِ مِنْ شَهْرِ شَعْبانَ . وَلَمّا عَلِمَ الرُّبّانُ أنَّ لإيادٍ أقْرِباءَ يَأمُلُ أنْ يَلْقاهُمْ ؛ سَمَحَ لَهُ بِالنُّزولِ مُبَكِّرًا إلى البَرِّ في أحَدِ قارِبَيِ السَّفينَةِ قَبْلَ أنْ تُلْقى مِرْساتُها .

وَحَمَلَ إِيادٌ مَعَهُ ما أَحْضَرَهُ لأَقْرِبائِهِ مِنْ تُحَفٍ وَهَدايا ، وَغادَرَ القارِبَ إِلى البَرِّ ، وَانْطَلَقَ في شَوارِعِ المَدينَةِ وَقَدِ انْتابَهُ إِحْساسٌ بِالأُلْفَةِ مَعَ المَكانِ . وَلاحَظَ أَنَّ المَدينَةَ عامِرَةٌ بِالمَساجِدِ الرَّحْبَةِ ، ذاتِ النُّقوشِ البَديعَةِ وَالقِبابِ المُذَهَّبَةِ . وَكانَتْ وُجوهُ المارَّةِ تَتَّسِمُ بِالسَّماحَةِ ؛ فَتَشَجَّعَ إِيادٌ وَسَأَلَ أَحَدَهُمْ أَنْ يَدُلَّهُ عَلى دِيارِ أَقْرِبائِهِ ، وَفيما كانَ يَصِفُ لَهُ الطَّريقَ إِذْ تَجَمَّعَ حَوْلَهُ أُناسٌ كَثيرونَ يُبْدونَ اسْتِعْدادَهُمْ لاصْطِحابِهِ ؛ فَانْطَلَقَ مَعَ بَعْضِهِمْ .

وَما إِنْ بَلَغَ إِيادٌ دورَ أَقْرِبائِهِ وَشاعَ خَبَرُ وُصولِهِ قادِماً مِنَ البَصْرَةِ ؛ حَتَّى هُرِعَ الجَميعُ إِلى لِقائِهِ وَالتَّرْحيبِ بِهِ ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ إِيادٌ ما حَمَلَ مِنْ هَدايا . وَكانَ بَعْضُهُمْ يُحَدِّثُهُ بِالعَرَبِيَّةِ الَّتي تَعَلَّمَها في مَدارِسِ مَلَقا ؛ لِيَعْرِضَ بَلاغَتَهُ عَلَيْهِ ، في حينَ حَمَلَ بَعْضُهُمْ صِحافَ الطَّعامِ وَأَكْوابَ الشَّرابِ إِلَيْهِ .

وَلَمَّا دَنَتْ ساعَةُ الصَّلاةِ اسْتَأْذَنَ إِيادٌ لِيَتَهَيَّأَ لأَدائِها ، ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَ فِتْيانٍ مِنْ أَقْرِبائِهِ إِلى المَسْجِدِ الجامِعِ . وَكانَ مِنْ عادَةِ المُصَلّينَ أَنْ يَقْرَأَ كُلٌّ مِنْهُمْ جُزْءاً مِنَ القُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الخَطيبُ المَسْجِدَ. وَبَعْدَ الانْتِهاءِ مِنَ الصَّلاةِ أَخَذَتْ جُموعُ المُصَلّينَ في الانْصِرافِ . وَلاحَظَ إِيادٌ أَنَّ أَلْفاظَ التَّحِيَّةِ مُشْتَقَّةٌ مِنْ لَفْظَةِ « السَّلامِ » ؛ فَهُمْ

يُحَيُّونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً بِقَوْلِهِمْ « سَلامات نَهاري » أيْ « طاب يَوْمُكَ أَوْ نَهارُكَ » ، وَيَقولونَ « سَلامات مالم » أيْ « طابَ مَساؤُكَ أَوْ طابَتْ لَيْلَتُكَ » .

وَتَسابَقَ أَقْرِباءُ إِيادٍ إِلى الاحْتِفاءِ بِهِ وَدَعْوَتِهِ بَلْ وَدَعْوَةِ رِفاقِهِ مِنَ البَحَّارَةِ ، وَمِنْ بَيْنِهِمُ الرُّبَّانُ وَكالاواهو ، وَكَذَلِكَ ابْنُ صَيْفورٍ وَحِمْنَةُ ، إِلى وَلائِمَ حافِلَةٍ بِالطَّعامِ . وَفي خِتامِ إِحْدى تِلْكَ الوَلائِمِ قالَ ابْنُ صَيْفورٍ لإِيادٍ : « مَنْ كانَ لَهُ مِثْلُ هَؤُلاءِ الأَقارِبِ لَذو حَظٍّ عَظيمٍ حقًّا ! » وَاعْتَبَرَ إِيادٌ ذَلِكَ إِطْراءً عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْ عَلى أَنْ شَكَرَهُ .

وَأَمْضى جَميعُ البَحَّارَةِ أَوْقاتًا طَيِّبَةً في المَدينَةِ ؛ فَتَجَوَّلوا في الأَسْواقِ وَابْتاعوا ما شاءوا مِنَ البَضائِعِ وَالثِّمارِ . وَقَصَدَ بَعْضُهُمْ جَزيرَةَ سِنْغافورَةَ في النَّاحِيَةِ المُقابِلَةِ لِميناءِ مَلَقَا ، وَهِيَ لا تَبْعُدُ عَنْهُ سِوى مَسافَةٍ قَصيرَةٍ ، وَيَؤُمُّها النَّاسُ بِالقَوارِبِ الصَّغيرَةِ . وَقَدْ زارَها إِيادٌ مَعَ أَقْرِبائِهِ فَوَجَدَها – أَيْضًا – عامِرَةً بِالمَساجِدِ ، وَأَسْواقَها مُماثِلَةً لأَسْواقِ مَلَقا ، بَلْ إِنَّ لِبَعْضِ التُّجَّارِ في مَلَقَا مَتاجِرَ أُخْرى في سِنْغافورَةَ ؛ فَلا عَجَبَ أَنْ كانَتْ مَتاجِرُها تَحْمِلُ أَسْماءَ كَثيرٍ مِنْ أُسَرِ التُّجَّارِ في مَلَقَا ؛ وَمُعْظَمُها أَسْماءٌ عَرَبِيَّةُ الأَصْلِ .

وَانْصَرَمَ شَهْرُ شَعْبانَ ، وَبَدَأ إيادٌ صِيامَهُ – لأَوَّلِ مَرَّةٍ – بَعيداً عَنِ البَصْرَةِ . وَقَدْ لاحَظَ مُراعاةَ النَّاسِ لأَحْكامِ الصِّيامِ وَآدابِهِ ، كَما لاحَظَ ابْتِهاجَ الجَميعِ بِحُلولِ هَذا الشَّهْرِ وَاحْتِفاءَهُمْ بِهِ . وَمَضَتْ أَيّامٌ هَيِّنَةٌ لَيِّنَةٌ عَلى البَحّارَةِ حَتَّى خَشِيَ الرُّبّانُ أَنْ تَطيبَ تِلْكَ الحَياةُ الوادِعَةُ لِبَعْضِهِمْ ؛ فَيُؤْثِرَ البَقاءَ وَيَهْجُرَ العَمَلَ في البَحْرِ . وَكَمْ تَمَنَّى لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ ابْنُ صَيْفورٍ وَابْنَتُهُ حِمْنَةُ مِنْ دونِهِمْ .

وَكاشَفَ الرُّبّانُ كالاواهو بِمَخاوِفِهِ ؛ فَأَشارَ عَلَيْهِ بِسُرْعَةِ تَجْهيزِ السَّفينَةِ لِلرَّحيلِ . وَكانَ ذَلِكَ ثَقيلاً عَلى نَفْسِ إيادٍ الَّذي وَجَدَ نَفْسَهُ يُفارِقُ أَهْلَهُ مَرَّةً أُخْرى ، فَوَدَّعَهُمْ مَصْحوباً بِدَعَواتِهِمْ . وَقَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ لِيَلْحَقَ بِسَفينَتِهِ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَقْرِبائِهِ مِنَ التُّجّارِ أَنَّ ابْنَ صَيْفورٍ ابْتاعَ مِنْهُمْ بِضاعَةً دونَ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ حَقَّهُمْ ، واعِداً بِدَفْعِ الثَّمَنِ قَبْلَ رَحيلِ السَّفينَةِ ؛ فَأَعْطاهُمْ إيادٌ ثَمَنَ بِضاعَتِهِمْ مِنْ مالِهِ الخاصِّ ، وَانْطَلَقَ إلى السَّفينَةِ يُريدُ ابْنَ صَيْفورٍ . وَلَمّا وَجَدَهُ صاحَ بِهِ غاضِباً : « كَيْفَ تُسَوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَبْتاعَ بِضاعَةً وَلا تَدْفَعَ ثَمَنَها ؟»

« كُنْتُ سَأَدْفَعُ الثَّمَنَ قَبْلَ رَحيلِ السَّفينَةِ ، فَما كُنْتُ أَدْري أَنّا سَنُبْحِرُ اليَوْمَ ؟»

« وَها قَدْ عَلِمْتَ فَماذا أَنْتَ بِفاعِلٍ ؟»

« لَقَدْ غَشَّني أَقْرِباؤُكَ فَأَعْطَوْني بِضاعَةً رَديئَةً ، وَكانَ حَرِيًّا بِهِمْ أَنْ يُعْطوني بِضاعَةً أَفْضَلَ مِنْها !»

« وَأَيْنَ تِلْكَ البِضاعَةُ ؟»

« ما كُنْتُ لأَحْتَفِظَ بِبِضاعَةٍ رَديئَةٍ ؛ فَأَلْقَيْتُها في البَحْرِ !»

وَلَمْ يَجِدْ إِيادٌ في مُحاوَرَةِ ابْنِ صَيْفورٍ ما يَأْتي بِخَيْرٍ ، وَرَأى أَنَّ مِنَ الحِكْمَةِ عَدَمَ إِضاعَةِ الوَقْتِ في الجِدالِ مَعَهُ ؛ فَأَسْرَعَ يَنْضَمُّ إِلى بَقِيَّةِ البَحّارَةِ لِيُؤَدِّيَ ما كُلِّفَ بِهِ ، وَهُوَ يَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِ هَذا الرَّجُلِ الَّذي ما فَتِئَ يُقابِلُ الإِحْسانَ بِالإِساءَةِ .

الفصل التاسع

مَعْرَكَةٌ مَعَ القراصِنَةِ

شَرَعَ البَحّارَةُ يَبْسُطونَ القُلوعَ المَطْوِيَّةَ ، وَ وَجَّهَ الرُّبّانُ مُقَدَّمَ السَّفينَةِ صَوْبَ الشَّمالِ بِحِذاءِ السّاحِلِ الشَّرْقِيِّ لِشِبْهِ جَزيرَةِ مَلَقا وَدَفَعَتِ الرِّياحُ السَّفينَةَ لِتَبْتَعِدَ عَنِ الميناءِ رُوَيْداً رُوَيْداً . وَتَرَكَ ذَلِكَ في نَفْسِ إيادٍ حَنيناً كادَ يُضاهي حَنينَهُ إلى الأَهْلِ وَالأَصْحابِ في البَصْرَةِ . وَما لَبِثَ أَنْ خَجِلَ مِنْ نَفْسِهِ لِتَرْكِهِ تِلْكَ المَشاعِرَ تَطْغى عَلى الواجِباتِ المُكَلَّفِ بِها ؛ فَانْهَمَكَ في عَمَلِهِ بِهِمَّةٍ وَنَشاطٍ نافِضاً عَنْ نَفْسِهِ الإِحْساسَ بِالضّيقِ .

وَكانَ مِنْ واجِباتِ إيادٍ أَنْ يَتَسَلَّقَ في أَوْقاتٍ مَعْلومَةٍ صارِيَ السَّفينَةِ الأَوْسَطَ ، الَّذي يَعْلوهُ مِرْقَبٌ يَكْشِفُ الرّاصِدُ مِنْهُ مَجالاً رَحْباً مِنْ مِياهِ البَحْرِ ؛ فَيَرى مِنْهُ ما لا يَراهُ وَهُوَ فَوْقَ سَطْحِ السَّفينَةِ وَيَتَطَلَّبُ هَذا العَمَلُ خِفَّةً وَجَسارَةً وَحُسْنَ تَقْديرٍ لِلأُمورِ . وَعَلى مَنْ يُسْنَدُ إِلَيْهِ هَذا العَمَلُ إِبْلاغُ الرُّبّانِ ، بِصَوْتِهِ أَوْ بِإِشاراتٍ مُتَّفَقٍ

عَلَيْها ، بِما يَراهُ مِنَ المَعالِمِ المِلاحِيَّةِ ، أَوْ إِنْذارُهُ عِنْدَ الخَطَرِ .

وَقَدْ أَوْصى الرُّبّانُ بِزِيادَةِ اليَقَظَةِ في هَذِهِ المَرْحَلَةِ ؛ لِما راجَ مِنْ شائِعاتٍ عَنْ نَشاطِ القَراصِنَةِ الَّذينَ دَأَبوا في تِلْكَ الآوِنَةِ عَلى قَطْعِ طُرُقِ المِلاحَةِ المَأْهولَةِ ، بَعْدَ أَنْ كانَ نَشاطُهُمْ مَحْصوراً في الجُزُرِ النّائِيَةِ . وَقَدْ فَضَّلَ الرُّبّانُ هَذِهِ الطَّريقَ – رَغْمَ تِلْكَ الشّائِعاتِ – لِقِصَرِها عَنِ الطَّريقِ الأُخْرى ، الَّتي تَمُرُّ جَنوبًا بِمُحاذاةِ السّاحِلِ الشَّمالِيِّ لِجَزيرَتَيْ سومَطْرَةَ وَجاوَةَ ، ثُمَّ تَلْتَفُّ حَوْلَ السّاحِلِ الجَنوبِيِّ لِجَزيرَةِ بورْنيو حَتّى طَرَفِها الشَّمالِيِّ ، وَتَسْتَمِرُّ في التَّحَوُّلِ شَمالاً حَتّى بَحْرِ الصّينِ . وَلَمْ تَعُدْ هَذِهِ الطَّريقُ تُغْري القَراصِنَةَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتِ الطَّريقُ الأُخْرى تَزْخَرُ بِالسُّفُنِ المُحَمَّلَةِ بِالكُنوزِ في ذَهابِها وَإِيابِها ، مِمّا جَعَلَها صَيْداً ثَميناً .

وَازْدادَتْ نَوْباتُ صُعودِ إِيادٍ إِلى مَرْقَبِ السَّفينَةِ تَحَسُّبًا لِلْخَطَرِ ، وَخاصَّةً عِنْدَما اسْتَدارَتِ السَّفينَةُ شَرْقًا لِتَلْتَفَّ حَوْلَ ساحِلِ الصّينِ الجَنوبِيِّ . وَفي إِحْدى نَوْباتِهِ لَمَحَ بَوادِرَ لَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْها فَصاحَ مِنْ مَرْقَبِهِ مُنْذِراً : « الخَطَرَ ! الخَطَرَ !»

وَتَرَكَ الرُّبّانُ الدَّفَّةَ لِكالاواهو ، وَاقْتَرَبَ مِنْ أَسْفَلِ صاري السَّفينَةِ الأَوْسَطِ ، وَصاحَ مُسْتَفْسِراً : « ما الخَطْبُ ، يا إِيادُ ؟»

« أَرى مِنْ بَعيدٍ سَفينَةً تَحْتَرِقُ !»

وَكانَتِ الحَرائِقُ عَلى مُتونِ السُّفُنِ أمْرًا مَألوفًا ، وَخاصَّةً أثْناءَ طَهْيِ الطَّعامِ ، فَصاحَ الرُّبّانُ مَرَّةً أخْرى : « صِفْ لي ما تَراهُ وَلا تُغْفِلْ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً ! »

« أرى قَوارِبَ إلى جانِبِ السَّفينَةِ تَحْمِلُ أسِنَّةً في رُءوسِها نارٌ ! »

وَكانَ هَذا كافِيًا لِجَعْلِ الرُّبّانِ يَتَسَلَّقُ الصّارِيَ إلى أعْلاهُ لِيَتَحَقَّقَ مِنَ الأمْرِ . وَتَطَلَّعَ إلى الأفُقِ حَيْثُ أشارَ إيادٌ ؛ فَأيْقَنَ أنَّ تِلْكَ الأسِنَّةَ لِرِماحٍ وَسِهامٍ مُشْتَعِلَةٍ ، يُطْلِقُها القَراصِنَةُ عَلى السُّفُنِ فَيَدِبُّ الذُّعْرُ بَيْنَ البَحّارَةِ وَيَقْفِزونَ مِنَ السَّفينَةِ طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَعِنْدَئِذٍ يَتَسَلَّقُها القَراصِنَةُ فَيُعْمِلونَ سُيوفَهُمْ فيمَنْ بَقِيَ مِنَ البَحّارَةِ وَيَنْهَبونَ السَّفينَةَ ، ثُمَّ يَعودونَ في قَوارِبِهِمْ إلى سَفينَةٍ أخْرى تَنْتَظِرُهُمْ في عُرْضِ البَحْرِ .

وَما إنْ تَبَيَّنَ لِلرُّبّانِ خُطورَةُ الأمْرِ ؛ حَتّى صاحَ في البَحّارَةِ لِيَقوموا بِطَيِّ بَعْضِ أشْرِعَةِ السَّفينَةِ لِتَهْدِئَةِ سُرْعَتِها ، وَطَلَبَ مِنْ كالاواهو أنْ يُحَوِّلَ الدَّفَّةَ لِتَدورَ السَّفينَةُ دَوْرَةً كامِلَةً وَتَعْكِسَ مَسارَها ؛ فَتَعودَ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ .

وَلَمْ يُضَيِّعِ البَحّارَةُ لَحْظَةً واحِدَةً في تَنْفيذِ أوامِرِ الرُّبّانِ ، ثُمَّ وَقَفوا مُتَأهِّبينَ لِتَنْفيذِ أمْرِهِ بِإعادَةِ بَسْطِ الأشْرِعَةِ ، بَعْدَ أنْ يَتِمَّ تَحْويلُ مَسارِ السَّفينَةِ ؛ لِتَعودَ إلى الانْطِلاقِ بِأقْصى سُرْعَتِها ، وَتُصْبِحَ في مَأمَنٍ .

مِنَ الخطَرِ . لَكِنَّ الوَقْتَ الَّذي اسْتَغْرَقَتْهُ هَذِهِ المُناوَرَةُ كانَ كافِيًا لِكَيْ تَقْتَرِبَ قَوارِبُ القَراصِنَةِ الخَفيفَةُ مِنَ السَّفينَةِ ، وَأَصْبَحَ النِّزالُ مَحْتومًا ؛ فَصاحَ الرُّبّانُ في البَحّارَةِ آمِرًا إِيّاهُمْ بِامْتِشاقِ سُيوفِهِمُ القَصيرَةِ ، فَهِيَ وَحْدَها الَّتي تَصْلُحُ لِلتَّلاحُمِ عَنْ قُرْبٍ .

وَهَبَطَ الرُّبّانُ وَإِيادٌ مِنْ فَوْقِ الصّاري تَأَهُّبًا لِمُلاقاةِ القَراصِنَةِ ، وَفَعَلَ إِيادٌ مِثْلَ بَقِيَّةِ البَحّارَةِ ؛ فَاسْتَلَّ حُسامَهُ وَإِنْ حَدَّثَهُ عَقْلُهُ بِأَنَّ البَحّارَةَ لَنْ يَكونوا أَنْدادًا لِلْقَراصِنَةِ غِلاظِ القُلوبِ المُدَرَّبينَ عَلى القِتالِ ، الَّذينَ بَثّوا الرُّعْبَ في نُفوسِ بَحّارَةِ السُّفُنِ ، لِما اشْتَهِروا بِهِ مِنْ سَفْكِ الدِّماءِ . فَما إِنْ يُطْلِقوا السِّهامَ وَالرِّماحَ المُشْتَعِلَةَ صَوْبَ السَّفينَةِ – حَسَبَ أُسْلوبِهِمُ المَعْهودِ – حَتّى تُمْسِكَ النّيرانُ بِالسَّفينَةِ وَيَدِبَّ الخَوْفُ في نُفوسِ البَحّارَةِ ؛ فَيَقْذِفوا بِأَنْفُسِهِمْ في اليَمِّ قَبْلَ أَنْ تَلْتَهِمَهُمُ النّيرانُ أَوْ تَحْصُدَهُمْ سُيوفُ القَراصِنَةِ .

وَاقْتَرَبَ إِيادٌ مِنَ الرُّبّانِ قائِلاً : « لَنْ يَلْبَثَ القَراصِنَةُ أَنْ يَتَسَوَّروا عَلَيْنا السَّفينَةَ فَيَبُثّوا الرُّعْبَ في قُلوبِ البَحّارَةِ ؛ فَيَسْتَسْلِموا لَهُمْ أَوْ يُلْقوا بِأَنْفُسِهِمْ في لُجَجِ البَحْرِ فَيَكونوا كَالمُسْتَجيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بِالنّارِ . »

« وَماذا تَرانا فاعِلينَ ؟ »

« أَرى أَنْ نَسْتَخْدِمَ المَجانيقَ الَّتي عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ لَعَلَّنا نُفْلِحُ

في إصابَةِ بَعْضِ قَوارِبِ القَراصِنَةِ ؛ فَيَكُفُّوا عنّا أوْ يُصيبَهُمْ بَعْضُ ما يُصيبُ رِجالَنا مِنْ ذُعْرٍ فَيُقاتِلونا وَهُمْ أقَلُّ عَدَداً وَأوْهَنُ قَلْباً .»

« لكِنَّ عَهْدي بِالمَجانيقِ أنَّها مِنْ سِلاحِ البَرِّ ، وَلَمْ أسْمَعْ أنَّها اسْتُعْمِلَتْ مِنْ فَوْقِ السُّفُنِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَيْنِ بَحّارَةِ هَذِهِ السَّفينَةِ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِاسْتِعْمالِها .»

« إنْ شِئْتَ تَرَكْتَ لي مُعالَجَةَ هَذا الأمْرِ .»

وَراقَتِ الفِكْرَةُ الرُّبّانَ فَنادى بَعْضَ البَحّارَةِ وَأمَرَهُمْ بِمُعاوَنَةِ إيادٍ وَالائْتِمارِ بِأمْرِهِ . وَشَرَعَ البَحّارَةُ يَنْصِبونَ المَجانيقَ كَما أمَرَهُمْ إيادٌ ، وَجَلَبَ آخَرونَ النِّفْطَ وَالبارودَ وَالنّارَ وَ وَضَعوها في قُدورٍ ، وَ وَضَعوا في القُدورِ خِرَقاً ، وَ وَضَعوها في كِفافِ المَجانيقِ .

وَالمَنْجَنيقُ رافِعَةٌ مِحْوَرُها في الوَسَطِ ، وَتَنْتَهي إحْدى ذِراعَيِ الرّافِعَةِ بِكِفَّةٍ تُشَدُّ إلى الأرْضِ بِحَبْلٍ ، أمّا الذِّراعُ الأخْرى فَيُشَدُّ إلَيْها ثِقْلٌ ، فَإذا قُطِعَ الحَبْلُ الّذي يَشُدُّ الكِفَّةَ إلى الأرْضِ هَوى الثِّقْلُ مِنَ النّاحِيَةِ الأخْرى ؛ لِتَرْتَفِعَ الكِفَّةُ بِقُوَّةٍ وَتَقْذِفَ ما فيها بَعيداً .

وَعِنْدَما أصْبَحَتِ القَوارِبُ في مَرْمى المَجانيقِ ، أمَرَ إيادٌ البَحّارَةَ فَأضْرَموا النّارَ في الخِرَقِ المُتَدَلِّيَةِ مِنْ فُوَّهاتِ القُدورِ ، ثُمَّ أمَرَ بِقَطْعِ الحِبالِ الّتي تَشُدُّ الكِفافَ فَارْتَفَعَتْ قاذِفَةً القُدورَ بِقُوَّةٍ عَلى قَوارِبِ

القَراصِنَةِ ؛ فَأصابَتْ بَعْضَها مُحْدِثَةً دَوِيًّا هائِلاً وَأشْعَلَتِ النّارَ فيها .

كانَ ذَلِكَ شَيْئًا لَمْ يَشْهَدِ القَراصِنَةُ لَهُ مَثيلاً مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ ألْقى بِنَفْسِهِ في اليَمِّ طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَمِنْهُمْ مَن اسْتَدارَ بِقارِبِهِ مُبْتَعِداً عَنِ الخَطَرِ ، مُكْتَفِياً مِنَ الغَنيمَةِ بِالإيابِ . أمّا القَوارِبُ الّتي أصْبَحَتْ قابَ قَوْسَيْنِ مِنَ السَّفينَةِ أوْ أدْنى ، فَقَدْ آثَرَ مَنْ فيها مُواصَلَةَ الطِّرادِ ؛ طَمَعاً في الغَنيمَةِ ، أوْ رَغْبَةً في الانْتِقامِ وَالثَّأرِ ، أوْ حِرْصاً عَلى الهَيْبَةِ .

وَفي تِلْكَ الأثْناءِ كانَ كالاواهو يَتَفَقَّدُ أنْحاءَ السَّفينَةِ لِيُوَجِّهَ البَحّارَةَ لِمُلاقاةِ القَراصِنَةِ عِنْدَ صُعودِهِمْ ، وَاقْتَرَبَ مِنْ إيادٍ الّذي طَمْأنَهُ عَلى سَيْرِ الأمورِ ، وَسَألَهُ إنْ كانَ ابْنُ صَيْفورٍ وَابْنَتُهُ عَلى عِلْمٍ بِما يَجْري حَتّى يَأخُذا حِذْرَهُما ؛ فَانْطَلَقَ كالاواهو بِنَفْسِهِ لِيُطْلِعَهُما عَلى جَلِيَّةِ الأمْرِ ، وَيُزَوِّدَهُما بِالسِّلاحِ الّذي يَذودانِ بِهِ عَنْ نَفْسَيْهِما مَتى جَدَّ الجِدُّ .

وَ وَجَدَ كالاواهو الأبَ وَابْنَتَهُ في مَقْصورَتِهِما جالِسَيْنِ عَلى صَناديقِ أمْتِعَتِهِما ، وَكانَ الذُّعْرُ بادِياً عَلَيْهِما . وَناوَلَ كالاواهو سَيْفَهُ لابْنِ صَيْفورٍ قائِلاً : « إلَيْكَ هَذا السَّيْفَ لِتُدافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنِ ابْنَتِكَ إذا ما أدْرَكَنا القَراصِنَةُ . »

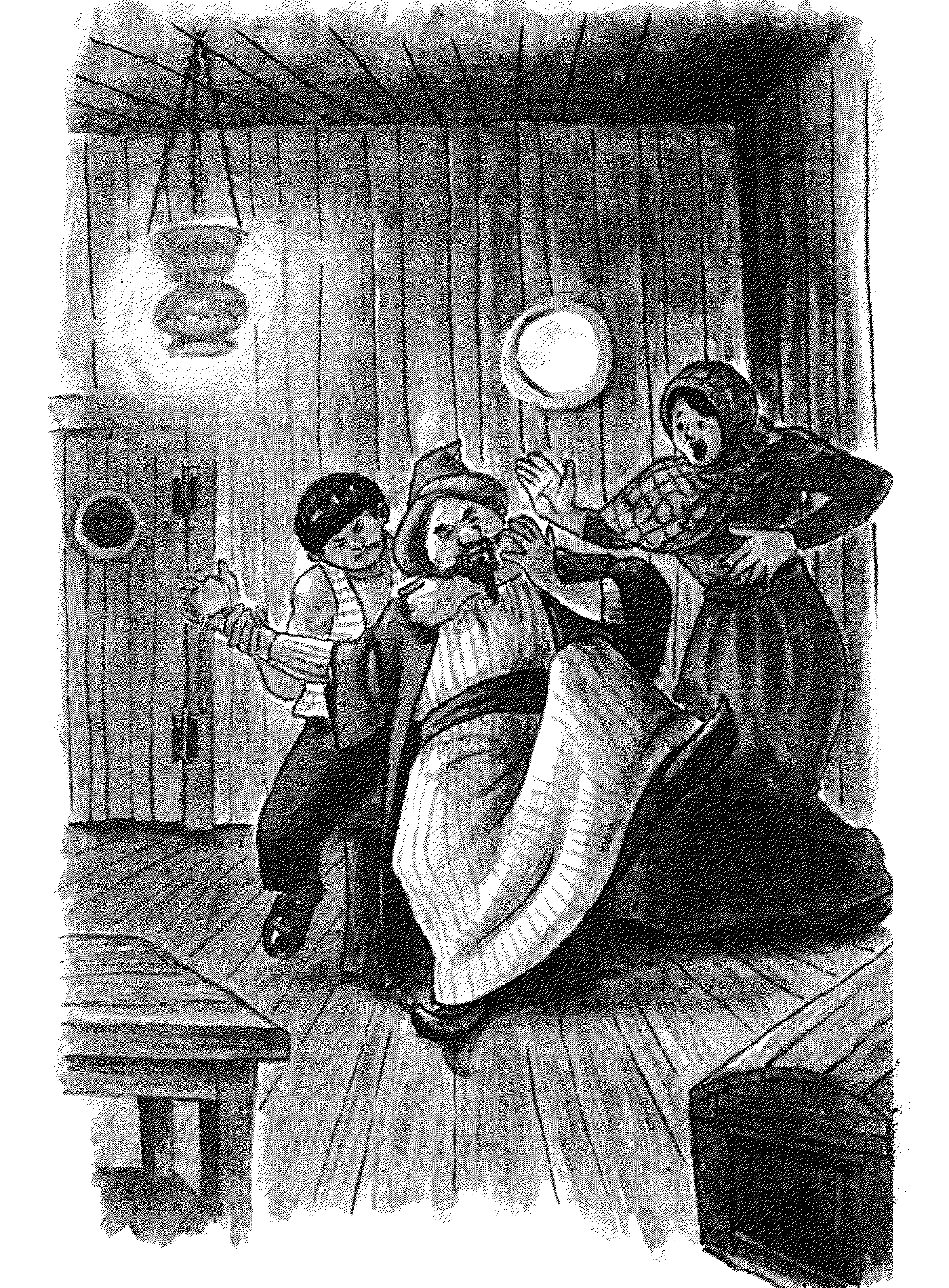
وَلَمْ يُبْدِ ابْنُ صَيْفورٍ حَراكاً ، وَكانَ مُتَشَبِّثاً بِشَيْءٍ في يَدِهِ ؛ فَلَمْ

يَمُدُّ يَدَهُ لِيَتَناوَلَ السَّيْفَ مِنْ كالاواهو . وَأَغْضَبَ هَذا كالاواهو الَّذي كانَ يُدْرِكُ أَنَّ لِكُلِّ لَحْظَةٍ قيمَةً لا تُعَوَّضُ في مُواجَهَةِ هَذا الخَطَرِ الدَّاهِمِ ؛ فَانْدَفَعَ نَحْوَ ابْنِ صَيْفورٍ قائِلاً : « ماذا دَهاكَ ، يا رَجُلُ ؟ وَما الَّذي بِيَدِكَ ؟ كَأَنِّي بِكَ لا تَدْري ما يُحْدِقُ بِنا مِنْ خَطَرٍ ! هَيَّا أَلْقِ ما بِيَدِكَ وَاحْمِلْ هَذا السَّيْفَ ؛ فَما لِشَيْءٍ بَعْدَ الحَياةِ قيمَةٌ !»

وَكَأَنَّما أَثارَتْ لا مُبالاةُ ابْنِ صَيْفورٍ فُضولَ كالاواهو بِقَدْرِ ما أَثارَتْ غَضَبَهُ ، فَأَخَذَ يُعالِجُ قَبْضَةَ ابْنِ صَيْفورٍ حَتَّى فَتَحَها عَنْوَةً ؛ فَلَمْ يَمْلِكْ بَعْدَ أَنْ رَأى ما فيها إِلّا أَنْ يَصيحَ فيهِ قائِلاً : « أَ لَيْسَتْ هَذِهِ قِلادَةَ إِيادٍ ؟ أَجَلْ إِنَّها هِيَ لَوْلا أَنَّها أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ لَمَعانًا وَبَريقًا ! أَ سَرَقْتَ القِلادَةَ ، يا رَجُلُ ؟ تَكَلَّمْ !»

وَلَكِنَّ ابْنَ صَيْفورٍ لَمْ يَفْتَحْ فَمَهُ بِكَلِمَةٍ وَإِنْ نَمَّتْ نَظَراتُ عَيْنَيْهِ عَنْ مَقْتٍ هائِلٍ ، فَتابَعَ كالاواهو كَلامَهُ قائِلاً : « سَنَتَحَقَّقُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ القِلادَةِ فيما بَعْدُ . أَمَّا الآنَ فَخُذْ هَذا السَّيْفَ ، فَهُوَ أَهَمُّ لَكَ وَلابْنَتِكَ مِنَ القِلادَةِ !» وَاسْتَدارَ كالاواهو لِيَصْعَدَ الدَّرَجَ المُؤَدِّيَ إِلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، تارِكًا سَيْفَهُ لابْنِ صَيْفورٍ .

وَفي تِلْكَ الأَثْناءِ تَمَكَّنَ أَحَدُ القَوارِبِ مِنَ اللَّحاقِ بِالسَّفينَةِ . وَما إِنْ حاذى جانِبَها الأَيْمَنَ حَتَّى طَوَّحَ قُرْصانٌ بِخُطَّافٍ مُثَبَّتْ



بِهِ سُلَّم مِنَ الحِبالِ ، فَتسلَّقَهُ القَراصِنَةُ في خِفَّةِ الفُهودِ ، وَقَدْ حَمَلَ كُلُّ مِنْهُمْ سَيْفاً في يَدِهِ وَ وَضَعَ خِنْجَراً بيْنَ أَسْنانِه . وَحاذى قارِبٌ آخَرُ جانِبَ السَّفينَةِ الأيْسَرَ ، وَفَعَلَ مَنْ فيهِ مِثْلَ ذَلِكَ . وَأَخَذَتْ قَوارِبُ أخْرى تَصِلُ تِباعًا ، وَأَلْقى مَنْ فيها بِخَطاطيفَ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ وَشَرَعوا يَتَسلَّقونَها .

وَارْتَبَكَ بَحّارَةُ السَّفينَةِ في أَوَّلِ الأَمْرِ وَتَشَتَّتَتْ جُهودُهُمْ بَيْنَ هَذا الجانِبِ وَذاكَ . وَاحْتَدَمَتِ المَعْرَكَةُ بِعُنْفٍ ، وَلَكِنْ ما لَبِثَتْ كِفَّةُ البَحّارَةِ أَنْ رَجَحَتْ ؛ فَقَدْ تَماسَكوا وَسَيْطَروا عَلى المَوْقِفِ لِقِلَّةِ عَدَدِ القَراصِنَةِ ، الَّذينَ راعَهُمْ ما حَدَثَ لِقَوارِبِهِمْ وَانْقِطاعُ المَدَدِ عَنْهُمْ ، فَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُلْقي بِنَفْسِهِ إلى الماءِ طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، وَاسْتَسْلَمَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لِلْبَحّارَةِ .

وَنَظَرَ إيادٌ حَوْلَهُ فَلَمْ يَرَ كالاواهو ، وَكانَ يُريدُ أَنْ يَسْأَلَهُ عَمّا يَنْبَغي عَمَلُهُ في أَمْرِ الأَسْرى ، فَطَلَبَ مِنَ البَحّارَةِ شَدَّ وِثاقِهِمْ وَتَشْديدَ الحِراسَةِ عَلَيْهِمْ حَتّى يَبُتَّ الرُّبّانُ في أَمْرِهِمْ ، وَأَرْسَلَ مَنْ يُخْبِرُ الرُّبّانَ بِذَلِكَ . وَخِلالَ ذَلِكَ جاءَهُ بَحّارٌ لِيُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ وَجَدَ كالاواهو أَعْلى الدَّرَجِ المُؤَدّي إلى المَقاصيرِ السُّفْلِيَّةِ مُصابًا بِطَعْنَةٍ قاتِلَةٍ ؛ فَأَسْرَعَ إيادٌ إلى ذَلِكَ المَكانِ وَ وَجَدَ كالاواهو مُلْقًى عَلى الأَرْضِ ، فَجَلَسَ إلى جانِبِهِ وَأَسْنَدَ رَأْسَهُ إلى صَدْرِهِ بِرِفْقٍ ، وَطَلَبَ بَعْضَ الماءِ لِيَسْقِيَهُ ، كَما طَلَبَ إِبْلاغَ الرُّبّانِ بِإِصابَةِ مُساعِدِهِ .



وَأتى بَحّارٌ بِبَعْضِ الماءِ لِيَسْقِيَ كالاواهو ، وَلٰكِنَّهُ كانَ قَدْ فارَقَ الحَياةَ ، وَهُوَ بَيْنَ ذِراعَيْ إيادٍ ، دونَ أنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ أنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ عَمَّنْ فَعَلَ هٰذا بِهِ .

وَتَرَكَ الرُّبّانُ الدَّفَّةَ إلى أحَدِ البَحّارَةِ ، وَهُرِعَ إلى المَكانِ الَّذي أُصيبَ فيهِ كالاواهو . وَكانَ الرُّبّانُ مُصابًا هُوَ أيْضًا بِجُرْحٍ بَليغٍ في عَضُدِهِ ، وَ وَجَدَ مُساعِدَهُ مُمَدَّدًا عَلى الأرْضِ وَإلى جِوارِهِ إيادٌ وَبَعْضُ البَحّارَةِ ، وَكانَ ابْنُ صَيْفورٍ واقِفًا بَيْنَهُمْ .

انْحَنى الرُّبّانُ عَلى كالاواهو وَقَدْ غَلَبَهُ التَّأثُّرُ . وَلَمّا رَأى السَّيْفَ الَّذي طُعِنَ بِهِ كالاواهو ؛ أبْدى دَهْشَتَهُ مِنْ أنْ يَكونَ قَدْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ بِسَيْفِهِ ، وَعِنْدَئِذٍ قالَ ابْنُ صَيْفورٍ : « فَلْيُسْألْ في ذٰلِكَ إيادٌ ؛ فَهُوَ أوَّلُ مَنْ شوهِدَ إلى جانِبِ كالاواهو ! »

وَعَقَّبَ بَحّارٌ مِنْ بَيْنِ الواقِفينَ قائِلاً : « بَلْ كُنْتُ أنا أوَّلَ مَنْ شاهَدَهُ مَطْعونًا وَالدِّماءُ تَنْزِفُ مِنْهُ ، وَنَقَلْتُ ذٰلِكَ إلى إيادٍ وَالرُّبّانِ ! »

وَسَألَ الرُّبّانُ البَحّارَةَ إنْ كانَ أحَدُهُمْ قَدْ شَهِدَ مَصْرَعَ كالاواهو ، أوْ سَمِعَهُ يَذْكُرُ شَيْئًا عَمّا جَرى لَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ جَوابًا شافِيًا ، فَنَهَضَ قائِلاً :

« لَقَدْ ماتَ كالاواهو وَمَعَهُ سِرُّ مَصْرَعِهِ ، وَكانَ أوْصاني إنْ ماتَ أنْ يُدْفَنَ عَلى عادَةِ أهْلِ وايكيكي ، الَّذينَ يَحْمِلونَ مَوْتاهُمْ في

قَوارِبَ وَعَلَيْهِمْ أكاليلُ الأَزْهارِ فَيطْرحونَهُمْ في البَحْرِ . فَافْعَلوا حَسَبَ وَصِيَّةِ صاحِبِكُمْ . وَاعْلَموا أَنَّكُمْ مَدينونَ بِحَياتِكُمْ لإِيادٍ ؛ فَلَوْلا يَقَظَتُهُ وَحُسْنُ تَدْبيرِهِ لَحَصَدَتْكُمْ سُيوفُ هَؤُلاءِ القَراصِنَةِ الأَوْغـادِ !»

وَتَفَقَّدَ الرُّبّانُ السَّفينَةَ فَوَجَدَ بَعْضاً مِنْ خيرَةِ مَلّاحي السَّفينَةِ قَدْ أُصيبَ بِجِراحٍ ؛ فَكَلَّفَ مِنْ زُمَلائِهِمْ مَنْ يَعْتَني بِهِمْ ، وَطَلَبَ مِنَ الآخَرينَ مُضاعَفَةَ العَمَلِ مِنْ أَجْلِ الخُروجِ مِنْ مِنْطَقَةِ الخَطَرِ ، وَالعَوْدَةِ إِلى مَلَقا بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ ؛ لإِنْزالِ الجَرْحى إِلى البَرِّ لِيَنالوا العِنايَةَ اللّازِمَةَ . وَعَزَمَ الرُّبّانُ عَلى تَسْليمِ القَراصِنَةِ الأَسْرى إِلى سُلْطانِ مَلَقا لِمُعاقَبَتِهِمْ ؛ حَتّى يَكونوا عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَلا يَعودوا يُرَوِّعونَ السُّفُنَ الآمِنَةَ ، وَيُهَدِّدونَ طُرُقَ المِلاحَةِ وَمَصالِحَ المُدُنِ وَالمَمالِكِ .

الفصل العاشر

جَبَلُ النَّارِ

وَعادَتِ السَّفينَةُ إلى مَرْفَأ مَلَقا حَيْثُ أَنْزِلَ الجَرْحى مِنَ البَحّارَةِ إلى البَرِّ وَاسْتَأْجَرَ الرُّبّانُ غَيْرَهُمْ ، وَسَلَّمَ القَراصِنَةَ الأَسْرى إلى سُلْطانِ البِلادِ لِيَقْضِيَ فيهِمْ أَمْرَهُ ؛ فَهُمْ قَدْ شَنّوا غارَتَهُمْ في مِياهِ بِلادِهِ . وَكانَ ساعِدُ الرُّبّانِ يُؤْلِمُهُ مِنْ جَرّاءِ جُرْحِهِ الَّذي يَحْتاجُ إلى العِنايَةِ . وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ تَكْليفِ إيادٍ بِالعَمَلِ عَلى تَرْميمِ وَإِصْلاحِ ما تَلِفَ مِنَ السَّفينَةِ مِنْ أَثَرِ المَعْرَكَةِ ، وَاسْتِكْمالِ ما تَحْتاجُهُ مِنْ مَئُونَةٍ وَمِياهٍ وَأَعْلافٍ ، بَعْدَ أَنْ قَرَّ رَأْيُهُ عَلى اتِّخاذِ الطَّريقِ الأَطْوَلِ المُحاذي لِسومَطْرَةَ وَجاوَةَ وَبورْنيو . وَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ الرُّبّانُ إلى ما صَنَعَهُ إيادٌ أَمَرَ البَحّارَةَ بِالتَّأَهُّبِ لِلرَّحيلِ ، وَ وَدَّعَ إيادٌ أَقْرِباءَهُ مَرَّةً أُخْرى . وَما لَبِثَ البَحّارَةُ أَنْ رَفَعوا مِرْساةَ السَّفينَةِ وَبَسَطوا أَشْرِعَتَها لِتُبْحِرَ في اتِّجاهِ سومَطْرَةَ .

لَمْ يُفارِقِ الأَلَمُ رُبَّانَ السَّفينَةِ مِنَ الجُرْحِ الَّذي أَصابَ ذِراعَهُ ، وَلَمْ يَجِدِ الوَقْتَ الكافِيَ لِلْعِنايَةِ بِجُرْحِهِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْنِ البَحَّارَةِ مَنْ يَخْلُفُ كالاواهو في كَفاءَتِهِ وَحُسْنِ تَدْبيرِهِ ، لِيَتَّخِذَهُ مُساعِداً لَهُ ، وَلا سِيَّما بَعْدَ إِصابَةِ أَفْضَلِهِمْ بَلاءً في المَعْرَكَةِ مَعَ القَراصِنَةِ . وَكانَ الرُّبَّانُ قَدْ أَصْبَحَ يَثِقُ بِإِيادٍ وَيَرى أَنَّهُ أَهْلٌ لِقِيادَةِ السَّفينَةِ ؛ لِما رَآهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ مِنْ رَجاحَةِ عَقْلِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلى التَّصَرُّفِ في مُواجَهَةِ المَخاطِرِ . وَخَشِيَ الرُّبَّانُ أَنْ يُكَلِّفَ إِياداً بِتَوَلِّي أُمورِ السَّفينَةِ ؛ فَيَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ المَلّاحونَ نَظَراً لِحَداثَةِ سِنِّهِ .

وَلَمْ يَجِدِ الرُّبَّانُ بُدّاً – في نِهايَةِ المَطافِ – مِنْ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ تُلِمُّ بِهِ أَحْياناً نَوْباتٌ مِنَ الحُمَّى فَيَغيبُ عَنِ الوَعْيِ ؛ فَجَعَلَ – كُلَّما وَجَدَ في نَفْسِهِ نَشاطاً – يُلَقِّنُ إِياداً ما يَحْفَظُهُ مِنْ أَسْرارِ البَحْرِ وَأَساليبِ المِلاحَةِ ، وَتَحْديدِ مَواقِعِ النُّجومِ وَالجُزُرِ ، وَالاسْتِفادَةِ مِنِ اتِّجاهِ الرِّيحِ ، وَتَفْسيرِ تَكْويناتِ السُّحُبِ وَاتِّجاهِها ، وَحَرَكَةِ الأَمْواجِ وَأَثَرِ ذَلِكَ عَلى رِحْلَةِ السَّفينَةِ وَسَلامَتِها .

وَكانَ الرُّبَّانُ يَحْتَفِظُ بِكُتُبٍ في عُلومِ الفَلَكِ وَالجُغْرافيا ، وَالعَديدِ مِنَ الخَرائِطِ المِلاحِيَّةِ ، فَضْلاً عَنْ أَجْهِزَةِ المِلاحَةِ مِمَّا كَتَبَهُ أَوِ اخْتَرَعَهُ العُلَماءُ العَرَبُ . وَ وَجَدَ إِيادٌ في ذَلِكَ ما يُعينُهُ عَلى أَداءِ

ما كُلِّفَ بِهِ عَلى خَيْرِ وَجْهٍ ؛ فَاطْمَأَنَّ الرُّبَّانُ إلى حُسْنِ اخْتِيارِهِ . وَلَمْ يَكُنْ يُشاطِرُهُ ذَلِكَ الرَّأيَ بَعْضُ البَحَّارَةِ ، الَّذينَ لَمْ يَرَوْا في إيادٍ إلّا فَتًى غِرًّا ، لَمْ تَعْرُكْهُ الأيَّامُ كَما يَنْبَغي ، وَ واتاهُ الحَظُّ فَجْأَةً فَنالَ ما لَمْ يَسْتَحِقَّ دونَهُمْ ؛ وَهَذا ما فَتِئَ ابْنُ صَيْفورٍ يُرَدِّدُهُ أمامَهُمْ .

وَمَضى عَلى السَّفينَةِ في مَسارِها الجَديدِ قُرابَةُ أسْبوعٍ ، وَهِيَ تَحْتَ قِيادَةِ إيادٍ ، الَّذي حَرَصَ عَلى أنْ يَجْعَلَ مَسارَها أبْعَدَ ما يَكونُ عَنِ السَّاحِلِ الشَّماليِّ لِجَزيرَةِ جاوَةَ ، وَأقْرَبَ ما يَكونُ مِنَ السَّاحِلِ الجَنوبِيِّ لِجَزيرَةِ بورْنيو – وَهِيَ إلى الشَّمالِ مِنْ جاوَةَ . وَكانَ في ذَلِكَ كَمَنْ يُطيعُ هاتِفًا خَفِيًّا لا يَدْري كُنْهَهُ ، وَرُبَّما كانَ سَبَبُهُ النَّقْشَ المَحْفورَ عَلى القِلادَةِ . وَلَمْ يَدَعْ إيادٌ سِلْسِلَةَ جِبالِ جاوَةَ تَغيبُ عَنْ ناظِرَيْهِ ما وَسِعَهُ إلى ذَلِكَ سَبيلٌ ؛ لَعَلَّهُ يَلْمَحُ أيَّةَ بادِرَةٍ غَريبَةٍ تُفَسِّرُ التَّحْذيرَ الوارِدَ في النَّقْشِ .

وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ سِوى مَسيرَةِ لَيْلَتَيْنِ عَلى خُروجِ السَّفينَةِ مِنْ هَذِهِ المِنْطَقَةِ دونَ أنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ ؛ بَدَأتْ مَخاوِفُ إيادٍ تَقِلُّ ، وَتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ ، فَقَدْ كَفاهُ ما لَقِيَهُ مِنْ مُفاجَآتٍ . وَكانَ الرُّبَّانُ كُلَّما أفاقَ مِنْ نَوْباتِ إغْمائِهِ سَألَهُ عَنْ مَوْقِعِ السَّفينَةِ ، حَتَّى إذا عَلِمَهُ سَرى إلى نَفْسِهِ شُعورٌ بِالاطْمِئْنانِ وَالرَّاحَةِ ، وَانْصَرَفَ بالُهُ إلى ما بَقِيَ أمامَهُ مِنْ واجِباتٍ ؛ فَعَلَيْهِ إنْزالُ الجِيادِ في شَنْغهاي ، وَإرْسالُ ما

ادَّخَرَهُ كالاواهو مِنْ مالٍ إلى أهْلِهِ وَذَويهِ في وايكيكي ، ثُمَّ العَوْدَةُ بالمَجانيق إلى سَرَنْديبَ ، لَعَلَّ الأحْوالَ تكونُ قَدْ تغَيَّرتْ فَيَفْرَغ مِنْ أمْرِها كَذلِكَ . وَقَدِ انْشَغَلَ الرُّبَّانُ بِذَلِكَ في مَنامِهِ وَيَقَظَتِهِ ، حَتَّى أصْبَحَ إيادَ جَديراً بِما يَشْغَلُهُ ؛ فَجَعَلَ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ الأمْرَ ، وَجَمَعَ إلى ذَلِكَ العِنايَةَ بِجِراحِهِ - بِقَدْرِ عِلْمِهِ - لَعَلَّهُ يَبْرَأ فَيَنْهَضَ بِمَسْئوليَّةِ السَّفينَةِ.

وَبَدا لِلْجَميعِ أنَّ السَّفينَةَ سَتَصِلُ إلى غايَتِها دونَ مَتاعِبَ ؛ فَقَدْ أخَذَتْ تَقْتَرِبُ مِنْ جَزيرَةِ مِنداناو - وَهِيَ مِنْ مَجْموعَةِ الجُزُرِ الواقِعَةِ جَنوبَ شَرْقِيِّ بَحْرِ الصِّينِ . وَانْتَعَشَتْ آمالُ البَحّارَةِ ، وَمَنَّى كُلٌّ مِنْهُمْ نَفْسَهُ بِقَضاءِ فَتْرَةِ راحَةٍ طَويلَةٍ مَعَ الأهْلِ ، بَعيداً عَنِ البَحْرِ وَأهْوالِهِ ، أوْ فَكَّرَ فيما سَيَصْنَعُهُ بِمالِهِ بَعْدَ أنْ يَتَقاضى أجْرَهُ .

وَكانوا ، كُلَّما سَنَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةٌ ، يَتَجَمَّعونَ فَيَتَسامَرونَ في نورِ القَمَرِ ، وَيَتَبادَلونَ الحَديثَ عَنِ الآمالِ وَالأهْلِ وَحَياةِ البَرِّ . وَكانَ ابْنُ صَيْفورٍ يَقِفُ مَعَهُمْ أحْياناً ، وَأحْياناً كانَ يَخْتَلي بِنَفْسِهِ أوْ يَعْتَكِفُ مَعَ ابْنَتِهِ في مَقْصورَتِهِما . وَكانَ يُمَنِّي نَفْسَهُ بِأنْ يَجِدَ في أحَدِ مَوانِئِ الصِّينِ سَفينَةً تَحْمِلُهُ إلى وايكيكي ؛ حَيْثُ يَعْثُرُ عَلى الصُّنْدوقِ الَّذي أخْفاهُ السِّنْدِبادُ . وَتَمَلَّكَهُ اعْتِقادٌ قَوِيٌّ بِأنَّ السِّنْدِبادَ أخْفى في ذَلِكَ الصُّنْدوقِ كَنْزاً ادَّخَرَهُ لابْنِهِ إيادٍ حَتَّى

يَشِبُّ وَيَسْتَخْرِجُهُ ، وَأَنَّ النَّقْشَ المَحْفورَ عَلى القِلادَةِ يَطْوي سِرًّا يَسْتَطيعُ مَنْ يَكْشِفُهُ أَنْ يَصِلَ إِلى الصُّنْدوقِ .

وَعَزَمَ ابْنُ صَيْفورٍ عَلى الوُصولِ إِلى ذَلِكَ الصُّنْدوقِ قَبْلَ إِيادٍ ، مَهْما كَلَّفَهُ ذَلِكَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ عَلى ما يُحِبُّ ، فَلَعَلَّهُ يَصِلُ إِلى أَحَدِ البُلْدانِ الَّتي وُصِفَتْ في كُتُبِ الرِّحْلاتِ بِأَنَّ الذَّهَبَ حَصْباؤُها وَالياقوتَ أَحْجارُها ؛ فَيُصْبِحَ مِنْ أَغْنى النَّاسِ ، مِثْلَ كَثيرٍ مِنَ التُّجَّارِ المُغامِرينَ مِمَّنْ سَمِعَ عَنْهُمْ . أَمَّا إِيادٌ فَكانَ لا يَتَشَوَّقُ سِوى لِمَعْرِفَةِ ما جَرى لأَبيهِ ، وَكانَ يُمَنّي النَّفْسَ بِأَنْ يَسْمَعَ في وايكيكي ما يُدْنيهِ مِنْ غايَتِهِ .

وَجَنَّ اللَّيْلُ عَلى سَماءٍ صافِيَةٍ تَتَلأْلأُ نُجومُها ، وَنَسَماتٍ رَقيقَةٍ تُلَطِّفُ الجَوَّ في هَذِهِ المِنْطَقَةِ الاسْتِوائِيَّةِ الحارَّةِ . وَكانَ البَحْرُ ساكِنًا فَلا يُسْمَعُ سِوى صَوْتِ الماءِ الَّذي تَشُقُّهُ السَّفينَةُ بِمُقَدِّمَتِها . وَما كادَ يَمُرُّ الهَزيعُ الأَوَّلُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى أَخَذَتِ الجِيادُ تَصْهَلُ بِصورَةٍ غَيْرِ مَعْهودَةٍ ، وَاسْتَمَرَّتْ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، مِمَّا اسْتَرْعى انْتِباهَ إِيادٍ الَّذي لَمْ يَكُنْ تَخْفى عَلَيْهِ طِباعُها ؛ فَتَرَكَ الدَّفَّةَ لأَحَدِ المَلاَّحينَ ، وَهَبَطَ إِلى مَرْبِطِها لِيَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ ، فَوَجَدَها تَرْفَعُ قَوائِمَها وَتَضْرِبُها في الأَرْضِ ، وَكَأَنَّها تُريدُ الفِكاكَ مِنْ عِقالِها .

وَفَحَصَ إِيادٌ المَكانَ ، لَعَلَّ ما أَزْعَجَها قارِضٌ مِنَ القَوارِضِ ، أَوْ زاحِفٌ مِنَ الزَّواحِفِ تَسَلَّلَ إِلى السُّفُنِ مَعَ البَضائِعِ ، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا . وَكانَ الرُّبّانُ في حالَةِ اليَقَظَةِ وَسَمِعَ ذَلِكَ الهَرْجَ وَالمَرْجَ ؛ فَلَحِقَ بِإِيادٍ لِيَتَبَيَّنَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ . وَسَأَلَ الرُّبّانُ إِيادًا في اسْتِغْرابٍ عَمّا جَعَلَ الجِيادَ هائِجَةً عَلى هَذا النَّحْوِ ، فَعَرَّفَهُ بِأَنَّها تَسْتَشْعِرُ الخَطَرَ بِحَواسِّها قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ الإِنْسانُ . وَأَشارَ عَلى الرُّبّانِ بِضَرورَةِ التَّأَهُّبِ لِلْخَطَرِ ، وَإِيقاظِ رُكّابِ السَّفينَةِ جَميعًا لِيَأْخُذوا أُهْبَتَهُمْ .

وَتَطَلَّعَ الرُّبّانُ إِلى البَحْرِ فَرَآهُ ساكِنًا ، وَنَظَرَ إِلى السَّماءِ فَرَآها صافِيَةً ، مِمّا لا يُنْبِئُ بِقُرْبِ هُبوبِ عاصِفَةٍ ، وَكادَ يَتَرَدَّدُ في مُوافَقَةِ إِيادٍ عَلى ما أَشارَ بِهِ لَوْلا إِلْحاحُهُ وَتَأْكيدُهُ لَهُ بِأَنَّهُ لَنْ يَنْدَمَ عَلى ذَلِكَ ، فَوافَقَهُ عَلى مَضَضٍ . وَنَهَضَ البَحّارَةُ مُتَمَلْمِلينَ مُتَضَجِّرينَ ، يَتَساءَلونَ عَنْ سِرِّ إِيقاظِهِمْ بِلا ضَرورَةٍ ، وَبَدَأَ بَعْضُهُمْ يُغَمْغِمُ مُتَذَمِّرًا لَمّا رَأى سُكونَ البَحْرِ وَصَفاءَ السَّماءِ .

وَصاحَ ابْنُ صَيْفورٍ مُتَبَرِّمًا : « أَ رَأَيْتُمْ صِدْقَ ما قُلْتُهُ لَكُمْ مِنْ أَنَّ الرُّبّانَ قَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ حَتّى يُوَلِّيَ هَذا الصَّبِيَّ الغِرَّ أَمْرَ السَّفينَةِ ، وَفيها مِنْ بَيْنِكُمْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ؛ خِبْرَةً وَحُنْكَةً وَسِنًّا ؟»

وَانْقَلَبَتِ الغَمْغَمَةُ لَغَطًا ، وَتَجَرَّأَ بَعْضُ البَحّارَةِ عَلى الرُّبّانِ ،

فَجَعَلوا يَلومونَهُ عَلى ما صَنَعَ ، وَأَحْدَقوا بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ يَطْلُبونَ مِنْهُ أَنْ يُوَلّيَ عَلَيْهِمْ واحِداً مِنْهُمْ يَرْضَوْنَهُ .

وَبَيْنَما هُمْ في لَجَّتِهِمْ ، ارْتَجَّتِ السَّفينَةُ فَجْأَةً بِعُنْفٍ ، فَرانَ الصَّمْتُ عَلى الجَميعِ ، وَكَأَنَّ عَلى رُءوسِهِمُ الطَّيْرَ . وَأَخَذَتِ السَّفينَةُ تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ ، وَظَنَّ الرُّبّانُ أَنَّ البَحّارَ الَّذي كَلَّفَهُ إِيادٌ بِالإِمْساكِ بِالدَّفَّةِ قَدْ أَصابَهُ مَكْروهٌ أَوِ انْفَلَتَتْ مِنْهُ الدَّفَّةُ . وَلَمْ يَكُنِ الرُّبّانُ يَسْتَطيعُ الوُصولَ إِلَيْها بِسُرْعَةٍ ؛ فَقَدْ أَنْهَكَتِ الحُمّى قُواهُ ، فَطَلَبَ مِنْ إِيادٍ التَّوَجُّهَ إِلى مَكانِها لِتَحَرّي الأَمْرِ . وَبَيْنَما كانَ إِيادٌ يَهُمُّ بِأَنْ يَفْعَلَ ما طَلَبَهُ الرُّبّانُ إِذا بِدَوِيٍّ هائِلٍ يُصِمُّ الآذانَ ، وَصاحَ بَحّارٌ مِنَ الجانِبِ الأَيْمَنِ لِلسَّفينَةِ : « انْظُروا هُناكَ ! »

وَاتَّجَهَتِ الأَنْظارُ إِلى حَيْثُ كانَ يُشيرُ ؛ فَإِذا بِلَهيبٍ يَخْرُجُ مِنْ رَأْسِ أَحَدِ الجِبالِ . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الجَبَلُ سِوى بُرْكانِ كراكاتوا في إِنْدونيسْيا ، وَقَدْ ثارَ فَجْأَةً . وَانْطَلَقَ اللَّهيبُ في السَّماءِ حُمَماً مُتَفَجِّرَةً عَلى شَكْلِ قَوْسٍ هائِلٍ مِنَ النّيرانِ ، فَأَحالَ ظَلامَ اللَّيْلِ الحالِكَ نَهاراً ، وَتَساقَطَتِ الحُمَمُ في مِياهِ البَحْرِ . وَكانَتْ بَعْضُ السُّفُنِ قَدْ دَخَلَتْ مَجالَ تِلْكَ الحُمَمِ ، فَسَقَطَتْ عَلَيْها وَأَحْرَقَتْها بِمَنْ فيها . وَهُرِعَ إِيادٌ إِلى مَكانِ الدَّفَّةِ لِيُحَوِّلَ اتِّجاهَ السَّفينَةِ فَيَجْعَلَ مَسارَها مُوازِياً لِمَسارِ قَوْسِ الحُمَمِ ، بَدَلاً مِنْ أَنْ يَتَقاطَعَ مَعَهُ ؛



لِكَيْ يُفْلِتَ بِها مِنْ مِصْيَدَةِ النِّيرانِ .

وَانْقَلَبَتْ مِياهُ البَحْرِ السَّاكِنَةُ إلى أمْواجٍ مُتَلاطِمَةٍ ، أخَذَتْ تَضْرِبُ جَوانِبَ السَّفينَةِ بِعُنْفٍ . وَنَشِطَتِ الرِّياحُ فَجْأَةً فَصارَتْ أعاصيرَ تَتَلاعَبُ بِالسَّفينَةِ . وَاسْتَطاعَ إيادٌ بَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ أنْ يُحَوِّلَ اتِّجاهَ السَّفينَةِ ؛ فَلَمْ تَعُدْ تَنْدَفِعُ صَوْبَ تِلْكَ المِظَلَّةِ الجَهَنَّمِيَّةِ .

وَتَمَزَّقَتْ بَعْضُ أشْرِعَةِ السَّفينَةِ مِنْ شِدَّةِ الرِّياحِ ، فَأمَرَ إيادٌ البَحَّارَةَ بِطَيِّ الأشْرِعَةِ لِتَقْليلِ تَأثيرِ الرِّياحِ عَلى السَّفينَةِ ، فَلا يَخْتَلُّ تَوازُنُها مِنْ شِدَّةِ تَمايُلِها ، وَتَنْقَلِبُ عَلى أحَدِ جانِبَيْها . وَفَعَلَ البَحَّارَةُ ما أمَرَهُمْ بِهِ إيادٌ . وَما كادوا يُفْلِتونَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الأتونِ الهابِطِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ ؛ حَتَّى وَجَدوا هَوْلاً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ يَأتيهِمْ مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَانْخَلَعَتْ قُلوبُ أشَدِّهِمْ بَأساً وَأثْبَتِهِمْ جَناناً .

لَقَدْ تَحَطَّمَتِ الدَّفَّةُ مِنْ شِدَّةِ المَوْجِ ، وَأصْبَحَتِ السَّفينَةُ تَحْتَ رَحْمَةِ الرِّياحِ وَالأمْواجِ الَّتي جَعَلَتْ تَدْفَعُها بِقُوَّةٍ هائِلَةٍ حَتَّى لَكَأنَّ مِغْناطيساً هائِلاً يَجْذِبُها نَحْوَهُ . وَطَفِقَتِ السَّفينَةُ تَجْري في مَوْجٍ كالجِبالِ ثُمَّ تَهْبِطُ وَكَأنَّها تَنْحَدِرُ في وادٍ سَحيقٍ . وَتَعالَتِ الصَّرَخاتُ ، وَانْتابَ الجَميعَ شُعورٌ بِالعَجْزِ السَّاحِقِ لِهَوْلِ ما يَرَوْنَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُحاوِلُ التَّشَبُّثَ بِأيِّ شَيْءٍ يَقيهِ خَطَرَ السُّقوطِ في اليَمِّ ؛

فَمِنْهُمْ مَنْ يُمْسِكُ بأحَدِ الصَّواري ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْسِكُ بإحْدى الحَلَقاتِ الحَديدِيَّةِ الَّتي تُرْبَطُ فيها الحِبالُ ، وَأَيْقَنَ الجَميعُ الهَلاكَ . وَبِقَدْرِ ما كانَ ابْنُ صيفُورٍ يَخْشى الهَلاكَ هُوَ وَابْنَتُهُ مِثْلُ مَنْ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ جَميعِهِمْ ، فَقَدْ زادَهُ حَسْرَةً خَشْيَتُهُ مِنْ أَنْ يَبْتَلِعَ البَحْرُ ما حَمَلَهُ مَعَهُ .

وَلَحِقَ الرُّبَّانُ بِإيادٍ عِنْدَ الدَّفَّةِ ، وَعَلِمَ بِتَحَطُّمِها بِفِعْلِ الأمْواجِ الشَّديدَةِ ، وَرَأى ، كَما رأى إيادٌ ، أَنَّهُ لا مَناصَ مِنْ مُغادَرَةِ السَّفينَةِ في قارِبَي النَّجاةِ ، بَعْدَ أنِ اسْتَحالَتِ السَّيْطَرَةُ عَلَيْها ، وَأَصْبَحَتْ مُعَرَّضَةً لِلاصْطِدامِ بِبَعْضِ الصُّخورِ ، وَهُوَ ما حَدَثَ ؛ فَقَدْ دَفَعَتْ مَوْجَةٌ عاتِيَةٌ السَّفينَةَ بِقُوَّةٍ فارْتَطَمَ جانِبُها الأيْسَرُ بِصَخْرَةٍ وَانْشَقَّ ، فَأَخَذَتِ المِياهُ تَنْدَفِعُ مِنْهُ إلى السَّفينَةِ ، مِمَّا جَعَلَها تَميلُ عَلى جانِبِها وَتُشْرِفُ عَلى الغَرَقِ .

وَطَلَبَ إيادٌ مِنَ البَحَّارَةِ إنْزالَ قارِبَي النَّجاةِ سَريعاً وَالتَّهَيُّؤَ لِمُبارَحَةِ السَّفينَةِ . وَأَنْزَلَ البَحَّارَةُ القارِبَ الأيْسَرَ وَكانَ أَقْرَبَ إلى الماءِ بِسَبَبِ مَيْلِ السَّفينَةِ ، أَمَّا القارِبُ الأيْمَنُ فَكانَ الوُصولُ إلَيْهِ عَسيراً بِسَبَبِ مَيْلِ السَّفينَةِ وَانْزِلاقِ أَرْضِها .

وَبَعْدَ مُحاوَلاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ تَكاتَفَ فيها جَميعُ البَحَّارَةِ – أَمْكَنَهُمْ

الوُصولُ إلى القارِبِ الأيْمَنِ وَإنْزالُهُ . وَطَلَبَ إيادٌ إنْزالَ ابْنِ صَيْفورٍ وَابْنَتِهِ ثُمَّ المَرْضى وَالمُصابينَ . وَأرادَ الرُّبّانُ أنْ يَبْقى مَعَ إيادٍ حَتّى يَنْزِلَ الجَميعُ في القَوارِبِ ؛ فَأمَرَ إيادٌ البَحّارَةَ بِحَمْلِهِ قَسْرًا وَإنْزالِهِ في القارِبِ . وَما إنْ شَرَعَ البَحّارَةُ يُنَفِّذونَ ما أمَرَهُمْ بِهِ حَتّى رَأَوْا القارِبَ الأيْسَرَ يَبْتَعِدُ بِابْنِ صَيْفورٍ وَابْنَتِهِ ، وَمَعَهُما ما اسْتَطاعا حَمْلَهُ مِنْ أمْتِعَتِهِما .

وَلَمْ يَكُنْ بِاسْتِطاعَةِ قارِبٍ واحِدٍ أنْ يَحْمِلَ بَحّارَةَ السَّفينَةِ جَميعَهُمْ ؛ فَصاحَ إيادٌ فيهِمْ بِأنْ يَدَعَ القَوِيُّ مَكانَهُ لِلضَّعيفِ ، وَأنْ يَدَعَ مَنْ يُجيدُ العَوْمَ مَكانَهُ لِمَنْ لا يُجيدُهُ ، وَيَتَعَلَّقَ بِألْواحِ السَّفينَةِ الَّتي تَطْفو في الماءِ . وَجَعَلَ البَحّارَةُ يُلْقونَ بِأنْفُسِهِمْ في الماءِ قَبْلَ أنْ تَغْرَقَ السَّفينَةُ وَتَبْتَلِعَهُمْ أمْواجُ البَحْرِ .

وَلَمّا اطْمَأنَّ إيادٌ إلى أنَّ البَحّارَةَ يُنَفِّذونَ ما أمَرَهُمْ بِهِ ؛ أسْرَعَ إلى مَرْبِطِ الجِيادِ ، وَالرُّبّانُ يُناديهِ لِكَيْ يَلْحَقَ بِالقارِبِ ، وَأطْلَقَ إيادٌ الجِيادَ مِنْ عِقالِها وَجَعَلَ يَهْمِزُها لِتَقْفِزَ في الماءِ فَلا تَأخُذَها السَّفينَةُ مَعَها إلى أعْماقِ المُحيطِ . وَتَرَدَّدَتِ الجِيادُ وَجَفَلَتْ ، وَلَكِنَّ تَمايُلَ السَّفينَةِ أفْقَدَها تَوازُنَها فَهَوَتْ إلى الماءِ جَوادًا في إثْرِ الآخَرِ . وَتَطَلَّعَ إيادٌ فَلَمْ يَرَ أيًّا مِنَ القارِبَيْنِ ، فَأمْسَكَ بِعارِضَةٍ مِنْ خَشَبِ السَّفينَةِ وَقَفَزَ إلى الماءِ ، وَجَعَلَ يَسْبَحُ بِقُوَّةٍ لِيَبْتَعِدَ عَنِ السَّفينَةِ ؛ حَتّى لا

تبْتَلِعَهُ الدُّوّامَةُ الَّتي تَصْنَعُها حينَ يَطْويها اليَمُّ في جَوْفِهِ .

كانَ الظَّلامُ الحالِكُ يَغْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى إنَّ المَرْءَ إذا ما أخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الماءِ لا يَكادُ يَراها . وَتَشَبَّثَ إيادٌ بِالعارِضَةِ الخَشَبِيَّةِ ، والأمواجُ الهادِرَةُ تَحْمِلُهُ تارَةً وَتَهْبِطُ بِهِ تارَةً أخْرى ، أوْ تَلْطِمُهُ ثُمَّ تَرْتَدُّ عَنْهُ ، وَكَأنَّها ماردٌ مَجْنونٌ يَتَفَنَّنُ في اسْتِخْدامِ قُوَّتِهِ دونَ حِسابٍ .

وَأيْقَنَ إيادٌ أنْ لا نَجاةَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الهَوْلِ ؛ فَما كانَتْ بَراعَتُهُ في السِّباحَةِ في مِياهِ الخَليجِ العَرَبِيِّ بِالَّتي تُغْني عَنْهُ شَيْئًا في مِياهِ المُحيطِ الثّائِرَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ ضَرَباتُ ذِراعَيْهِ تُحَرِّكُهُ وَلَوْ شِبْرًا . وَأنْهَكَ صِراعُهُ مَعَ الأمْواجِ قُواهُ فَتَشَبَّثَ بِالعارِضَةِ الخَشَبِيَّةِ عَلَّها تُساعِدُهُ عَلى البَقاءِ طافِيًا . وَجَعَلَ يُكْثِرُ مِنَ الدُّعاءِ وَالاسْتِغْفارِ ، وَخالَجَهُ إحْساسٌ بِأنَّ اللهَ الَّذي خَلَّصَ يونُسَ مِنَ الكَرْبِ لَنْ يَتَخَلّى عَنْهُ . وَأغْمَضَ إيادٌ عَيْنَيْهِ مُسْلِمًا أمْرَهُ إلى اللهِ ، وَانْتابَهُ شُعورٌ بِأنَّهُ يَلِجُ في نَفَقٍ مُظْلِمٍ ما لَهُ مِنْ نِهايَةٍ .

أمّا ابْنُ صَيْفورٍ وَابْنَتُهُ حِمْنَةُ فَقَدْ حَمَلَتِ الأمْواجُ قارِبَهُما وَألْقَتْ بِهِ عَلى ساحِلِ إحْدى جُزُرِ المِنْطَقَةِ . وَما إنْ لامَسَ القارِبُ أرْضَ الجَزيرَةِ حَتَّى هَبَطَ الرَّجُلُ وَابْنَتُهُ مِنْهُ ، وَهُما لا يُصَدِّقانِ أنَّهُما أفْلَتا

مِنْ ذَلِكَ الهَوْلِ . وَأَنْزَلَ الرَّجُلُ وَابْنَتُهُ مَتاعَهُما ، ثُمَّ لاذا بِأَشْجارِ الجَزيرَةِ ، يَحْتَمِيانِ بِها مِنَ الإعْصارِ الَّذي كانَ يَعْصِفُ بِكُلِّ شَيْءٍ أَمامَهُ . أَمَّا القارِبُ الآخَرُ فَقَدْ حَمَلَتْهُ الأَمْواجُ لِتَقْذِفَهُ بَعيداً في مِنْطَقَةٍ بِها عَشَراتُ الجُزُرِ المَأهولَةِ وَغَيْرِ المَأهولَةِ .

الفصل الحادي عشر

الجَزيرَةُ المَجْهولَةُ

لَمْ يَعْرِفْ إيادٌ ما جرى لَهُ أَوْ كَمْ مِنَ الوَقْتِ مَرَّ عَلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَتَنَبَّهْ إلّا بَعْدَ أَنْ سَلَقَتْهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الاسْتِوائِيَّةِ بِأَلْسِنَةٍ مِنْ نارٍ لَسَعَتْ جُفونَهُ ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ بِحَذَرٍ وَبُطْءٍ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ لا يَزالُ في خِضَمِّ الأَمْواجِ . وَلَمَّا رَأى أَنَّهُ فَوْقَ اليابِسَةِ اعْتَدَلَ جالِساً وَهُوَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ أَنَّهُ نَجا مِنْ ذَلِكَ الكَرْبِ العَظيمِ . وَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ فَرَأى العارِضَةَ الخَشَبِيَّةَ الَّتي كانَ مُتَشَبِّثًا بِها مُتَدَلِّيَةً بَيْنَ أَغْصانِ شَجَرَةٍ عالِيَةٍ ؛ فَأَدْرَكَ كَمْ بَلَغَ ارْتِفاعُ المَوْجِ حَتّى غَطّى تِلْكَ الشَّجَرَةَ ؛ وَسَجَدَ للهِ شُكْرًا أَنِ اسْتَجابَ دُعاءَهُ . ثُمَّ تَذَكَّرَ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ اتِّجاهَ القِبْلَةِ ، فَعَزَمَ عَلى تَحَرِّيها حَتّى يُصَلِّيَ فَرْضَهُ .

وَأَحَسَّ إيادٌ بِالظَّمَإِ الشَّديدِ ، وَتَمَلَّكَهُ الخَوْفُ مِنَ الهَلاكِ عَطَشًا ، ثُمَّ تَذَكَّرَ أَنَّ الجُزُرَ الَّتي مِنْ هَذا القَبيلِ تَمْتَلِئُ بِأَشْجارِ النّارَجيلِ ،

وَهِيَ أشْجارُ جَوْزِ الهِنْدِ . وَتَطَلَّعَ بِبصَرِهِ فَرَأى صُفوفًا مِنْها على مَسافَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ ؛ فَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ ، وَنَهضَ مُتَّجِهًا إلى أقْرَبِ تِلْكَ الأشْجارِ لِيَلْتَقِطَ مِنْها بَعْضَ ثِمارِ الجَوْزِ . وَحانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ خَلْفَهُ فَرَأى مِياهَ البَحْرِ هادِئَةً وَكَأَنَّها صَفْحَةٌ مَلْساءُ ، وَهِيَ الَّتي كانَتْ بِالأمْسِ أمْواجًا عاتِيَةً . وَتابَعَ سَيْرَهُ حَتَّى وَصَلَ إلى إحْدى أشْجارِ النّارَجيلِ ، وَفي أسْفَلِها وَجَدَ بَعْضَ ثِمارِ الجَوْزِ فَالْتَقَطَ إحْداها وَضَرَبَها بِحَجَرٍ فَانْشَقَّتْ ، فَشَرِبَ مِنْها حَتَّى ارْتَوى ، ثُمَّ عالَجَها حَتَّى كَسَرَها نِصْفَيْنِ ، وَجَلَسَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إلى الشَّجَرَةِ فاسْتَخْرَجَ مِنْ ثَمَرَةِ الجَوْزِ لَحْمَها وَسَدَّ رَمَقَهُ حامِدًا اللهَ .

وَجَعَلَ إيادٌ يُفَكِّرُ فيما حَدَثَ لَهُ وَفي مَصيرِ رِفاقِ السَّفينَةِ . وَبَعْدَ أنْ أضْناهُ التَّفْكيرُ في هَذا الأمْرِ شَغَلَتْهُ أمورٌ أخْرى ، فَأصْبَحَ هَمُّهُ تَحْديدَ مَكانِهِ وَتَحَرِّيَ القِبْلَةِ وَمَعْرِفَةَ تاريخِ اليَوْمِ . وَقَدْ قَدَّرَ مَوْقِعَهُ بِأنَّهُ في إحْدى الجُزُرِ الواقِعَةِ إلى الشَّمالِ أوِ الشَّرْقِ مِنْ جَزيرَةِ جاوَةَ ، وَأنَّ اليَوْمَ هُوَ السّابِعُ أوِ الثّامِنُ مِنْ شَهْرِ ذي القَعْدَةِ . وَاجْتَهَدَ إيادٌ في تَحَرّي اتِّجاهِ القِبْلَةِ ، وَاسْتَعانَ في ذَلِكَ بِمُراقَبَتِهِ لاتِّجاهِ الشَّمْسِ . وَبَعْدَ أنْ أدّى صَلاتَهُ سارَ عَلى شاطِئِ الجَزيرَةِ مُتَفَقِّدًا مَعالِمَها ؛ لِيَعْلَمَ هَلْ هِيَ مَأهولَةٌ فَيَتَعَرَّفَ عَلى أهْلِها وَيَأتَنِسَ بِهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يُساعِدونَهُ عَلى الخُروجِ مِنْها . وَلاحَظَ إيادٌ أنَّ الماءَ انْحَسَرَ

مَسافَةً بَعيدَةً عَمَّا كانَ عَلَيْهِ في الصَّباحِ ؛ فَقَدِ ارْتَسَمَتْ على رِمالِ البَحْرِ أقْواسٌ مُتَتالِيَةٌ مِنَ المِلْحِ الَّذي تَبخَّرَ ماؤُهُ .

وَتَسَلَّقَ إيادٌ لِسانًا صَخْرِيًّا مُمْتَدًّا في البَحْرِ وَسارَ فَوْقَهُ حَتَّى نِهايَتِه ، ثُمَّ عادَ أدْراجَهُ وَ واصَلَ سَيْرَهُ عَلى الشَّاطِئِ . وَقَبْلَ أنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ آثَرَ العَوْدَةَ إلى المَكانِ الَّذي بَدَأَ مِنْهُ ، لِكَوْنِهِ عَرَفَهُ وَأَلِفَهُ وَاطْمَأنَّ إلَيْهِ ، مُعْتَزِمًا اسْتِكْمالَ اسْتِكْشافِهِ لِلْجَزيرَةِ في غَدِهِ .

وَفي طَريقِ عَوْدَتِهِ تَسَلَّقَ إيادٌ اللِّسانَ الصَّخْرِيَّ مَرَّةً أخْرى ، وَلَمَّا انْتَهى إلى حافَتِهِ جَلَسَ عَلَيْها يَتَأمَّلُ الماءَ وَالسَّماءَ ، حَتَّى غَلَبَهُ النُّعاسُ وَالتَّعَبُ فَرَقَدَ في مَكانِهِ . وَلَمْ يوقِظْهُ في اليَوْمِ التَّالي سِوى صَوْتِ المِياهِ وَهِيَ تُلامِسُ الصُّخورَ بِرِفْقٍ ثُمَّ تَرْتَدُّ عَنْها . وَنَهَضَ إيادٌ فَاغْتَسَلَ في مِياهِ البَحْرِ ، ثُمَّ هُرِعَ إلى مَكانِ شَجَرِ النَّارَجيلِ فَصَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعَ بِالأمْسِ ، وَشَرَعَ يَسيرُ عازِمًا عَلى أنْ يَقْطَعَ في يَوْمِهِ مَسافَةً أبْعَدَ مِمَّا قَطَعَهُ في اليَوْمِ السَّابِقِ .

ظَلَّ إيادٌ يَسيرُ حَتَّى تَوَسَّطَتِ الشَّمْسُ كَبِدَ السَّماءِ ، دونَ أنْ يَلْحَظَ وُجودَ أيَّةِ أكْواخٍ أوْ قَوارِبِ صَيْدٍ ، تَدُلُّ عَلى وُجودِ بَشَرٍ في الجَزيرَةِ . وَهَمَّ بِأنْ يَنْقَلِبَ عَلى عَقِبَيْهِ عائِدًا مِنْ حَيْثُ جاءَ ، لَوْلا أنَّهُ لَمَحَ – عَنْ بُعْدٍ – آثارَ أقْدامٍ جَعَلَتْها أشِعَّةُ الشَّمْسِ العَمودِيَّةُ جَلِيَّةً

لِلْعِيانِ ، فاقْتَرَبَ مِنْها وَهُوَ يَبْتَهِلُ إلى اللهِ – في قَلْبِهِ – أنْ تكونَ آثارَ أقْدامِ بَشَرٍ يأْنَسُ إلَيْهِمْ . وَلَشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتُهُ عِنْدَما تبيَّنَ لَهُ أنَّها آثارُ حَوافِرِ خَيْلٍ .

وَكانَتِ الآثارُ كَثيرَةً وَمُتَقارِبَةً ، وَتَتَّجِهُ مِنَ السَّاحِلِ إلى داخِلِ الجَزيرَةِ . وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِأنَّها رُبَّما كانَتْ آثارَ حَوافِرِ الخَيْلِ الَّتي كانَتْ تَحْمِلُها السَّفينَةُ . وَتَساءَلَ إنْ كانَتْ سَتَسْتَطيعُ الاهْتِداءَ إلى مَواقِعِ الماءِ وَالكَلأ بِغَريزَتِها ، أمْ سَيَكونُ مَصيرُها الهَلاكَ في هَذِهِ الجَزيرَةِ المَجْهولَةِ ، بَعْدَ أنْ نَجَتْ مِنْ أمْواجِ المُحيطِ العاتِيَةِ .

وَاقْتَفى إيادٌ آثارَ الحَوافِرِ فَوَجَدَها تَتَّجِهُ إلى قَلْبِ الأحْراشِ المُتَكاثِفَةِ داخِلَ الجَزيرَةِ ، فَواصَلَ السَّيْرَ وَالأشْجارُ تَزْدادُ تَكاثُفًا ، حَتَّى حَجَبَتْ أشِعَّةَ الشَّمْسِ تَمامًا ؛ فَقَرَّرَ أنْ يَرْتَدَّ عَلى آثارِهِ حَتَّى لا يَضِلَّ طَريقَهُ عِنْدَما يَحُلُّ الظَّلامُ فَيَطْمِسُ مَعالِمَ الطَّريقِ . وَاعْتَزَمَ أنْ يَسْتَأْنِفَ بَحْثَهُ عَنِ الجِيادِ في غَدِهِ مُبَكِّرًا .

وَانْتَزَعَ في طَريقِ عَوْدَتِهِ غُصْنًا طَويلاً مِنْ شَجَرَةٍ ، وَعالَجَهُ لِيَتَّخِذَ مِنْهُ أداةً لِصَيْدِ السَّمَكِ ، وَجَدَلَ بَعْضَ ألْيافِ الشَّجَرِ فَجَعَلَها خَيْطًا رَبَطَهُ في طَرَفِ الشَّصِّ ، ثُمَّ دَقَّقَ النَّظَرَ في الأرْضِ حَوْلَهُ فَوَجَدَ

دودَةً رَبطَها في الخَيْطِ ، وَانْطَلَقَ عائِدًا إلى اللّسانِ الصَّخْرِيِّ فَجَلَسَ علَى حافَتِهِ ، وَأَلْقى بِخَيْطِ الشَّصِّ في الماءِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ كَثيرًا حَتَّى أَخْرَجَهُ وَفي نِهايَةِ الخَيْطِ سَمَكَةٌ تَتلَوَّى .

وَأَسْرَعَ إِيادٌ وَقَدْ عَضَّهُ الجوعُ فَجَمَعَ بَعْضَ أَوْراقِ الشَّجَرِ وَالأَغْصانِ الجافَّةِ ، وَأَمْسَكَ عودَيْنِ يابِسَيْنِ ثَقَبَ أَحَدَهُما وَبرى الآخَرَ ، ثُمَّ جَعَلَ يُديرُهُ في الثَّقْبِ بِكَفَّيْهِ في حَرَكَةٍ سَريعَةٍ ، حَتَّى انْدَلَعَتْ شَرارَةٌ أَشْعَلَتِ النَّارَ في أَوْراقِ الشَّجَرِ . وَ وَضَعَ إِيادٌ السَّمَكَةَ فَوْقَ النَّارِ حَتَّى نَضِجَ لَحْمُها فَأَكَلَها وَحَمِدَ اللهَ . وَحَرَصَ عَلى أَنْ تَظَلَّ النَّارُ موقَدَةً ، حَتَّى إذا مَرَّتْ سَفينَةٌ قُرْبَ الجَزيرَةِ لَمَحَ بَحَّارَتُها النَّارَ فارْتادوا شاطِئَها وَحَمَلوهُ مَعَهُمْ .

وَأَصْبَحَ صَيْدُ السَّمَكِ بِالشَّصِّ مِنْ فَوْقِ اللّسانِ الصَّخْرِيِّ مِنَ الأَعْمالِ الَّتي يَضْطَلِعُ بِها إِيادٌ عَصْرَ كُلِّ يَوْمٍ ، بَعْدَ قِيامِهِ بِجَوْلاتِهِ الصَّباحِيَّةِ لاسْتِكْشافِ مَجاهِلِ الجَزيرَةِ بَحْثًا عَنِ الجِيادِ . وَكانَ يُريدُ أَنْ يَسْتَخْدِمَ بَعْضَها في التَّنَقُّلِ في أَنْحاءِ الجَزيرَةِ ، أَوْ في حَمْلِ الأَخْشابِ الَّتي يَجْمَعُها لِبِناءِ قارِبٍ يَصْلُحُ لارْتِيادِ الجُزُرِ المُجاوِرَةِ ؛ لِلْعُثورِ عَلى رِفاقِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، أَوْ لِلإِبْحارِ بِها خارِجَ الجَزيرَةِ .



وَأصبَحَ إيادٌ يَجِدُ مُتْعَةً كَبيرَةً في الجُلوسِ على حافَةِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ لِصَيْدِ السَّمَكِ . وَقَدْ زادَ مِنْ تَعَلُّقِهِ بِهَذِهِ البُقْعَةِ أَنَّهُ وَجَدَ فيها مَخْلوقَيْنِ يَأنَسُ إِلَيْهِما – وَهُما زَوْجٌ مِنَ الدَّلافينِ أصْبَحا بِدَوْرِهِما يَأنَسانِ إلى هَذا المَكانِ كَما يَأنَسُ إِلَيْهِ إيادٌ ، حَيْثُ كانَ يُلْقي إِلَيْهِما بِبَعْضِ ما يَصْطادُهُ مِنَ السَّمَكِ فَيَقْفِزانِ مِنَ الماءِ بِرَشاقَةٍ لالْتِقاطِهِ . وَبَلَغَ مِنْ تَعَلُّقِ إيادٍ بِهِما أَنْ سَمَّى أحَدَهُما لَمّاحًا؛ لأَنَّهُ يَلْمَحُ السَّمَكَ الَّذي يُلْقيهِ إِلَيْهِما فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ قَبْلَ صاحِبِهِ ، وَسَمَّى الآخَرَ صَيّاحًا لِكَثْرَةِ صِياحِهِ . وَكانَ يُناديهِما

بِاسْمَيْهِما فَيُهْرَعانِ إِلَيْهِ لِيَلْقَفا ما يُلْقي إِلَيْهِما مِنَ السَّمَكِ .

دَأَبَ إِيادٌ كُلَّ يَوْمٍ عَلى ارْتِيادِ دُروبِ الجَزيرَةِ ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ أَحَداً مِنَ البَشَرِ أَوْ يَجِدُ بَعْضَ الجِيادِ الَّتي نَجَتْ مِنَ الغَرَقِ . وَكانَتْ جَميعُ الدُّروبِ تُؤَدّي إِلى هَضْبَةٍ تَتَوَسَّطُ الجَزيرَةَ . وَلَمْ يَكُنْ يَصْرِفُهُ عَنِ القِيامِ بِجَوْلاتِهِ اليَوْمِيَّةِ هُطولُ الأَمْطارِ الاسْتِوائِيَّةِ الغَزيرَةِ ، أَوْ هُبوبُ العَواصِفِ مِنْ حينٍ لآخَرَ .

وَذاتَ يَوْمٍ قَرَّرَ إِيادٌ تَسَلُّقَ الهَضْبَةِ لِيُتاحَ لَهُ مَجالٌ لِرُؤْيَةِ مَعالِمِ الجَزيرَةِ مِنْ أَعْلى مَكانٍ فيها . وَتَوَغَّلَ إِيادٌ وَسْطَ الأَدْغالِ الَّتي كانَتْ تَسْبَحُ في الظَّلامِ الدّامِسِ ، رَغْمَ أَنَّ النَّهارَ لَمْ يَكُنْ قَدِ انْتَصَفَ بَعْدُ . وَخَيَّمَ جَوٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ بِسَبَبِ الضَّبابِ النّاجِمِ عَنِ الرُّطوبَةِ الشَّديدَةِ ، في حينَ تَصاعَدَ خَليطٌ مُتَنافِرٌ مِنْ أَصْواتِ الطُّيورِ وَالحَشَراتِ وَالحَيَواناتِ .

وَمِنْ حينٍ لآخَرَ كانَ إِيادٌ يَلْمَحُ بَعْضَ طُيورِ الغابَةِ بِأَلْوانِها الزّاهِيَةِ عَلى غُصونِ الشَّجَرِ ، أَوْ يَسْمَعُ زَمْجَرَةً رَهيبَةً لأَحَدِ وُحوشِ الغابَةِ . وَساوَرَ إِياداً قَلَقٌ عَلى الجِيادِ مِنْ تِلْكَ الوُحوشِ ، ثُمَّ جَعَلَ يُطَمْئِنُ قَلْبَهُ بِأَنَّ الخُيولَ العَرَبِيَّةَ تَسْتَطيعُ التَّغَلُّبَ عَلى المَخاطِرِ ؛ لِما تَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ ذَكاءٍ غَريزِيٍّ وَقُدْرَةٍ عَلى التَّصَرُّفِ وَلَوْ في غَيْرِ مَوْطِنِها .

وَخطَرَ لإيادٍ أنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ سِلاحًا يَتَّقي بِهِ وُحوشَ الجزيرَةِ ؛ فَقَطَعَ غُصْنَ شَجَرَةٍ مَتينًا وَجَعَلَ يَبْري طَرَفَهُ على صَخْرَةٍ ، حَتَّى جَعَلَهُ مُدَبَّبًا كالرُّمْحِ ، ثُمَّ واصَلَ صُعودَهُ في الهَضْبَةِ وَهُوَ أكْثَرُ اطْمِئْنانًا . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ سَمِعَ إيادٌ صَوْتًا كادَ يَطيرُ مِنْهُ فَرَحًا ، وَهُوَ صَوْتُ تَساقُطِ المِياهِ بِقُوَّةٍ .

وَكانَ لَهُ أيّامٌ لَمْ يَذُقْ فيها سِوى رَحيقِ جَوْزِ النّارَجيلِ ؛ فَأَرْهَفَ السَّمْعَ ، وَقَصَدَ إلى مَصْدَرِ الصَّوْتِ الَّذي كانَ كُلَّما اقْتَرَبَ مِنْهُ ازْدادَ وُضوحًا ، حَتَّى أصْبَحَ هَديرًا . وَما لَبِثَتِ الأشْجارُ أنِ انْفَرَجَتْ عَنْ مَنْظَرٍ خَلّابٍ لِشَلّالٍ تَنْحَدِرُ مِياهُهُ إلى بُحَيْرَةٍ في أسْفَلِهِ. وَجَعَلَ إيادٌ يَهْبِطُ الصُّخورَ بِحَذَرٍ لِيَصِلَ إلى ماءِ البُحَيْرَةِ العَذْبِ ، وَقَدِ اشْتَهى أنْ يَعُبَّ مِنْهُ عَبًّا .

وَ وَصَلَ إيادٌ إلى ماءِ البُحَيْرَةِ وَأَخَذَ يَغْتَرِفُ مِنْهُ بِكِلْتا يَدَيْهِ وَيَشْرَبُ حَتَّى ارْتَوى ، وَحَمِدَ اللهَ الَّذي يَسَّرَ لَهُ تِلْكَ النِّعْمَةَ بَعْدَ أنْ كادَ يَنْسى مَذاقَ الماءِ . وَجَلَسَ هُنَيْهَةً عَلى حافَةِ البُحَيْرَةِ قَبْلَ أنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ في مائِها لِيَغْتَسِلَ فيهِ . وَلَمْ يَشْعُرْ إيادٌ بِمُرورِ الوَقْتِ إلا بَعْدَ أنْ تَناهَتْ إلَيْهِ أصْواتُ حَيَواناتِ الغابَةِ ؛ فَأَدْرَكَ أنَّها سَتَرِدُ الماءَ لِتَشْرَبَ ، وَقَدْ يَكونُ بَعْضُها مِنَ الوُحوشِ المُفْتَرِسَةِ فَيَتَعَرَّضُ لِخَطَرٍ شَديدٍ ، فَخَرَجَ مِنَ الماءِ عَلى مَضَضٍ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّ الخُيولَ

رُبّما كانَتْ تَأتي كَذَلِكَ إلى ذَلِكَ المَكانِ لِتَشْرَبَ مِنْهُ ، إلّا إذا وَجَدَتْ مَصْدَرًا آخَرَ مأمُونًا لِلْمِياهِ .

وَرأى إيادٌ أنْ يَسْتَشْرِفَ أرْجاءَ الجَزيرَةِ مِنْ فَوْقِ إحْدى الأشْجارِ ، وَطَفِقَ يَتسلَّقُ شَجَرَةً باسِقَةً في حَذَرٍ خَشْيَةَ الأفاعي . وَرَوَّعَ هَذا سُكّانَ الشَّجَرَةِ مِنَ القُرودِ ، فَأخَذَتْ تَقْفِزُ مِنْها إلى الأشْجارِ الأخْرى وَهِيَ تُطْلِقُ صَيْحاتٍ صاخِبَةً . وَ وَصَلَ إيادٌ إلى قِمَّةِ الشَّجَرَةِ وَأجالَ بَصَرَهُ مُسْتَكْشِفًا أنْحاءَ الجَزيرَةِ ؛ فَرَأى الأشْجارَ تُغَطّي مُنْتَصَفَها تَمامًا ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْ سَبيلٍ إلى مَعْرِفَةِ ما تُغَطّيهِ الأشْجارُ سِوى بِالتَّوَغُّلِ خِلالَها .

وَتَطَلَّعَ إلى أطْرافِ الجَزيرَةِ بادِئًا بِمَوْقِعِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ الَّذي يَألَفُهُ ، حَتّى إذا حَدَّدَ مَكانَهُ أخَذَ يُجيلُ بَصَرَهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً . وَلَفَتَ نَظَرَهُ وُجودُ شَيْءٍ يَبْرُزُ مِنَ الماءِ ، عَلى مَبْعَدَةٍ مِنْ يَمينِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ . وَدَقَّقَ إيادٌ النَّظَرَ في تِلْكَ البُقْعَةِ ؛ فَاسْتَطاعَ أنْ يُمَيِّزَ جِسْمًا غارِقًا في الماءِ يَبْرُزُ مِنْهُ جُزْءٌ فَوْقَ السَّطْحِ ، فَأسْرَعَ بِالنُّزولِ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ مُعْتَزِمًا التَّوَجُّهَ إلى تِلْكَ البُقْعَةِ لِتَحَرّي الأمْرِ .

وَقَبْلَ أنْ يَعودَ إيادٌ أدْراجَهُ قَطَعَ قَصَبَةً ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ ساقِ نَباتِ البامبو (البُوص) ، حَيْثُ إنَّ ساقَ ذَلِكَ النَّباتِ مُجَوَّفَةٌ إلّا عِنْدَ مَوْضِع

العُقَلِ مِنْها فَيَكادُ يَكونُ مَسْدوداً . وَمَلأَ إِيادٌ تِلْكَ السّاقَ بِالماءِ العَذْبِ وَرَبَطَها إِلى كَتِفِهِ بِأَلْيافِ الشَّجَرِ ، وَاتَّخَذَ سَبيلَهُ هابِطاً مِنْ فَوْقِ الهَضْبَةِ مُتَّجِهاً إِلى حَيْثُ البُقْعَةُ الَّتي لَمَحَ فيها الجِسْمَ الغارِقَ في الماءِ . وَما إِنْ بَلَغَ السّاحِلَ حَتّى تَرَكَ ما كانَ يَحْمِلُهُ عَلى البَرِّ ، وَقَفَزَ إِلى الماءِ سابِحاً حَتّى وَصَلَ إِلى تِلْكَ البُقْعَةِ . وَلَمّا اقْتَرَبَ إِيادٌ مِنَ المَكانِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الشَّيْءَ البارِزَ فَوْقَ السَّطْحِ ما هُوَ سِوى قِمَّةِ صارٍ لِسَفينَةٍ ، فَأَخَذَ شَهيقاً عَميقاً وَغاصَ لِيَسْتَكْشِفَ الجُزْءَ المَغْمورَ تَحْتَ الماءِ .



وَسرْعانَ ما تَبَيَّنَ لإيادٍ أنَّ ذَلِكَ الجِسْمَ الغارِقَ هُوَ لِلسَّفينَةِ الَّتي كانَ يَقودُها وَحَطَّمَها الإعْصارُ لِيَدْفَعَ بِها إلى ذَلِكَ المكانِ ، فَخَرَجَ مِنَ الماءِ لِيَأخُذَ شَهيقاً ثُمَّ غاصَ في الماءِ مَرَّةً أخْرى ، وَطافَ سابِحاً حَوْلَ بَدَنِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، لِيَسْتَكْشِفَ سُبُلَ الوُصولِ إلى غُرَفِها. وَ وَلَجَ مِنْ أحَدِ مَنافِذِها ، وَمَرَقَ مِنْ غُرْفَةٍ إلى أخْرى ، وَكانَ كُلَّما احْتاجَ إلى الهَواءِ صَعِدَ إلى السَّطْحِ لِيَتَنَفَّسَ . وَصَنَعَ إيادٌ ذَلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى عَلِمَ مَواضِعَ الأشْياءِ النَّافِعَةِ في السَّفينَةِ ، الَّتي قَدْ تَلْزَمُهُ عَلى البَرِّ ، ثُمَّ رَفَعَ بَعْضَ تِلْكَ الأشْياءِ لِيُعايِنَ ثِقْلَها، ثُمَّ صَعِدَ إلى السَّطْحِ وَسَبَحَ مُتَّجِهاً إلى الشَّاطِئِ ؛ لِيَتَدَبَّرَ وَسيلَةً تُمَكِّنُهُ مِنِ انْتِشالِ ما يَلْزَمُهُ . وَبَيْنَما هُوَ في طَريقِهِ إلى الشَّاطِئِ شاهَدَ صَديقَيْهِ البَحْرِيَّيْنِ لَمَّاحاً وَصَيَّاحاً يَسْبَحانِ في اتِّجاهِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ لإيادٍ العَوْمُ وَسْطَ الدَّلافينِ ، وما كانَ يَعْلَمُ عَنْ طَبائِعِها شَيْئاً سِوى ما كانَ يَرْويهِ صَيَّادو اللُّؤْلُؤِ في الخَليجِ العَرَبِيِّ – مِنْ أنَّها صَديقَةٌ لِلإنْسانِ وَلا تُؤْذيهِ ، وَذَلِكَ خِلافاً لِسَمَكَةِ القِرْشِ المُفْتَرِسَةِ ؛ فَلَمْ يُظْهِرِ الخَوْفَ مِنْهُما وَظَلَّ يَسْبَحُ ، وَهُما يَقْفِزانِ مِنَ الماءِ ثُمَّ يَغْطِسانِ بِالقُرْبِ مِنْهُ ، وَكَأنَّهُما يُداعِبانِهِ . وَعِنْدَما اقْتَرَبا مِنْهُ أمْسَكَ إيادٌ بِذَيْلِ أحَدِهِما فَانْطَلَقَ يَشُقُّ الماءَ ، حَتَّى اقْتَرَبا مِنَ الشَّاطِئِ ، فَتَرَكَ إيادٌ الذَّيْلَ وَخَرَجَ مِنَ الماءِ مَبْهوراً

بِهَذِهِ التَّجْرِبَةِ .

وَأرادَ إيادٌ مُكافَأَةَ صَديقَيْهِ ، فَأَسْرَعَ إلى شَصِّهِ وَمَضى إلى حافَةِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ فاصْطادَ بَعْضَ السَّمَكِ ، وَصاحَ بِهِما فَهُرِعا إلَيْهِ ، حَتَّى إذا اقْتَرَبا مِنَ الحافَةِ الَّتي يَجْلِسُ عَلَيْها جَعَلَ يُلْقِمُهُما ما اصْطادَ مِنَ السَّمَكِ ، وَيُرَبِّتُ عَلى رَأسَيْهِما ، فَيَقْفِزانِ أمامَهُ وَكَأَنَّهُما يُعْرِبانِ عَنِ امْتِنانِهِما . وَأدْخَلَ ذَلِكَ البَهْجَةَ إلى نَفْسِ إيادٍ فَجَعَلَ يُكَرِّرُ ذَلِكَ وَهُما لا يَنْفَكّانِ عَنِ القَفْزِ في الماءِ في حَرَكاتٍ بَهْلَوانِيَّةٍ ، إلى أنْ حَلَّ بِهِ التَّعَبُ فَقامَ يُصَلّي فَرْضَهُ ثُمَّ أخْلَدَ إلى النَّوْمِ .

نامَ إيادٌ نَوْمًا عَميقًا ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ قَبْلَ حُلولِ الفَجْرِ ، فَتَناوَلَ شَيْئًا مِنَ الفاكِهَةِ البَرِّيَّةِ ، وَشَرِبَ مِنَ الماءِ الَّذي بَقِيَ في القَصَبَةِ . وَبَعْدَ أنْ صَلّى الفَجْرَ سارَ عَلى الشّاطِئِ حَتّى وَصَلَ إلى النُّقْطَةِ المُقابِلَةِ لِلسَّفينَةِ الغارِقَةِ ، وَكانَتِ الشَّمْسُ قَدْ أشْرَقَتْ وَبَدَأَتْ تَغْمُرُ الجَزيرَةَ بِنورِها .

وَقَفَزَ إيادٌ إلى الماءِ وَسَبَحَ في اتِّجاهِ الصّاري ، حَتّى إذا بَلَغَهُ أخَذَ شَهيقًا عَميقًا ثُمَّ غاصَ مُتَّجِهًا إلى إحْدى غُرَفِ السَّفينَةِ ، وَكانَ يَحْفَظُ مَواقِعَ الغُرَفِ فيها وَكَأَنَّها كِتابٌ مَفْتوحٌ . وَحَمَلَ صُنْدوقًا بِهِ بَعْضُ أدَواتِ النِّجارَةِ الَّتي كانَ البَحّارَةُ يَسْتَعْمِلونَها لِتَرْميمِ

السَّفينَةِ. وكانَ الصُّنْدوقُ خَفيفاً وَهُوَ تَحْتَ الماءِ ، أمَّا بَعْدَ أنْ صَعِدَ بِهِ إلى السَّطْحِ أحَسَّ بِثِقْلِهِ . وَأخَذَ إيادٌ يَدْفَعُ الصُّنْدوقَ إلى البَرِّ ، وَ وَجَدَ مَشَقَّةً بالِغَةً في ذَلِكَ .

كانَ اهْتِمامُ إيادٍ بِصُنْدوقِ أدَواتِ النِّجارَةِ أكْثَرَ مِن اهْتِمامِهِ بِغَيْرِهِ مِنَ الأشْياءِ ؛ لِحاجَتِهِ إلى ما فيهِ مِنْ أدَواتٍ تُعينُهُ عَلى بِناءِ كوخٍ يَأوي إلَيْهِ لَيْلاً ؛ اتِّقاءَ المَطَرِ وَالعَواصِفِ وَ وُحوشِ الجَزيرَةِ ، وَلِيَبْنِيَ قارِباً يُبْحِرُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ المَكانِ .

وَما إنْ وَصَلَ إيادٌ إلى البَرِّ حَتَّى عالَجَ الصُّنْدوقَ فَانْفَتَحَ وَجَعَلَ يَسْتَخْرِجُ أدواتِهِ . وَأوْحى لَهُ ذَلِكَ أنْ يَعْمِدَ إلى بَعْضِ جُذوعِ الشَّجَرِ فَيَشُقَّها وَيَضُمَّها إلى بَعْضِها بَعْضاً ، فَيَصْنَعَ مِنْها رَمْثاً يَحْمِلُهُ إلى مَوْقِعِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ؛ لَعَلَّهُ يَجِدُ فيها ما يَنْفَعُهُ فَيَنْقُلَهُ فَوْقَ الرَّمْثِ بَدَلاً مِنْ دَفْعِهِ في الماءِ .

وَفَعَلَ إيادٌ ذَلِكَ فَأصْبَحَ لَدَيْهِ – في زَمَنٍ يَسيرٍ – رَمْثٌ ، وَشَدَّ إلَيْهِ غُصْنَ شَجَرَةٍ لِيَكونَ مِجْدافاً وَدَفَّةً ، ثُمَّ رَبَطَ إلَيْهِ حَبْلاً مِنْ ألْيافِ الشَّجَرِ لِيَشُدَّهُ إلى صاري السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، وَلِيَحْمِلَ بِهِ ما يَلْزَمُهُ مِنْ جَوْفِها إلى سَطْحِ الماءِ . وَما إنْ بَلَغَ إيادٌ مَوْقِعَ السَّفينَةِ حَتَّى جَعَلَ يَغوصُ في الماءِ ؛ لِيَلِجَ السَّفينَةَ وَيَعودَ حامِلاً بَعْضَ ما فيها إلى

الرَّمَثِ ، حَتَّى إذا ثَقُلَ الرَّمَثُ جَذَّفَ عائِدًا إلى البَرِّ فَأَلْقى بِحُمولَتِهِ وَرَجَعَ لِيَسْتَأْنِفَ عَمَلَهُ . وَجَذَبَ ذَلِكَ النَّشاطُ اهْتِمامَ لَمّاحٍ وَصَيّاحٍ فَأَسْرَعا كَعادَتِهِما لِيُشارِكا فيهِ ، وَجَعَلا يُرافِقانِهِ في غُدُوِّهِ وَرَواحِهِ .

وَتَمَكَّنَ إِيادٌ مِنْ نَقْلِ كَثيرٍ مِنَ الأَشْياءِ النّافِعَةِ مِنَ السَّفينَةِ إلى البَرِّ ، وَكانَ مِنْ بَيْنِها بُوصَلَةٌ وَأَسْطُرْلابٌ وَبَعْضُ السِّلاحِ مِمّا كانَ يَسْتَخْدِمُهُ البَحّارَةُ . وَانْتَشَلَ إِيادٌ صُنْدوقَهُ وَكانَتْ مُحْتَوَياتُهُ سَليمَةً ، كَما نَقَلَ بَعْضَ جِرارِ الشَّعيرِ ، وَالبارودِ ، وَقُدورِ النِّفْطِ الَّتي لَمْ يَفْسُدْ ما فيها لإِحْكامِ أَغْطِيَتِها . لَكِنَّ الرَّمَثَ كانَ أَصْغَرَ مِنْ أَنْ يَحْمِلَ بَعْضَ الأَشْياءِ الثَّقيلَةِ أَوِ الكَبيرَةِ مِثْلِ أَشْرِعَةِ السُّفُنِ وَالمَجانيقِ ؛ فَزادَ إِيادٌ في رَمَثِهِ أَلْواحًا مِنَ الخَشَبِ لِيُصْبِحَ رَحيبًا ، وَثَبَّتَ فيهِ غُصْنًا جَعَلَهُ صارِيًا شَدَّ إِلَيْهِ شِراعًا لِتَدْفَعَهُ الرِّيحُ سَريعًا إلى مَوْقِعِ السَّفينَةِ .

وَاعْتَزَمَ إِيادٌ أَنْ يَحْمِلَ المَجانيقَ وَما يَصْلُحُ مِنْ أَشْرِعَةِ السُّفُنِ فيما بَعْدُ . أَمّا في لَحْظَتِهِ تِلْكَ فَكانَ يَشْتَهي قُرْصًا مِنْ خُبْزِ الشَّعيرِ كَالَّذي كانَ يَصْنَعُهُ طاهي السَّفينَةِ ، فَحَمَلَ كُلَّ ما انْتَشَلَهُ عَلى الرَّمَثِ ، وَسارَ عَلى الشّاطِئِ وَهُوَ يَشُدُّهُ بِحَبْلٍ حَتَّى بَلَغَ مَوْقِعَهُ المُفَضَّلَ بِجانِبِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ . وَما إِنْ بَلَغَ ذَلِكَ المَكانَ حَتَّى صَنَعَ رَغيفَيْنِ فَأَنْضَجَهُما عَلى النّارِ ، وَجَلَسَ يَلْتَهِمُهُما شاكِرًا للهِ

فَضْلَهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَتَهُ بِهِ . وَقَبْلَ أنْ يَنْهَضَ مِنْ مَكانِهِ غَرَسَ بَعْضَ حُبوبِ الشَّعيرِ في الأرْضِ ؛ لَعَلَّها تَنْبُتُ فَيأكُلَ مِنْها إنْ طالَ بِهِ المُكوثُ في الجَزيرَةِ ، أوْ يَأكُلَ مِنْها طَيْرٌ أوْ حَيَوانٌ فَيكونَ لَهُ بِذَلِكَ أجْرٌ ، كَما تَهْدي إلى ذَلِكَ السُّنَّةُ .

وَلَمْ يَعُدْ في السَّفينَةِ مُهِمًّا سِوى المَجانيقِ ، وَخَطَرَ لإيادٍ أنْ يَسْتَنْقِذَها أيْضاً عَسى أنْ يَتَمَكَّنَ يَوْماً مِنْ حَمْلِها إلى مَنْ كانَتْ مُهْداةً إلَيْهِ ، بَدَلاً مِنْ تَرْكِها لِتَتْلَفَ في الماءِ ؛ فَطَفِقَ يَذْهَبُ إلى مَوْقِعِ السَّفينَةِ في رَمَثِهِ وَيَغوصُ في الماءِ فَيَفُكُّ أجْزاءَ المَجانيقِ واحِداً بَعْدَ الآخَرِ ، وَيَحْمِلُها إلى سَطْحِ الماءِ فَيَضَعُها عَلى الرَّمَثِ ، ثُمَّ يَعودُ بِها إلى الشّاطِئِ ، ثُمَّ يُعاوِدُ الكَرَّةَ ، حَتّى إذا أدْرَكَهُ التَّعَبُ خَرَجَ يَتَبَلَّغُ بِبَعْضِ الزّادِ وَيُؤَدّي فَرْضَهُ ، ثُمَّ يَعْمَلُ في بِناءِ كوخِهِ الَّذي جَعَلَهُ عَلى رَبْوَةٍ مُرْتَفِعَةٍ بَعيداً عَنِ الأشْجارِ؛ حَتّى يَتَعَذَّرَ عَلى الوُحوشِ أوِ الهَوامِّ وَالزَّواحِفِ الوُصولُ إلَيْهِ ، وَأحاطَهُ بِسِياجٍ مُرْتَفِعٍ ، وَنَقَلَ إلى ساحَتِهِ ما انْتَشَلَهُ مِنَ السَّفينَةِ .

وَكانَ إيادٌ قَدْ أوْشَكَ عَلى فَكِّ آخِرِ المَجانيقِ السَّليمَةِ مِنَ السَّفينَةِ ، وَأرادَ الصُّعودَ إلى السَّطْحِ لِيَتَنَفَّسَ قَبْلَ أنْ يُعاوِدَ العَمَلَ ، فَما راعَهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ كَوَّةٍ مِنَ السَّفينَةِ سِوى رُؤْيَتِهِ قِرْشاً مُفْتَرِساً يَحومُ حَوْلَها مُتَرَبِّصاً ؛ فَأسْرَعَ لائِذاً بِالسَّفينَةِ وَالْتَقَطَ عوداً مِنْ حَديدٍ

لعَلَّهُ يدْرَأ بِهِ خطَرَ القِرْشِ .

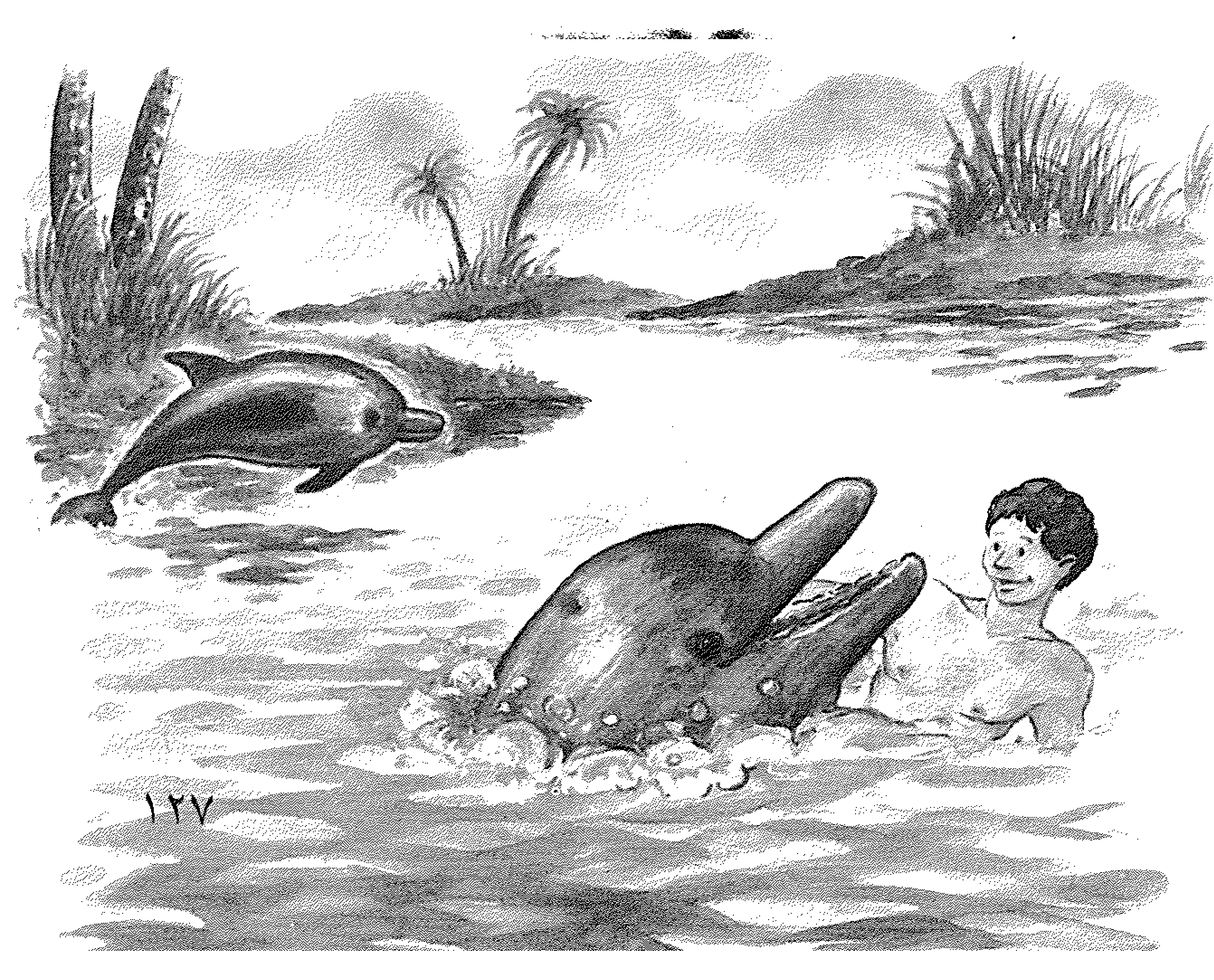
وَلَمْ يكُنْ إيادٌ لِيَسْتَطيعَ البَقاءَ مُدَّةً أطْوَلَ تحْتَ الماءِ ، فَأخَذَ يَضْرِبُ الماءَ - بِعَصَبِيَّةٍ - بِالعودِ الَّذي يَحْمِلُهُ ، لَعَلَّهُ بِذَلِكَ يَحْمِلُ القِرْشَ عَلى الابْتِعادِ عَنْهُ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ يَحومُ حَوْلَ إيادٍ مُتَّخِذاً وَضْعَ الانْقِضاضِ وَقَدْ تَدَلَّتْ زِعْنِفَتاهُ الجانِبِيَّتانِ وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ ، وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ الانْزِعاجُ مِنْ ضَرَباتِ العودِ في الماءِ ، الَّتي نَبَّهَتْ - مَعَ ذَلِكَ - زَوْجَ الدَّلافينِ ؛ فَانْدَفَعا صَوْبَ تِلْكَ الأصْواتِ المُنْبَعِثَةِ مِنَ المَكانِ الَّذي تَعَوَّدَ صاحِبُهُما الغَوْصَ فيهِ . وَما إنْ لَمَحا القِرْشَ حَتَّى انْقَضّا عَلَيْهِ بِسُرْعَةِ البَرْقِ يَضْرِبانِهِ في فُتُحاتِ التَّنَفُّسِ المَوْجودَةِ عَلى جانِبَيْ رَأسِهِ ؛ حَيْثُ إنَّها نُقْطَةُ ضَعْفِهِ الوَحيدَةُ . وَظَلّا يُهاجِمانِهِ بِلا هَوادَةٍ حَتَّى تَقَطَّعَتْ أنْفاسُهُ وَهَوى مُتَرَنِّحاً إلى القاعِ .

وَأسْرَعَ إيادٌ صاعِداً إلى سَطْحِ الماءِ ، وَهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ عَيْنَيْهِ ، فَالْتَقَطَ أنْفاسَهُ وَرَكِبَ رَمَثَهُ وَعادَ إلى الشّاطِئِ لِيُكافِئَ صَديقَيْهِ الوَفِيَّيْنِ ، شاكِراً اللهَ عَلى ما يَسَّرَ لَهُ مِنْ سَبيلِ النَّجاةِ .

أصْبَحَ لَدى إيادٍ في فِناءِ كوخِهِ مِنَ السِّلاحِ وَالعُدَّةِ ما يُتيحُ لَهُ التَّجْوالَ في الجَزيرَةِ ؛ لاسْتِكْشافِ بَقِيَّةِ مَعالِمِها وَاخْتِراقِ أدْغالِها دونَ أنْ يَخْشى وُحوشَها ، فَكانَ يَخْرُجُ مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَمُتَوَشِّحاً قَوْساً ، وَعَلى كَتِفِهِ جَعْبَةُ سِهامٍ ، وَقَدْ لَفَّ حَبْلاً عَلى خَصْرِهِ لِيَسْتَخْدِمَهُ

في التَّسلُّقِ أوِ الجَذْبِ .

وَكانَ يَبْدأ يومَهُ بِالتَّوجُّهِ إلى البُحيرةِ العَذْبَةِ فَيَنْهَلُ مِنْها حتَّى يَرْتَوِيَ ، ثُمَّ يملأ القَصبَةَ وَيُحْكِمُ إغْلاقَها وَيُعلِّقُها على كَتِفِهِ الأخْرى ، وَيَخْتَرِقُ الغابَةَ المُحيطَةَ بِالبُحَيْرَة . وَكانَ إيادٌ يَتَوخَّى الحَذَرَ وَهُوَ يَسيرُ في كُلِّ يَوْمٍ في اتِّجاهٍ مُخْتَلِفٍ عَنْ الاتِّجاهِ الَّذي سارَ فيهِ في اليَوْمِ السَّابِقِ ، حَتَّى إذا لَمْ يَجِدْ شَيْئاً ذا بالٍ ، وانْقَضى مِنَ النَّهارِ أكْثَرُهُ ؛ آبَ مِنْ حَيْثُ ذَهَبَ لِيُؤَدِّيَ فَرْضَهُ وَيَسُدَّ رَمَقَهُ وَيُداعِبَ صَديقَيْهِ البَحْرِيَّيْنِ ، ثُمَّ يُكْمِلَ بِناءَ كوخِهِ وَيَتَعَهَّدَ الشَّعير



الَّذي بَدَأَ يَنْبُتُ .

وَكانَ إذا وَجَدَ عِنْدَهُ فُسْحَةً مِنَ الوَقْتِ وَطاقَةً عَلى العَمَلِ ، اتَّجَهَ إلى شاطِئِ البَحْرِ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنَ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ ، حَيْثُ يَبْدَأُ في جَمْعِ بَعْضِ جُذوعِ الأَشْجارِ الَّتي تَصْلُحُ لِبِناءِ قارِبٍ مَتينٍ ، يَسْتَطيعُ بِهِ مُغالَبَةَ الأَمْواجِ القَوِيَّةِ - فَيَظَلُّ يَعْمَلُ في بِناءِ القارِبِ ، حَتَّى إذا نَهَكَهُ التَّعَبُ عادَ إلى كوخِهِ لِيُصَلِّيَ ما بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ فَرْضٍ ، سائِلاً اللهَ أَنْ يُفَرِّجَ كَرْبَهُ . ثُمَّ يَأْوي إلى فِراشِهِ بَعْدَ أَنْ يَتَناوَلَ بَعْضَ الزّادِ إِنْ كانَ بِهِ جوعٌ .

الفصل الثاني عشر
وادي الجِيادِ

أتَمَّ إيادٌ بِناءَ جُزْءٍ كَبيرٍ مِنْ جِسْمِ السَّفينَةِ ، مُنْتَفِعاً بِأدَواتِ النِّجارَةِ الَّتي انْتَشَلَها ، كَما نَفَعَتْهُ مُشاهَدَتُهُ لِبَنَّائي السُّفُنِ في البَصْرَةِ وَهُمْ يُزاوِلونَ أعْمالَهُمْ . وَانْتَعَشَتْ آمالُهُ في الخُروجِ مِنَ الجَزيرَةِ ، فاخْتارَ لِسَفينَتِهِ اسْماً كَتَبَهُ عَلى جانِبَيْ مُقَدِّمَتِها ، وَكانَ الاسْمُ هُوَ « نَجْمِ الأمَلِ » .

وَقَسَّمَ إيادٌ واجِباتِهِ اليَوْمِيَّةَ بَيْنَ اسْتِكْشافِ مَعالِمِ الجَزيرَةِ في أوَّلِ النَّهارِ وَاسْتِكْمالِ بِناءِ السَّفينَةِ في آخِرِهِ . وَرَغْمَ أنَّ إياداً لَمْ يَعْثُرْ عَلى ما يَدُلُّ على وُجودِ بَشَرٍ في الجَزيرَةِ ، إلّا أنَّهُ لَمْ يَيْأسْ مِنَ العُثورِ عَلى الجِيادِ الَّتي نَجَتْ . وَلَمْ تَضِعْ آمالُ إيادٍ سُدًى ؛ فَفي صَباحِ يَوْمٍ كانَ يَخْتَرِقُ الغابَةَ مِنْ جِهَةٍ لَمْ يَمْشِ فيها مِنْ قَبْلُ ، عَثَرَ عَلى غَديرٍ صَغيرٍ مُنْبَثِقٍ مِنْ بُحَيْرَةِ الماءِ العَذْبِ المَوْجودَةِ في الهَضْبَةِ الوُسْطى لِلْجَزيرَةِ.

وَتَتَبَّعَ إِيادٌ مِياهَ الغَديرِ مَسافَةً فَوَجَدَ شاطِئَيْهِ يَتَباعَدانِ لِيَتَكَوَّنَ مِنْهُما سَهْلٌ شِبْهُ مُنْبَسِطٍ ، تَتَناثَرُ فيه بَعْضُ الأَشْجارِ . وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِأَنَّ هَذا هُوَ المَكانُ المِثالِيُّ الَّذي تَسْتَطيعُ الجِيادُ أَنْ تَعيشَ فيهِ بِمَأْمَنٍ مِنَ الوُحوشِ الضّارِيَةِ ، الَّتي تُفَضِّلُ الاخْتِباءَ في الأَحْراشِ الكَثيفَةِ .

وَتَزايَدَتْ آمالُ إِيادٍ في العُثورِ عَلى الجِيادِ ، فَتابَعَ السَّيْرَ مَسافَةَ كيلومِتْرَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ دونَ أَنْ يَرى شَيْئاً ، وَكادَ يَعودُ أَدْراجَهُ خَشْيَةَ حُلولِ الظَّلامِ وَانْطِماسِ مَعالِمِ الطَّريقِ ، لَوْلا أَنْ تَناهَتْ إِلى سَمْعِهِ أَصْواتٌ مَأْلوفَةٌ أَدْخَلَتِ البَهْجَةَ إِلى فُؤادِهِ ؛ فَأَصاخَ السَّمْعَ وَجَدَّ في السَّيْرِ لِيَصِلَ إِلى مَصْدَرِ تِلْكَ الأَصْواتِ ، الَّتي بَدا أَنَّها مُنْبَعِثَةٌ مِنْ وَراءِ رَبْوَةٍ قَليلَةِ الارْتِفاعِ ، فَلَمّا بَلَغَها اعْتَلاها فَوَجَدَها تُشْرِفُ عَلى وادٍ رَحيبٍ مَكْسُوٍّ بِالعُشْبِ الأَخْضَرِ اليانِعِ .

وَلَشَدَّ ما كانَتْ فَرْحَتُهُ عِنْدَما رَأى الجِيادَ تَمْرَحُ في جَنَباتِ الوادي . وَتَمَنّى إِيادٌ أَلا تَجْفَلَ مِنْهُ حينَ تَراهُ ؛ وَخَشِيَ أَنْ تَكونَ الفَتْرَةُ الَّتي قَضَتْها الجِيادُ دونَ مُخالَطَةِ البَشَرِ قَدْ رَدَّتْها إِلى طَبيعَتِها البَرِّيَّةِ . وَاقْتَرَبَ إِيادٌ مِنْها بِحَذَرٍ، وَأَخَذَ يُناديها بِأَسْمائِها الَّتي كانَ يُناديها بِها فَوْقَ السَّفينَةِ ؛ لِتَتَهَيَّأَ لِمُلاقاتِهِ دونَ وَجَلٍ .

وَمَيَّزَ بَعْضُ الجِيادِ النِّداءَ فَرَفَعَتْ أَعْناقَها وَأَرْهَفَتْ آذانَها في حينَ أَجْفَلَ بَعْضُها وَجَرى . وَقَطَفَ إِيادٌ بَعْضَ الثِّمارِ البَرِّيَّةِ وَقَرَّبَها مِنْ

بَعْضِ الجِيادِ الَّتي كانَتْ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ ، فَجَعَلَتْ تُحَمْحِمُ وَتَهِمُّ بِالرَّكْضِ . وَما لَبِثَ جَوادٌ مِنْها أَنْ فارَقَهُ تَرَدُّدُهُ وَاقْتَرَبَ مِنْ إِيادٍ وَتَناوَلَ الثِّمارَ مِنْ كَفِّهِ المَمْدودَةِ . وَطَفِقَ إِيادٌ يَمْسَحُ عَلى عُنُقِهِ وَيُرَبِّتُ عَلَيْهِ وَيُقَبِّلُهُ ، حَتَّى أَنِسَ إِلَيْهِ الجَوادُ وَأَسْلَمَ إِلَيْهِ قِيادَهُ . وَقَطَفَ إِيادٌ مَزيداً مِنَ الثِّمارِ وَحَمَلَها إِلى الجَوادِ ، الَّذي أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَتَناوَلُ الثَّمَراتِ مِنْ كَفِّهِ دونَ تَرَدُّدٍ ، وَتَبِعَتْهُ في ذَلِكَ جِيادٌ أُخْرى .

وَبَعْدَ أَنِ اكْتَسَبَ إِيادٌ ثِقَةَ الجَوادِ امْتَطى صَهْوَتَهُ ، وَ واصَلَ سَيْرَهُ إِلى الأَمامِ ؛ عازِماً عَلى اكْتِشافِ الدَّرْبِ الَّذي سَلَكَتْهُ الخُيولُ ، حينَ حَمَلَها اليَمُّ إِلى السَّاحِلِ . وَبَعْدَ مَسافَةٍ أَخَذَتِ الأَشْجارُ تَتَكاثَفُ مِنْ جَديدٍ لِتَصْنَعَ جِداراً لا يَتَيَسَّرُ اخْتِراقُهُ ، لَوْلا فُرْجَةٌ لَمْ تَتَّضِحْ مَعالِمُها لإِيادٍ إِلَّا حينَ اقْتَرَبَ مِنْها .

وَأَدْرَكَ مِنْ صَوْتِ الأَمْواجِ الَّتي تَتَكَسَّرُ عَلى الصُّخورِ أَنَّ البَحْرَ عَلى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ وَراءَ تِلْكَ الأَشْجارِ المُتَشابِكَةِ . وَاخْتَرَقَ إِيادٌ وَجَوادُهُ تِلْكَ الفُرْجَةَ الضَّيِّقَةَ ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَجَدَ مِياهَ البَحْرِ الزَّرْقاءَ تَمْتَدُّ أَمامَهُ . وَرَكَضَ إِيادٌ بِجَوادِهِ عَلى الشَّاطِئِ قاصِداً كوخَهُ ، الَّذي ما إِنْ بَلَغَهُ حَتَّى وَضَعَ لِلْجَوادِ حَفْنَةً مِنَ الشَّعيرِ في قَصْعَةٍ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ كانَ أَطْيَبَ ما ذاقَهُ الجَوادُ مُنْذُ جاءَتْ بِهِ الأَمْواجُ إِلى تِلْكَ الجَزيرَةِ .

الفصل الثالث عشر

أَجَمَةُ النُّمورِ

أَصْبَحَ يَسيراً عَلى إِيادٍ أَنْ يَنْفُذَ إِلى الغَديرِ مِنْ ذَلِكَ المَوْضِعِ القَريبِ الَّذي اهْتَدَتْ إِلَيْهِ الجِيادُ ؛ فَجَعَلَ يَذْهَبُ لِيَسْتَقِيَ لِنَفْسِهِ وَلِيَدَعَ جَوادَهُ يَشْرَبُ وَيَرْعى الكَلأَ . وَرُبَّما حَمَلَ غِرارَةً مِنَ الشَّعيرِ فَأَطْعَمَ مِنْها تِلْكَ الجِيادَ اكْتِساباً لِثِقَتِها ، وَغَرَسَ بَعْضَهُ لَعَلَّهُ يَنْبُتُ فَتَأْكُلَ مِنْهُ الجِيادُ . وَعادَتِ الجِيادُ تَأْلَفُهُ وَتُقْبِلُ عَلَيْهِ ، وَما عادَتْ تَجْفِلُ مِنْهُ .

وَكانَ إِيادٌ يَعودُ إِلى الوادي فَيَمْلأُ جَرَّةَ الماءِ وَيَحْمِلُها إِلى الكوخِ ، ثُمَّ يَرْكُضُ بِجَوادِهِ لِلتَّرَيُّضِ وَاسْتِكْشافِ مَجاهِلِ الجَزيرَةِ، الَّتي لَمْ يَكُنْ لِيَسْتَطيعَ الوُصولَ إِلَيْها سَيْراً عَلى قَدَمَيْهِ .

وَاكْتَشَفَ إِيادٌ – مُصادَفَةً – الأَجَمَةَ الكَثيفَةَ الَّتي تَأْوي إِلَيْها نُمورُ الجَزيرَةِ ؛ فَفي إِحْدى جَوْلاتِهِ اخْتَرَقَ دَرْباً لَمْ يَسْلُكْهُ مِنْ قَبْلُ ،

في الجِهَةِ الأُخْرى مِنَ الجزيرَةِ ، وَلاحَظَ حَمْحَمَةَ جَوادِهِ وَامْتِناعَهُ عَنِ السَّيْرِ ؛ فَتَرَجَّلَ لِيَتَحَرّى الأَمْرَ ، وَاقْتادَهُ مِنْ لِجامِهِ ، خافِضاً رَأسَهُ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ تَجَنُّباً لِلأَغْصانِ الشّائِكَةِ . وَما لَبِثَ إِيادٌ أَنْ وَجَدَ ثَلاثَةَ نُمورٍ صَغيرَةٍ لا يَزيدُ عُمْرُها عَلى الشَّهْرِ ، وَهِيَ تَتَلَهّى بِاللَّعِبِ ، فَكانَ مَنْظَرُها مُسَلِّياً وَطَريفاً .

وَجَمَدَ إِيادٌ في مَكانِهِ حَتّى لا يُزْعِجَها ، وَظَلَّ يُتابِعُ ما تَأْتي بِهِ مِنْ حَرَكاتٍ . وَأَحَسَّتْ تِلْكَ النُّمورُ بِوُجودِهِ ؛ فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ بِدافِعِ الفُضولِ وَكَأَنَّها تَدْعوهُ لِمُشارَكَتِها اللَّعِبَ . وَداعَبَها إِيادٌ قَليلاً ، ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ أَدْرَكَ خَطَرَ المُكوثِ في ذَلِكَ المَكانِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ النَّمِرَةَ الأُمَّ – مَتى عادَتْ إِلى عَرينِها – تُصْبِحُ أَشْرَسَ ما تَكونُ إِنْ وَجَدَتْ مَخْلوقاً بِالقُرْبِ مِنْ صِغارِها ، مَهْما كانَتْ مَقاصِدُهُ .

وَرَأى إِيادٌ أَنَّ الحِكْمَةَ تَقْتَضي مُغادَرَةَ المَكانِ فَوْراً ، حَتّى وَإِنْ كانَ يَحْمِلُ سِلاحَهُ ، وَيَسْتَطيعُ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَتْلَ النَّمِرَةِ مَتى هاجَمَتْهُ ؛ فَما كانَ يُجْديهِ قَتْلُ نَمِرَةٍ تُدافِعُ عَنْ صِغارِها ، وَأَنّى يَكونُ لِتِلْكَ الصِّغارِ البَقاءُ إِنْ هُوَ قَتَلَ أُمَّها ؟

وَقَفَلَ إِيادٌ راجِعاً مِنْ حَيْثُ جاءَ ؛ لِيَسْتَأْنِفَ اسْتِكْشافَ ساحِلِ الجَزيرَةِ وَمَواقِعِ الجُزُرِ القَريبَةِ مِنْها . وَبَعْدَ أَنْ أَمْضى وَقْتاً يَفْعَلُ ذَلِكَ

عادَ يَسْتَكْمِلُ بِناءَ قارِبِهِ ، ثُمَّ أَلْقى بِنَفْسِهِ إلى الماءِ لِيَسْبَحَ مَعَ صَديقَيْهِ البَحْرِيَّيْنِ .

وَدَأَبَ إِيادٌ أَنْ يَنْطَلِقَ كُلَّ يَوْمٍ عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ ، فَيَرْكُضَ مُخْتَرِقًا السَّهْلَ الَّذي تَأْوي إِلَيْهِ الجِيادُ ، وَيَتَرَجَّلَ لِيَشْرَبَ مِنْ ماءِ الغَديرِ ، وَيَمْلأَ جَرَّتَهُ ثُمَّ يَسْقِيَ جَوادَهُ الَّذي يَرْعى الكَلأَ قَبْلَ أَنْ يَعودَ إلى الكوخِ . وَما عادَتِ الخُيولُ يُفْزِعُها قُدومُهُ ، بَلْ تَجاسَرَتْ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ ؛ طَمَعًا في أَنْ تَتَناوَلَ مِنْ كَفِّهِ حَفْنَةً مِنْ شَعيرٍ أَوْ بَعْضَ الفَواكِهِ البَرِّيَّةِ .

الفصل الرابع عشر

القُرْبانُ البَشَريّ

كانَ العُثورُ على الجِيادِ وَاقْتِناءُ أحَدِها نِعْمَةً كُبْرى لإيادٍ ؛ فَقَدْ أصْبَحَ مِنَ اليَسيرِ عَلَيْهِ أنْ يَنْطَلِقَ إلى مَسافاتٍ بَعيدَةٍ لاسْتِكْشافِ مَجاهِلِ الجَزيرَةِ ، وَخاصَّةً في النَّاحِيَةِ المُقابِلَةِ مِنْها . وَقَدْ خَرَجَ بِجَوادِهِ ذاتَ صَباحٍ لِلتَّرَيُّضِ وَالاسْتِكْشافِ في تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَقَبْلَ أنْ يَنْقَلِبَ راجِعاً إلى كوخِهِ لَمَحَ عَنْ بُعْدٍ فَوْقَ مِياهِ البَحْرِ عِدَّةَ قَوارِبَ تَتَّجِهُ إلى السَّاحِلِ ؛ فَكادَ قَلْبُهُ يَطيرُ فَرَحاً بِقُرْبِ نَجاتِهِ .

وَما لَبِثَتِ القَوارِبُ أنْ رَسَتْ عَلى الشَّاطِئِ ، وَنَزَلَ مِنْها رِجالٌ في البُقْعَةِ المُواجِهَةِ لأجَمَةِ النُّمورِ . وَأوْشَكَ إيادٌ أنْ يَصيحَ في الرِّجالِ مُحَذِّراً إيَّاهُمْ مِنَ الخَطَرِ الَّذي يَتَهَدَّدُهُمْ ، لَوْلا أنْ لَمَحَ بَيْنَهُمْ صَبِيَّيْنِ مُكَبَّلَيْنِ بِالأغْلالِ يَبْكِيانِ ، وَالرِّجالُ يَدْفَعونَهُما بِغِلْظَةٍ جَعَلَتْ إياداً يَشْعُرُ بِالغَضَبِ مِنْهُمْ وَالارْتِيابِ في شَأْنِهِمْ ، فاخْتَبَأَ هُوَ وَجَوادُهُ



خَلْفَ صَخْرَةٍ يَرْقُبُ الأَمْرَ ، فَوَجَدَ بَعْضَ الرِّجالِ يَدُقُّونَ في الأَرْضِ أَوْتاداً شَدّوا إِلَيْها الصَّبِيَّيْنِ ، ثُمَّ عادوا إِلى قَوارِبِهِمْ وَمَكَثوا فيها وَكَأَنَّهُمْ يَرْتَقِبونَ شَيْئاً .

وَلَمْ يَطُلْ بِإِيادٍ الوَقْتُ لِيَعْلَمَ ما يَرْمي إِلَيْهِ أُولَئِكَ الرِّجالُ ، فَقَدِ اجْتَذَبَ صُراخُ الصَّبِيَّيْنِ النَّمِرَةَ الَّتي في الأَجَمَةِ ، فَبَرَزَتْ مِنْها تَسْتَطْلِعُ مَكانَ الفَريسَةِ ، وَتَأَهَّبَتْ لِلانْقِضاضِ عَلى الصَّبِيَّيْنِ . وَكانَ إِيادٌ قَدْ شَدَّ سَهْماً في قَوْسِهِ ، فَأَطْلَقَهُ لِيُصيبَ النَّمِرَةَ وَهِيَ تَثِبُ في

الهَواءِ ؛ فَانْطَرَحَتْ مُجَنْدَلَةً على قِيدِ خُطُواتٍ مِنَ الصَّبِيَّيْنِ .

وَانْطَلَقَ إيادٌ بِجَوادِهِ صَوْبَهُما في سُرْعَةِ البَرْقِ ، فَقَطَعَ الحِبالَ الَّتي تَشُدُّهُما إلى الأَوْتادِ ، وَحَمَلَهُما فَوْقَ جَوادِهِ لِيَنْطَلِقَ عائِداً إلى كوخِهِ . وَأَلْجَمَتِ الدَّهْشَةُ الرِّجالَ القابِعينَ في القَوارِبِ ؛ فَمَكَثوا هُنَيْهَةً لا يَسْتَوْعِبونَ ما حَدَثَ ، وَقَدْ راعَهُمْ مَصْرَعُ النَّمِرَةِ ، الَّتي بَدا لإيادٍ أَنَّهُمْ كانوا يُقَدِّسونَها وَيُقَدِّمونَ لَها القَرابينَ . وَزادَ ارْتِباكُهُمْ لَمَّا رَأَوُا الجَوادَ وَراكِبَهُ ، فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ هِيَ المَرَّةَ الأولى الَّتي يُشاهِدونَ فيها حَيَواناً مِنْ هَذا القَبيلِ .

وَلَمَّا ذَهَبَ الرَّوْعُ عَنْ أولئِكَ الرِّجالِ كانَ إيادٌ قَدِ ابْتَعَدَ مَسافَةً كافِيَةً ، فَعَمَدوا إلى قَوارِبِهِمْ فَأَنْزَلوها إلى الماءِ ، وَطَفِقوا يُجَدِّفونَ بِقُوَّةٍ يُريدونَ اللَّحاقَ بِهِ وَاسْتِرْدادَ الصَّبِيَّيْنِ . وَعِنْدَما وَصَلوا إلى البُقْعَةِ المُقابِلَةِ لِلْكوخِ كانَ إيادٌ قَدْ سَبَقَهُمْ فَأَنْزَلَ الصَّبِيَّيْنِ وَهُما يَرْتَجِفانِ رُعْباً .

وَجَهَّزَ إيادٌ بَعْضَ المَجانيقِ بِقُدورِ النِّفْطِ ، وَحَشاها بِالبارودِ وَأَغْصانِ الشَّجَرِ الجافَّةِ ، وَاسْتَعَدَّ لِمُلاقاةِ المُهاجِمينَ . وَما إِنْ رَسَتْ قَوارِبُهُمْ حَتَّى أَشْعَلَ إيادٌ النَّارَ في أَغْصانِ الشَّجَرِ ، وَقَطَعَ الحِبالَ الَّتي تَشُدُّ كِفافَ المَجانيقِ إلى الأَرْضِ ؛ فَتَساقَطَتِ القُدورُ بِما فيها

مِنْ أغْصانٍ مُشْتَعِلَةٍ وَبارودٍ وَنِفْطٍ عَلى القَوارِبِ ؛ فَأَصابَتْ بَعْضَها مُحْدِثَةً دَوِيًّا هائِلاً وَأَضْرَمَتِ النّارَ فيها ، مِمّا أَوْقَعَ الرُّعْبَ في نُفوسِ المُهاجِمينَ ؛ فَتَدافَعوا إلى القَوارِبِ الأُخْرى يَرْكَبونَها ، وَانْطَلَقوا بِها وَهُمْ يُقْسِمونَ بِأَغْلَظِ الأَيْمانِ أَنَّ الجَزيرَةَ تَسْكُنُها أَرْواحٌ شِرِّيرَةٌ .

الفصل الخامس عشر

الغُزاةُ وَالمَلِكُ الغاصِبُ

كانَ الصَّبِيَّانِ يُتابِعانِ ما يَفْعَلُهُ إِيادُ وَهُما يَرْتَجِفانِ فَرَقًا . وَما إِنِ اطْمَأَنَّ إِيادُ إِلى ابْتِعادِ المُهاجِمينَ حَتَّى رَجَعَ إِلى الصَّبِيَّيْنِ يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِما ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِما ماءً فَشَرِبا ، وَهُما لا يَكُفَّانِ عَنِ النَّحيبِ وَالبُكاءِ .

وَلَمْ يَذْهَبْ ظَنُّ إِيادٍ بَعيدًا هَذِهِ المَرَّةَ أَيْضًا ، فَما إِنْ أَخْلَدَ الصَّبِيَّانِ إِلى النَّوْمِ – وَكانا صَبِيًا في الحادِيَةَ عَشْرَةَ أَوْ نَحْوِها ، وَصَبِيَّةً في الثَّامِنَةِ أَوِ التَّاسِعَةِ مِنَ العُمُرِ – حَتَّى أَلْقى عَلَيْهِما دِثارًا مِمَّا انْتَشَلَهُ مِنَ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، وَخَرَجَ حامِلاً شِصَّهُ وَسِلاحَهُ ، وَأَوْصَدَ بابَ السِّياجِ المُحيطِ بِكوخِهِ، مُيَمِّمًا شَطْرَ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ ؛ لِيَصْطادَ بَعْضَ السَّمَكِ لِضَيفَيْهِ ، وَيَرْقُبَ البَحْرَ لِيَرى إِنْ كانَ هُناكَ مَنْ يُدَبِّرُ مُهاجَمَةَ الكوخِ مَرَّةً أُخْرى .

وَاسْتَقْبَلَهُ صَديقاهُ البَحْرِيَّيْنِ بِابْتِهاجٍ ، فَجَعَلا يَقْفِزانِ مِنَ الماءِ

ثُمَّ يَغوصانِ فيهِ كالعادَةِ ، وَأَطْعَمَهُما إيادٌ أَوَّلَ صَيْدِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الصَّيْدَ لإطْعامِ ضَيْفَيْهِ الصَّغيرَيْنِ .

وَفيما هُوَ يَهُمُّ بِالعَوْدَةِ خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ هُناكَ مَنْ يُراقِبُهُ خُلْسَةً ؛ فَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ ما يَريبُهُ، وَنَهَضَ واقِفًا ثُمَّ هَبَطَ مِنْ فَوْقِ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ ، وَقَفَلَ راجِعًا مِنْ طَريقٍ غَيْرِ طَريقِهِ المُعْتادَةِ ؛ لِيُضَلِّلَ مَنْ يَتْبَعُهُ . وَ وَجَدَ إيادٌ دَغَلاً وراءَ رَبْوَةٍ فاخْتَبَأَ فيهِ ، وَتَهَيَّأَ لِلانْقِضاضِ عَلى مَنْ يَتْبَعُهُ . وَبَعْدَ لَحَظاتٍ لَمَحَ شَخْصًا يَهْبِطُ مِنْ فَوْقِ الرَّبْوَةِ وَيَمُرُّ بِمُحاذاةِ الدَّغَلِ ؛ فَانْقَضَّ عَلَيْهِ إيادٌ وَكَمَّمَهُ حَتَّى لا يَنْبُو عَنْهُ صَوْتٌ فَيَسْمَعَهُ مَنْ وَراءَهُ . وَشَلَّ حَرَكَتَهُ بِأَنْ أَمْسَكَ ذِراعَيْهِ بِقُوَّةٍ ، وَجَذَبَهُ داخِلَ الدَّغَلِ حَتَّى لا يَكْتَشِفَ الآخَرونَ مَكانَهُ . وَلَمْ يُبْدِ الرَّجُلُ مُقاوَمَةً تُذْكَرُ مِمَّا كانَ مَدْعاةً لِدَهْشَةِ إيادٍ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُفارِقْهُ حَذَرُهُ .

وَشَدَّ إيادٌ وِثاقَ الرَّجُلِ وَ وَضَعَ عِمامَةً عَلى عَيْنَيْهِ حَتَّى لا يَعْرِفَ الطَّريقَ إِلى الكوخِ . وَتَرَيَّثَ هُنَيْهَةً لِيَتَأَكَّدَ مِنْ خُلُوِّ الطَّريقِ ، ثُمَّ اقْتادَ الرَّجُلَ إِلى الكوخِ . وَكانَ إيادٌ كُلَّما قَطَعَ مَسافَةً تَوَقَّفَ وَأَوْقَفَ أَسيرَهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ أَحَدًا لا يَتْبَعُهُ . وَلَمَّا بَلَغا ساحَةَ الكوخِ أَجْلَسَ إيادٌ الرَّجُلَ عَلى الأَرْضِ وَنَزَعَ العِمامَةَ عَنْ عَيْنَيْهِ .

وَكانَ الصَّبِيّانِ قَدْ أَيْقَظَتْهُما الحَرَكَةُ فَجَلَسا مُنْكَمِشَيْنِ . وَما إِنْ

نُزِعَتِ الغِمامَةُ عَنْ عَيْنَي ِ الأسيرِ حَتَّى نَدَّتْ عَنْهُما صَيْحَةُ فَرَحٍ ، وَهَبَّا يَرْكُضانِ نَحْوَهُ وَيُحيطانِهِ بِأَذْرُعِهِما ؛ فَبادَرَ إيادٌ بِحَلِّ وِثاقِ الرَّجُلِ ، وَقَدْ أيْقَنَ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَبْغي شَرًّا . وَما إنْ تَحَرَّرَ الرَّجُلُ مِنْ وِثاقِهِ حَتَّى أَلْقى بِنَفْسِهِ عِنْدَ قَدَمَيْ إيادٍ وَالعَبَراتُ تَكادُ تَخْنُقُهُ ، فَأَنْهَضَهُ إيادٌ وَسَقاهُ بَعْضَ الماءِ .

بَدا جَلِيًّا لإيادٍ أنَّ الرَّجُلَ إمَّا قَريبٌ لِلصَّبِيَّيْنِ ، وَإمَّا مُرَبٍّ لَهُما ؛ فَثِيابُهُ لَمْ تَكُنْ مُطَرَّزَةً بِالقَصَبِ أوْ مُرَصَّعَةً بِالجَواهِرِ مِثْلَ ثِيابِهِما ، وَلكِنَّهُما كانا يُعامِلانِهِ بِحُبٍّ وَاحْتِرامٍ يَنِمُّ عَنْ مَنْزِلَتِهِ مِنْهُما .



وَأسْرَعَ الرَّجُلُ يُنَظِّفُ السَّمَكَ وَيَشْويهِ ، وَناوَلَ بَعْضاً مِنْهُ لِلصَّبِيَّيْنِ وَلإيادٍ ؛ فاسْتَدَلَّ إيادٌ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ وَصيفاً لِلصَّبِيَّيْنِ . وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقُصُّ عَلى إيادٍ ما حَدَثَ ، بِلُغَتِهِ حيناً وَبالإشارَةِ أَحْياناً . وَفَهِمَ إيادٌ أَنَّ الصَّبِيَّيْنِ أميرانِ وَأَباهُما مَلِكٌ يَحْكُمُ مَمْلَكَةً مُجاوِرَةً ، وَقَدْ غَزا المَمْلَكَةَ أَعْداءٌ لِلْمَلِكِ الَّذي أُصيبَ بِجِراحٍ بالِغَةٍ ، وَشاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ قُتِلَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ ، وَإِنْ يَكُنْ قَدْ نَجا وَاخْتَبَأَ عِنْدَ بَعْضِ أَتْباعِهِ . وَقَبَضَ الغُزاةُ عَلى هَذَيْنِ الأميرَيْنِ اللَّذَيْنِ كانا يَتَرَيَّضانِ في بَساتينِ القَصْرِ ساعَةَ الغَزْوِ . وَنَصَّبَ الغُزاةُ عَميلاً لَهُمْ عَلى عَرْشِ المَمْلَكَةِ ؛ فَأَرادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الأميرَيْنِ بِتَقْديمِهِما قُرْباناً لِنُمورِ هَذِهِ الجَزيرَةِ .

وَعَلِمَ إيادٌ مِنَ الوَصيفِ أَنَّهُ رَكِبَ قارِبَ صَيْدٍ وَتَبِعَ القَوارِبَ الَّتي جاءَتْ إِلى الجَزيرَةِ في الصَّباحِ ؛ وَاخْتَبَأَ بِحَيْثُ لا يَراهُ الآخَرونَ . وَكانَ يُريدُ أَنْ تَسْنَحَ لَهُ الفُرْصَةُ لإنْقاذِ الصَّبِيَّيْنِ ، مَتى انْصَرَفَ القَوْمُ قَبْلَ أَنْ تَبْرُزَ النَّمِرَةُ لافْتِراسِهِما ، وَلَكِنَّ الأُمورَ سارَتْ عَلى نَحْوٍ مُخْتَلِفٍ .

وَتَأَثَّرَ إيادٌ مِمَّا قَصَّهُ الرَّجُلُ ، وَاجْتَهَدَ أَنْ يُسَرِّيَ عَنِ الصَّبِيَّيْنِ ما اسْتَطاعَ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً ؛ فَأَخْرَجَ لَهُما التُّحَفَ الَّتي كانَتْ في صُنْدوقِ مَتاعِهِ ، فَاسْتَهْوَتْهُما وَطَفِقا يَلْعَبانِ بِها وَقَدْ ذَهَبَ عَنْهُما

الرَّوْعُ . وَكانَ أكْثَرَ ما اسْتأثَرَ بِاهْتِمامِهِما ساعَةُ إِيادٍ الدَّقّاقَةُ ، فَقَدْ ظَنّا أنَّها مِنْ أعْمالِ السِّحْرِ . وَسَرَّ إِياداً ما رَآهُ مِن اطْمِئْنانِهِما وَانْصِرافِهِما إِلى اللَّعِبِ ، فَقامَ إِلى صَلاتِهِ فَأدّاها ، وَالوَصيفُ يَرْقُبُهُ في سُجودِهِ وَرُكوعِهِ وَتِلاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ ، دونَ أنْ يَرى أمامَهُ صَنَماً يَتَعَبَّدُ لَهُ ؛ فَأخَذَهُ العَجَبُ مِنْ ذَلِكَ .

وَبَعْدَ أنْ فَرَغَ إِيادٌ مِنْ صَلاتِهِ دَنا مِنْهُ الوَصيفُ يَسْألُهُ عَمّا كانَ يَصْنَعُ . وَجاهَدَ إِيادٌ لِيَشْرَحَ لَهُ أنَّهُ يَتَعَبَّدُ للهِ الواحِدِ القَهّارِ ، الَّذي يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، وَيُرْسِلُ الرِّياحَ وَالعَواصِفَ ، وَأنَّهُ لا يَعْبُدُ صَنَماً يُكْسَرُ أوْ وَحْشاً يُقْتَلُ أوْ إِنْساناً فانِياً .

وَأخْرَجَ إِيادٌ لَوْحاً وَقَلَماً مِنْ صُنْدوقِ مَتاعِهِ وَكَتَبَ ما تَيَسَّرَ مِنْ آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ ، وَتَلاها عَلى الرَّجُلِ لِيُعَرِّفَهُ بِالكِتابِ الَّذي يُؤْمِنُ بِهِ . وَجَعَلَ الرَّجُلُ يُقَلِّدُ تِلاوَةَ إِيادٍ ، وَأرادَ أنْ يَكْتُبَ طَريقَةَ نُطْقِها في اللَّوْحِ بِحُروفِ لُغَتِهِ . وَلَمْ يَكْتَفِ الوَصيفُ بِذَلِكَ بَلْ جَعَلَ يَسْألُ عَنْ أسْماءِ بَعْضِ الأشْياءِ المُحيطَةِ بِهِ ، وَيُشيرُ إِلَيْها ، وَإِيادٌ يُعَلِّمُهُ مَعْناها وَيَنْطِقُها أمامَهُ، وَالوَصيفُ يُدَوِّنُ ما يَتَعَلَّمُهُ في اللَّوْحِ .

وَفي اليَوْمِ التّالي صَنَعَ الرَّجُلُ ما صَنَعَهُ في اليَوْمِ السّابِقِ حينَ قامَ إِيادٌ لِصَلاتِهِ ، وَاسْتَعانَ إِيادٌ بِالصَّبْرِ لِيُفْهِمَهُ ما شَقَّ عَلَيْهِ فَهْمُهُ .

وَعِنْدَما حانَتْ صَلاةُ العَصْرِ سَأَلَ الوَصيفُ إياداً عَمَّا يَنْبَغي أَنْ يَفْعَلَهُ لِكَيْ يُصَلِّيَ مِثْلَ صَلاتِهِ ، فَلَقَّنَهُ النُّطْقَ بِالشَّهادَتَيْنِ وَعَلَّمَهُ كَيْفِيَّةَ التَّطَهُّرِ . وَأَسْرَعَ الوَصيفُ يَفْعَلُ ما عَلَّمَهُ إيادٌ ، وَصَلَّى مَعَهُ .

وَلَفَتَ هَذا نَظَرَ الصَّبِيَّيْنِ فَتَوَقَّفا عَنِ اللَّعِبِ لِيُتابِعا ما يَفْعَلُهُ وَصيفُهُما . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ إيادٌ مِنْ صَلاتِهِ انْطَلَقَ إلى اللِّسانِ كَعادَتِهِ لِيَصْطادَ السَّمَكَ وَيُداعِبَ صَديقَيْهِ البَحْرِيَّيْنِ . وَساوَرَهُ القَلَقُ مِنْ أَنْ تُطيلَ هَذِهِ الأُمورُ أَمَدَ بَقائِهِ في الجَزيرَةِ ، فَأَنَّى لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَجِدَ الوَقْتَ الكافِيَ لِمُباشَرَةِ العَمَلِ في بِناءِ قارِبِهِ ، بَعْدَ أَنْ أُلْقِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الأَعْباءُ الجَديدَةُ ؟ وَكَرِهَ الاسْتِرْسالَ في تِلْكَ الخَواطِرِ ، فَأَسْلَمَ الأَمْرَ لِلهِ راجِياً أَنْ يَكونَ الخَيْرُ فيما كَرِهَهُ .

وَبَلَغَ إيادٌ حافَةَ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ ، فَجَلَسَ وَأَلْقى بِشِصِّهِ في الماءِ ، وَجَعَلَ أَوَّلَ صَيْدِهِ لِلدُّلْفينَيْنِ ، فَناداهُما وَأَقْبَلا عَلَيْهِ ، فَأَلْقى إِلَيْهِما ما اصْطادَهُ ، وَداعَبَهُما قَليلاً .

وَعِنْدَما هَمَّ بِإِلْقاءِ خَيْطِ الشِّصِّ مَرَّةً أُخْرى وَجَدَ الصَّبِيَّيْنِ يُقْبِلانِ نَحْوَهُ وَالوَصيفَ في أَثَرِهِما ، حَتَّى بَلَغا حافَةَ اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ ، فَجَلَسا إلى جِوارِهِ وَالوَصيفُ واقِفٌ . وَدَعاهُ إيادٌ لِلْجُلوسِ فَجَلَسَ مُتَرَدِّداً ، وَسَأَلَهُ إيادٌ عَمَّا جاءَ بِهِمْ مَعَ احْتِمالِ تَعَرُّضِهِمْ لِلْخَطَرِ مَتى رَآهُمْ جَواسيسُ المَلِكِ الغاضِبِ . وَأَخْبَرَهُ الوَصيفُ أَنَّ الصَّبِيَّيْنِ

سَألاهُ عَنْ صَلاتِهِ الَّتي كانَ يُصَلِّيها ؛ فَأَخْبَرَهُما بِأَمْرِ هَذا الدِّينِ كَما عَلَّمَهُ إِيّاهُ ؛ فَأَعْجَبَهُما الدُّخولُ فيهِ ، وَذَكَرا لَهُ ذَلِكَ فَشَرَحَ لَهُما ما يَنْبَغي عَمَلُهُ لِكَيْ يَدْخُلا في هَذا الدِّينِ ، وَلَمْ يُطيقا صَبْراً حَتَّى يَرْجِعَ إِيادٌ إِلَيْهِما ، بَلْ عَجَّلا إِلَيْهِ لِيُعَلِّمَهُما ما يَفْعَلانِهِ .

وَسَأَلَهُ إِيادٌ عَنْ سَبَبِ تَرَدُّدِهِ لَمَّا دَعاهُ لِلْجُلوسِ ؛ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ مِنْ طَبَقَةٍ دونَ طَبَقَةِ أَبْناءِ الْمُلوكِ ، فَلا يَحِقُّ لَهُ الجُلوسُ في حَضْرَةِ الأَميرَيْنِ ؛ فَعَرَّفَهُ إِيادٌ أَنَّ الدِّينَ الَّذي يُؤْمِنُ بِهِ يُسَوّي بَيْنَ النَّاسِ ، فَلا يَكونُ لأَحَدٍ فَضْلٌ عَلى الآخَرِ إِلّا بِالتَّقْوى ، وَأَنَّ الواجِبَ يَقْتَضي أَنْ يَعْلَمَ الصَّبِيّانِ ذَلِكَ لِيَكونا عَلى بَيِّنَةٍ مِنَ الأَمْرِ قَبْلَ الدُّخولِ في هَذا الدِّينِ . وَأَخْبَرَهُما الوَصيفُ بِذَلِكَ فَلَمْ يَرْجِعا عَمّا اعْتَزَماهُ . وَلَمْ يَحِنْ وَقْتُ صَلاةِ المَغْرِبِ إِلّا كانَ الْمُصَلّونَ بِهَذِهِ الجَزيرَةِ أَرْبَعَةً .

وَجَعَلَ إِيادٌ مِنْ نَفْسِهِ مُعَلِّماً لِهَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ ؛ فَتَسَلَّحَ بِالإِخْلاصِ وَالْمُثابَرَةِ ، وَطَفِقَ يُعَلِّمُهُمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ وَتِلاوَةَ القُرْآنِ ، وَيُفَقِّهُهُمْ في أُمورِ الدِّينِ . وَ وَجَدَ مِنْهُمْ شَغَفاً بِالتَّعَلُّمِ حَتَّى أَصْبَحوا يَتَخاطَبونَ بِعِباراتٍ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ في غُضونِ أَيّامٍ قَلائِلَ .

وَعَرَفَ إِيادٌ أَنَّ الأَميرَ يُدْعى أَلِنْتو وَتُدْعى أُخْتُهُ سامانغ ، وَأَنَّ مَمْلَكَةَ أَبيهِما تُعْرَفُ بِمِندناو ، وَهِيَ مِنْ كُبْرى جُزُرِ المِنْطَقَةِ المَعْروفَةِ

الآنَ بِاسْمِ الفِلبِّين . وَعَلِمَ مِنْهُما كَذَلِكَ أنَّ الشُّقَّةَ غَيْرُ بَعيدَةٍ بَيْنَ مندناو وَبَحْرِ الصِّينِ الجَنوبِيِّ ، الَّذي يَقَعُ إلى الشَّمالِ الغَرْبِيِّ مِنْ تِلْكَ الجَزيرَةِ ، فَكَبِرَ الأمَلُ في صَدْرِهِ بِأنْ يَتَيَسَّرَ لَهُ سَبيلُ الخُروجِ مِنَ الجَزيرَةِ وَالوُصولِ إلى بَحْرِ الصِّينِ .

وَأبْدى ألِنْتو رَغْبَةً في رُكوبِ فَرَسِ إيادٍ ، وَما لَبِثَتْ سامانغ أنْ تَجاسَرَتْ عَلى رُكوبِهِ بَعْدَما رَأتْ أخاها يَفْعَلُ ذَلِكَ . أمَّا الوَصيفُ فَاسْتَأذَنَ مِنَ الأميرَيْنِ وَمِنْ إيادٍ لِيَذْهَبَ إلى مندناو مُتَخَفِّيًا لِيَتَقَصَّى أخْبارَ أبَوَيْهِما ، وَيُحْضِرَ لَهُما ما يَلْزَمُهُما مِنْ ثِيابٍ ، فَأذِنوا لَهُ. وَانْصَرَفَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ مُتَّجِهًا إلى مندناو في القارِبِ الَّذي جاءَ بِهِ .

الفصل السادس عشر

مَزيدٌ مِنَ القَوارِبِ

مَضى قُرابَةُ أسْبوعٍ عَلى مُغادَرَةِ الوَصيفِ لِلْجَزيرَةِ ، وَإِيادٌ يَقومُ عَلى تَعْليمِ الصَّبِيَّيْنِ كُلَّما رَأى مِنْهُما إِقْبالاً عَلى التَّعَلُّمِ . فَإِذا انْصَرَفا إِلى اللَّعِبِ اسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ في بِناءِ القارِبِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِفَرَسِهِ إِلى وادي الجِيادِ لِجَلْبِ مَزيدٍ مِنَ الماءِ ، أَوْ جَلَسَ عَلى اللِّسانِ الصَّخْرِيِّ لِصَيْدِ السَّمَكِ وَمُداعَبَةِ صَديقَيْهِ البَحْرِيَّيْنِ ، وَمُراقَبَةِ الأُفُقِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُداهِمَ الجَزيرَةَ عَدُوٌّ ، أَوْ أَمَلاً في أَنْ يَهْتَدِيَ النَّاجونَ مِنَ السَّفينَةِ الغارِقَةِ إِلى الجَزيرَةِ .

وَزالَ غَضَبُ إِيادٍ مِمَّا فَعَلَهُ ابْنُ صَيْفورٍ عِنْدَما اسْتَأْثَرَ بِقارِبِ النَّجاةِ هُوَ وَابْنَتُهُ ، وَالْتَمَسَ لَهُ العُذْرَ في ذَلِكَ ، فَرُبَّما ما كانَ لِأَبٍ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ ما صَنَعَ لَوْ أَنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ مَكانَهُ وَرَأى مِنَ الخَطَرِ ما رَآهُ ؛ حِرْصاً عَلى حَياةِ ابْنَتِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلى حَياتِهِ .

وَلَمْ يَسْتَطِعْ – مَعَ ذَلِكَ – أنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَجُّبِ مِمَّا دعا ابْنَ صَيْفورٍ إلى تَرْكِ البَصْرَةِ على ما كانَ لَهُ فيها مِنْ تِجارَةٍ رائِجَةٍ . وَشَرَدَ خَيالُهُ بَعيداً إلى البَصْرَةِ وَشَوارِعِها وَأَسْواقِها وَمينائِها ، وَاشْتاقَ لِلأَصْحابِ وَمَراتِعِ الصِّبا ، وَتَذَكَّرَ كَمْ جَلَسَ في مينائِها يَرْنو بِبَصَرِهِ إلى السُّفُنِ المُغادِرَةِ ، وَيَحْلُمُ بِأَنْ تَحْمِلَهُ إحْداها . تُرى هَلْ تَحْمِلُ أَمْواجُ البَحْرِ سَفينَةً مِنْ تِلْكَ السُّفُنِ إلى جَزيرَتِهِ هَذِهِ ، أَمْ سَيَظَلُّ فيها حَتَّى يُوافِيَهُ الأَجَلُ ؟

وَراعَهُ ذَلِكَ الخاطِرُ فَتَوَقَّفَ تَفْكيرُهُ لَحَظاتٍ حَتَّى لَكَأَنَّ القَوارِبَ الَّتي ظَهَرَتْ في الأُفُقِ البَعيدِ ، وَجَعَلَتْ تَتَّجِهُ إلى الشّاطِئِ ، لَمْ تَكُنْ سِوى خَيالاتٍ وَأَوْهامٍ أَوْ أَضْغاثِ أَحْلامٍ .

فَرَكَ إيادٌ عَيْنَيْهِ وَتَطَلَّعَ إلى الأُفُقِ مِنْ جَديدٍ ، فَتَأَكَّدَ مِنْ وُجودِ قَوارِبَ تَتَّجِهُ إلى ساحِلِ الجَزيرَةِ ، وَلَمْ يَدْرِ أَ يَفْرَحُ لِهَذا أَمْ يَتَوَجَّسُ شَرًّا ؟ وَرَأى إيادٌ أَنَّ الحَذَرَ أَلْزَمُ ؛ فَكَمَنَ في مَوْضِعٍ يُتيحُ لَهُ رُؤْيَةَ القَوارِبِ وَهِيَ تَرْسو دونَ أَنْ يَراهُ أَحَدٌ ، وَفي نِيَّتِهِ ، إذا بَصُرَ بِما يَريبُهُ ، أَنْ يُهْرَعَ إلى الكوخِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ المُهاجِمونَ ، فَيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ وابِلاً مِنْ نيرانِ المَجانيقِ .

وَرَسَتِ القَوارِبُ وَكانَتْ ثَلاثَةً ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُ إيادٍ إلّا بَعْدَ أَنْ

مَيَّزَ وَجْهَ الوَصيفِ بَيْنَ مَنْ وَصَلوا مِنَ الرِّجالِ ، وَكانوا أحَدَ عَشَرَ رَجُلاً . وَقَدْ بَدا عَلَيْهِمْ أنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أنْ يَكونَ أحَدٌ قَدْ تَبِعَهُمْ ، فَإنَّهُمْ لَمَّا نَزَلوا إلى البَرِّ لَمْ يَشْرَعوا في السَّيْرِ صَوْبَ الكوخِ ، بَلْ تَرَيَّثوا وَهُمْ يَتَلَفَّتونَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، ثُمَّ مَسَحوا الأُفُقَ بِأبْصارِهِمْ ، وَقَبَعوا هُنَيْهَةً بِجانِبِ القَوارِبِ حَتَّى أمَرَهُمُ الوَصيفُ بِالنُّهوضِ فَنَهَضوا . وَعِنْدَئِذٍ بَرَزَ إلَيْهِمْ إيادٌ مِنْ مَكْمَنِهِ وَنادى الوَصيفَ فَأقْبَلَ عَلَيْهِ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ .

وَعَلِمَ إيادٌ مِنَ الوَصيفِ وَهُمْ في الطَّريقِ إلى الكوخِ أنَّ أولَئِكَ الرِّجالَ مِنْ أتْباعِ المَلِكِ المُخْلِصينَ ، وَقَدِ الْتَقاهُمُ الوَصيفُ سِرًّا عِنْدَ وُصولِهِ إلى مندناو ، فَصَحِبوهُ إلى مَخْبَإِ المَلِكِ . وَقَصَّ الوَصيفُ عَلى المَلِكِ ما حَدَثَ لِلأميرَيْنِ ، وَأبْلَغَهُ بِدُخولِهِ في هَذا الدِّينِ الجَديدِ . وَشَرَحَهُ لَهُ حينَ طَلَبَ المَلِكُ مِنْهُ ذَلِكَ ؛ فَشَرَحَ صَدْرُهُ لِلدُّخولِ فيهِ ، وَكَذَلِكَ الأتْباعُ .

وَقَدْ أذِنَ لَهُمُ المَلِكُ بِمُغادَرَةِ مندناو لِيَكونوا في خِدْمَةِ الأميرَيْنِ ، وَلِيَقوموا بِحِمايَتِهِما مَتى داهَمَ الغُزاةُ الجَزيرَةَ مَرَّةً أخْرى . وَعَلِمَ إيادٌ أنَّ المَلِكَ الشَّرْعِيَّ يُعيدُ بِناءَ جَيْشِهِ سِرًّا اسْتِعْداداً لِطَرْدِ الغُزاةِ .

وَلَمَّا وَصَلَ الجَميعُ إلى الكوخِ رَتَّبَ إيادٌ لِكُلٍّ مِنْهُمْ واجِباً يَعْمَلُهُ ؛ فَكَلَّفَ بَعْضَهُمْ بِبِناءِ مَزيدٍ مِنَ الأكْواخِ ، وَكَلَّفَ آخَرينَ

بِتَوْسيعِ السِّياجِ وَتَحْصينِهِ ، وَطَلَبَ مِنْ آخَرينَ جَمْعَ الشَّعيرِ وَطَحْنَهُ وَخَبْزَهُ ، كَما طَلَبَ مِنْ بَعْضِهِمْ صَيْدَ السَّمَكِ أَوْ حَمْلَ الماءِ في جِرارٍ مِنَ الغَديرِ الَّذي دَلَّهُمْ عَلى مَكانِهِ . وَ وَزَّعَ واجِباتِ الحِراسَةِ عَلى الجَميعِ حَتَّى لا يُؤْخَذوا عَلى غِرَّةٍ .

وَكانَ إِيادٌ – حينَ يَفْرَغُ الجَميعُ مِنْ واجِباتِهِمْ – يَدْعوهُمْ لِيُعَلِّمَهُمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ، وَيُفَقِّهَهُمْ في الدِّينِ ، وَيُحَفِّظَهُمُ القُرْآنَ . وَرَأى أَنْ يَسْتَعينَ بِبَعْضِهِمْ في بِناءِ سَفينَةٍ كَبيرَةٍ ؛ فَتَطَوَّعَ لِلْعَمَلِ مَعَهُ عَدَدٌ مِنْهُمْ لا بَأْسَ بِهِ . وَاسْتَطاعَ أَنْ يَبْنِيَ هَيْكَلَ السَّفينَةِ وَيَكْسُوَها بِالأَلْواحِ في مُدَّةٍ يَسيرَةٍ .

وَكانَ الوَصيفُ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الجَزيرَةِ وَمندناو لِيَحْمِلَ أَخْبارَ الأَميرَيْنِ إِلى أَبَوَيْهِما ، ثُمَّ يَعودُ إِلى الجَزيرَةِ . وَقَلَّما كانَ يَمْضي يَوْمٌ أَوْ يَوْمانِ دونَ أَنْ يَصِلَ قارِبٌ يَحْمِلُ فَوْجاً جَديداً مِنَ الفارِّينَ مِنْ بَطْشِ المَلِكِ الغاصِبِ ، أَوِ الرّاغِبينَ في اعْتِناقِ هَذا الدِّينِ الَّذي لَمْ يَعُدْ أَمْرُهُ خافِياً .

وَبِقَدْرِ ما انْشَرَحَ قَلْبُ إِيادٍ لِذَلِكَ بِقَدْرِ ما أَدْرَكَ جَسامَةَ الأَمْرِ ؛ فَقَدْ أَخَذَتِ الأَكْواخُ تَتَكاثَرُ لِتُصْبِحَ قَرْيَةً ، وَاقْتَضى الأَمْرُ تَوْسيعَ مُحيطِ السِّياجِ لِيَشْمَلَ تِلْكَ الأَكْواخَ كُلَّها . وَرَأى إِيادٌ أَنَّهُ لا بُدَّ

مِنْ مِرْقَبٍ كَالَّذي كانَ في أعْلى صاري السَّفينَةِ لِرَصْدِ الأُفُقِ . وَاخْتارَ لِذَلِكَ شَجَرَةً باسِقَةً داخِلَ السِّياجِ ، جَعَلَ فَوْقَها ذَلِكَ المِرْقَبَ ، وَ وَزَّعَ المَجانيقَ في اتِّجاهاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَدَرَّبَ بَعْضَ اللّائِذينَ بِالجَزيرَةِ عَلى كَيْفِيَّةِ اسْتِخْدامِها .

وَلَمّا أصْبَحَ عَدَدُ اللّائِذينَ بِالجَزيرَةِ مِنْ أتْباعِ الدِّينِ الجَديدِ يَكْفي لإقامَةِ صَلَواتِ الجُمَعِ وَالأعْيادِ ، عَمَدَ بِمُعاوَنَتِهِمْ إلى بِناءِ مَسْجِدٍ في ساحَةِ القَرْيَةِ . وَأخَذَتْ أفْواجُ اللّاجِئينَ تَتَدَفَّقُ عَلى الجَزيرَةِ وَإنْ لَمْ يَكونوا كُلُّهُمْ سَواءً مِنْ حَيْثُ صَلابَةُ العَزيمَةِ ؛ فَاشْتاقَ بَعْضُهُمْ إلى حَياةِ الدَّعَةِ وَاللّينِ ، وَلَمْ يُطِقْ صَبْراً عَلى شَظَفِ الحَياةِ في الجَزيرَةِ ؛ فَعادَ مِنْ حَيْثُ أتى . وَزادَ هَذا مِنْ قَلَقِ إيادٍ ، فَقَدْ عَلِمَ أنَّ المَلِكَ الغاصِبَ لَنْ يَلْبَثَ أنْ يُداهِمَ الجَزيرَةَ بِجَيْشِهِ ؛ لِلْقَضاءِ عَلى خَطَرِ الهارِبينَ إلَيْها قَبْلَ أنْ يَسْتَفْحِلَ . وَرَأى إيادٌ وَكَأنَّهُ تَوَرَّطَ في أمْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلى بالٍ ، وَإنْ شَعَرَ – مَعَ ذَلِكَ – بِأنَّ عَلَيْهِ واجِباً لا مَهْرَبَ مِنْهُ تُجاهَ إخْوانِهِ في الدِّينِ .

وَرَأى إيادٌ أنْ يَسْتَفيدَ مِمّا تَجَمَّعَ عَلى ساحِلِ الجَزيرَةِ مِنَ القَوارِبِ ، وَكانَ قَدْ أوْشَكَ عَلى بِناءِ سَفينَتِهِ ، فَطَفِقَ يَرْتادُ الجُزُرَ المُجاوِرَةَ بَحْثاً عَنْ رِفاقِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ . وَتَبَيَّنَ لإيادٍ أنَّ تِلْكَ الجُزُرَ مُعْظَمُها لَمْ يَكُنْ مَأهولاً ؛ لأنَّها كانَتْ في مَهَبِّ الأعاصيرِ

الاسْتِوائِيَّةِ العاتِيَةِ ، فَكانَتْ سيقانُ أشْجارِها مُنْحَنِيَةً في اتِّجاهٍ واحِدٍ – وَهُوَ اتِّجاهُ هُبوبِ تِلْكَ الأعاصيرِ .

وَلَمْ يَدَعْ إيادٌ اليَأسَ يَتَطَرَّقُ إلى قَلْبِهِ ؛ فَكانَ كُلَّما فَرَغَ مِن ارْتِيادِ جَزيرَةٍ أبْحَرَ إلى الَّتي تَليها ، حَتَّى رَسا ذاتَ يَوْمٍ عَلى شاطِئِ جَزيرَةٍ أخْبَرَهُ بَعْضُ اللاّجِئينَ أنَّهُمْ لَمَحوا فيها شَبَحَيْنِ – رَجا إيادٌ أنْ يَكونا ابْنَ صَيْفورٍ وَابْنَتَهُ . وَتَحَقَّقَ رَجاءُ إيادٍ ؛ فَقَدْ عَثَرَ عَلَيْهِما الرِّجالُ مِمَّنْ بَثَّهُمْ لِلْبَحْثِ عَنْهُما ، وَكانا في حالٍ يُرْثى لَها مِنَ الضَّنْكِ وَالهُزالِ ، فَما زادَ قوتُهُما عَلى ثِمارِ الجَوْزِ أوِ المَوْزِ أوِ المانْجو، وَما زادَ شَرابُهُما عَلى رَحيقِ ثِمارِ الجَوْزِ .

وَحَمَلَهُما إيادٌ مَعَ أمْتِعَتِهِما في القَوارِبِ وَعادَ بِهِما إلى الجَزيرَةِ، وَقَدِ ازْدادَ لَدَيْهِ الأمَلُ في العُثورِ عَلى بَقِيَّةِ رِفاقِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، في بَعْضِ الجُزُرِ المُجاوِرَةِ . وَأخْبَرَ إيادٌ ابْنَ صَيْفورٍ بِأمْرِ السَّفينَةِ الَّتي يَقومُ بِبِنائِها لِتَحْمِلَهُمْ جَميعاً إلى بَحْرِ الصّينِ . وَلَمّا وَصَلا إلى البَرِّ قَدَّمَ لَهُما الماءَ فَشَرِبا ، وَطَلَبَ مِنْ بَعْضِ أصْحابِهِ تَقْديمَ الطَّعامِ الَّذي كانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ سَمَكٍ وَخُبْزٍ مِنْ طَحينِ الشَّعيرِ لَهُما ، فَأكَلَ الرَّجُلُ وَابْنَتُهُ وَهُوَ يَعْجَبُ كَيْفَ تَسَنّى لإيادٍ أنْ يُدَبِّرَ ذَلِكَ دونَهُ ، وَلَمْ تَكُنِ الجَزيرَةُ الَّتي نَبَذَهُ اليَمُّ فيها إلّا كَمِثْلِ هَذِهِ الجَزيرَةِ !

الفصل السابع عشر

الغَدْرُ

لَمّا شَبِعَ ابْنُ صَيْفورٍ وَحِمْنَةُ وَارْتَوَيا ، سَأَلَ إِيادٌ الأَميرَةَ سامانغ أَنْ تَعْتَنِيَ بِحِمْنَةَ ، وَاصْطَحَبَ هُوَ أَباها إِلى كوخِهِ فَقَدَّمَ لَهُ ثِيابَهُ لِيَخْتارَ مِنْها ما يَشاءُ ، وَدَلَّهُ عَلى مَوارِدِ الماءِ إِنْ أَرادَ أَنْ يَغْتَسِلَ أَوْ يَشْرَبَ . وَكَذَلِكَ فَعَلَتِ الأَميرَةُ سامانغ مَعَ حِمْنَةَ فَقَدَّمَتْ لَها أَفْخَرَ ثِيابِها ، وَكانَتْ حِمْنَةُ أَضْخَمَ مِنْ سامانغ ؛ فَوَصَلَتْ ثَوْبَيْنِ مِنْ ثِيابِها فَجَعَلَتْهُما ثَوْبًا واحِدًا .

وَلَمّا حَلَّ المَساءُ ، جَلَسَتْ سامانغ وَحِمْنَةُ تَتَسامَرانِ بِالعَرَبِيَّةِ الَّتي أَجادَتْها سامانغ إِلى حَدٍّ كانَ مَدْعاةً لاسْتِغْرابِ حِمْنَةَ . وَاصْطَحَبَ إِيادٌ ابْنَ صَيْفورٍ لِيَتَفَقَّدَ مَكانَ مَبيتِهِ هُوَ وَابْنَتِهِ ، وَجَعَلَ يَقُصُّ عَلَيْهِ ما فَعَلَهُ مُنْذُ أَلْقَتْ بِهِ أَمْواجُ اليَمِّ إِلى السّاحِلِ . وَبَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ كانَ يَقَعُ بَصَرُ ابْنِ صَيْفورٍ عَلى بَعْضِ الأَدَواتِ الَّتي انْتَشَلَها إِيادٌ مِنَ

السَّفينَةِ الغارِقَةِ ، أوْ عَلى حُقولِ الشَّعيرِ الَّذي نَضجَ في أكْمامِهِ ، فَما يَمْلِكُ إلّا أنْ يَهْتِفَ قائلاً : « أمِنَ العَدْلِ أنْ تُطَوِّعَ لَكَ نَفْسُكَ التَّقَلُّبَ في هَذِهِ النَّعْماءِ كُلَّ تِلْكَ الأيّامِ ، وَنحْنُ نَتضَوَّرُ جوعًا على رَمْيَةِ قَوْسٍ مِنْكَ ؟»

وَلَمْ يَبْدُ عَلى ابْنِ صَيْفورٍ أنَّهُ صَدَّقَ إياداً فيما رَواهُ لَهُ مِنْ أنَّهُ لَمْ يَدْرِ بِأمْرِ الجَزيرَةِ الَّتي لَجأ إلَيْها هُوَ وَابْنَتُهُ إلّا مُؤخَّرًا . وَجَعَلَ يَسْألُ إياداً – في فُضولٍ – عَمَّنْ يَكونُ أولئِكَ النّاسُ ، وَما ألْجَأهُمْ إلى هَذِهِ الجَزيرَةِ ، وَإيادٌ يُجيبُهُ .

وَكانَتْ مَعْرِفَةُ أولَئِكَ اللاجِئينَ في هَذا المَكانِ السَّحيقِ لِلُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَثارَ دَهْشَةِ ابْنِ صَيْفورٍ أيْضًا . وَتَذَكَّرَ ابْنُ صَيْفورٍ أنَّهُ رَأى جَواداً بِالقُرْبِ مِنْ كوخِ إيادٍ ، وَأرادَ أنْ يَسْألَهُ سِرَّ وُجودِهِ في هَذا المَكانِ عِنْدَما أقْبَلَ أحَدُ الرِّجالِ مِمَّنْ يُساعِدونَ إياداً في بِناءِ السَّفينَةِ، يَطْلُبُ مِنْهُ التَّوَجُّهَ إلى مَوْقِعِ بِنائِها ، لِيَضَعَ الصّارِيَ في مَوْضِعِهِ .

وَانْطَلَقَ إيادٌ وَمَعَهُ ابْنُ صَيْفورٍ ، وَ وَضَعَ إيادٌ الصّارِيَ في مَكانِهِ بِمُساعَدَةِ الرِّجالِ ، وَجَلَسَ ابْنُ صَيْفورٍ يَرْقُبُ ما يَفْعَلونَهُ . وَلَمّا حَلَّ التَّعَبُ بِالجَميعِ عادوا إلى أكْواخِهِمْ وَآوَوْا إلى فُرُشِهِمْ .

وَعِنْدَما طَرَقَ أذانُ صَلاةِ الفَجْرِ مَسامعَ ابْنِ صَيْفورٍ هَبَّ مِنْ رُقادِهِ مَفْزوعًا ، لا يَدْري إنْ كانَ بَعْدُ في البَصْرَةِ أوْ عَلى بُعْدِ آلافِ الكيلومِتْراتِ مِنْها !

وَبعْدَ أنْ تَناوَلَ الجَميعُ ما تَيسَّرَ مِنَ الزّادِ اسْتَأنَفَ كُلٌّ مِنْهُمْ عَمَلَهُ . وَخَرَجَ إيادٌ في جَماعَةٍ مِنْهُمْ مُبْحِرًا إلى جَزيرَةٍ أخْرى ، وَقَدْ كَبِرَتْ آمالُهُ في أنْ يَعْثُرَ عَلى مَزيدٍ مِنْ رِفاقِ السَّفينَةِ المَفْقودينَ . وَنَهَضَ ابْنُ صَيْفورٍ بَعْدَ انْصِرافِهِمْ يَتَجَوَّلُ في المَكانِ ، ثُمَّ خَرَجَ مُتَّجِهًا إلى مَوْضعِ بِناءِ السَّفينَةِ . وَتَبَيَّنَ لَهُ أنَّهُ ما عادَ يَنْقُصُها الكَثيرُ لِتَنْزِلَ إلى البَحْرِ ، بَلْ إنَّها بِحالَتِها تِلْكَ كانَتْ صالِحَةً لِلإبْحارِ .

وَعادَ ابْنُ صَيْفورٍ إلى القَرْيَةِ فَجَعَلَ يُخالِطُ النّاسَ وَيُظْهِرُ الاهْتِمامَ بِشأنِهِمْ وَالتَّأثُّرَ لِحالِهِمْ ، حَتّى عَلِمَ بِأمْرِ المَلِكِ الغاضِبِ وَالغُزاةِ . وَلَمّا رَأى النَّدَمَ في وُجوهِ بَعْضِ ضِعافِ القُلوبِ الَّذينَ اشْتاقوا لِلْعَوْدَةِ ؛ جَعَلَ يُزَيِّنُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَأفْلَحَ في اسْتِمالَةِ بَعْضِهِمْ فَتَواعَدوا عَلى العَوْدَةِ في السَّفينَةِ الَّتي يَبْنيها إيادٌ .

وَطَلَبَ ابْنُ صَيْفورٍ مِنْ بَعْضِهِمْ حَمْلَ أحَدِ المَجانيقِ إلى السَّفينَةِ لَعَلَّ ذَلِكَ يَكونُ سَبَبًا في شِراءِ مَرْضاةِ المَلِكِ الغاضِبِ وَصَفْحِهِ عَنْهُمْ ، فَفَعَلوا . أمّا هُوَ فَاخْتَلَسَ بَعْضَ الأشْياءِ النّافِعَةِ ، بَلْ وَاخْتَلَسَ أشْياءَ مِنْ أمْتِعَةِ إيادٍ وَأمْتِعَةِ الأميرِ ألِنْتو ، الَّذي خَرَجَ في

صُحْبَةِ إيادٍ . وَكادَ ابْنُ صَيْفورٍ يَحُلُّ رِباطَ الجَوادِ وَيَأْخُذُهُ مَعَهُ لَوْلا خَشْيَتُهُ مِنْ أَنْ يُحْدِثَ صَوْتًا فَيُفْتَضَحَ أَمْرُهُ . وَحَمَلَ ابْنُ صَيْفورٍ ذَلِكَ إلى سَفينَةِ إيادٍ ، ثُمَّ عادَ إلى كوخِهِ فَاصْطَحَبَ ابْنَتَهُ ، وَانْطَلَقا إلى السَّفينَةِ فَرَكِباها مَعَ مَنْ ساغَ لَهُ تَرْكُ الجَزيرَةِ وَالعَوْدَةُ مِنْ حَيْثُ أَتى. وَما لَبِثَ ابْنُ صَيْفورٍ أَنْ أَمَرَ بِبَسْطِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ وَالاتِّجاهِ صَوْبَ مندناو .

وَعادَ إيادٌ مِنْ جَوْلَتِهِ دونَ أَنْ يَعْثَرَ عَلى أَحَدٍ مِنْ بَحّارَةِ السَّفينَةِ الغارِقَةِ ؛ وَهالَهُ أَلا يَجِدَ ابْنَ صَيْفورٍ وَابْنَتَهُ ، وَخَشِيَ أَنْ يَكونا قَدْ سارا وَحْدَهُما فَضَلّا طَريقَهُما ، أَوْ تَوَغَّلا في أَجَمَةِ النُّمورِ فَيَكونانِ في خَطَرٍ عَظيمٍ . وَبَثَّ إيادٌ رِجالاً في كُلِّ مَكانٍ ، يَتَحَرَّوْنَ ما جَرى لَهُما وَيَقْتَفونَ آثارَهُما .

وَأَسْرَجَ إيادٌ جَوادَهُ وَانْطَلَقَ إلى الشّاطِئِ قَبْلَ أَنْ يُخَيِّمَ الظَّلامُ ، وَجَعَلَ يُناديهِما عَسى أَنْ يَسْمَعاهُ فَيَهْتَدِيا إلى مَكانِهِ. وَتَمَنّى إيادٌ عِنْدَئِذٍ لَوْ كانَ لَدَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ فَرَسٍ ، أَوْ كانَ لَدَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ فارِسٍ مِثْلِ الأَميرِ أَلِنْتو ؛ إِذًا لَكانَ البَحْثُ أَيْسَرَ .

وَاتَّجَهَ إيادٌ إلى الأَماكِنِ الَّتي اصْطَحَبَ ابْنَ صَيْفورٍ إِلَيْها في اليَوْمِ السّابِقِ ؛ فَراعَهُ أَنْ يَجِدَ سَفينَتَهُ وَقَدِ اخْتَفَتْ . وَلَمْ يُرِدْ إيادٌ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ ابْنَ صَيْفورٍ رُبَّما أَبْحَرَ بِها ، فَإِلى أَيْنَ يَذْهَبُ الرَّجُلُ

وَلا عِلْمَ لَهُ بِفُنونِ المِلاحَةِ ، اللَّهُمَّ إلا أنْ يَكونَ قَدْ فَقَدَ عَقْلَهُ !

وَرَجَعَ إِيادٌ إلى القَرْيَةِ مَهْموماً لِيَلْقاهُ الأميرُ أَلنْتو باكِياً ؛ إذْ لَمْ يَجِدِ السّاعَةَ الدَّقّاقَةَ الَّتي أَهْداها لَهُ إيادٌ ، وَكانَ يُحِبُّها كَثيراً . وَلاحَظَ إيادٌ أَيْضاً اخْتِفاءَ أَحَدِ المَجانيقِ ، كَما جاءَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِأَنَّ بَعْضَ مَنْ لَجَئوا إلى الجَزيرَةِ قَدِ اخْتَفَوْا كَذَلِكَ . وَخَطَرَ لإِيادٍ عِنْدَئِذٍ أَنَّ ابْنَ صَيْفورٍ رُبَّما أَبْحَرَ بِالسَّفينَةِ مَعَ أُولَئِكَ الرِّجالِ عائِدينَ إلى مندناو . أ فَلا يَعْلَمُ هَذا الرَّجُلُ ما آلَتْ إِلَيْهِ الأُمورُ هُناكَ ، وَقَدْ أَصْبَحَ يَحْكُمُها مَلِكٌ غاصِبٌ غَشومٌ ؟ وَماذا تُراهُ فاعِلاً عِنْدَما يَتَبَيَّنُ لَهُ بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ أَنَّهُ قَدْ أَوْرَدَ نَفْسَهُ وَابْنَتَهُ مَوارِدَ التَّهْلُكَةِ ؟ وَأَمَرَ إيادٌ الرِّجالَ بِالكَفِّ عَنِ البَحْثِ عَنِ الرَّجُلِ وَابْنَتِهِ .

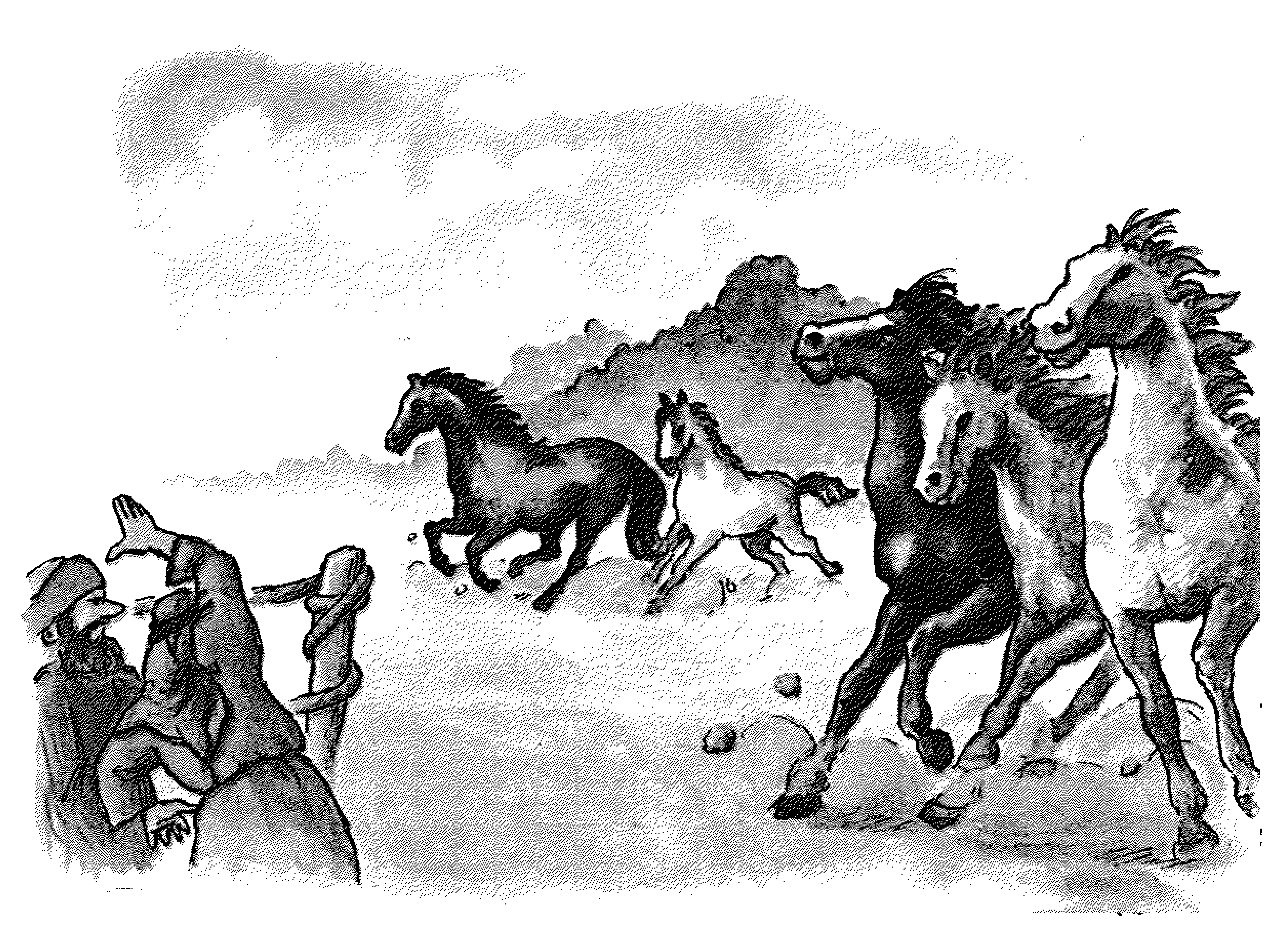
كانَ اخْتِفاءُ المَنْجَنيقِ سَبَباً في زِيادَةِ قَلَقِ إيادٍ ؛ فَمَتى عَرَفَ الغُزاةُ سِرَّ هَذا السِّلاحِ فَلَنْ يَتَوَرَّعوا عَنْ مُهاجَمَةِ الجَزيرَةِ ، مُسْتَخْدِمينَ ذَلِكَ السِّلاحَ ذاتَهُ الَّذي يَسْتَخْدِمُهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ . وَ وَجَدَ إيادٌ أَنَّ خَيْرَ وَسيلَةٍ لِلرَّدِّ عَلى ذَلِكَ هِيَ أَنْ يَكونَ لِلْجَزيرَةِ فُرْسانُها ، فَيَتَوَفَّرَ مِنْ خِفَّةِ الحَرَكَةِ ما يُقابِلُ نيرانَ العَدُوِّ الَّتي تُقْذَفُ بِالمَجانيقِ .

وَلَمْ يَطْلُعْ صَباحُ اليَوْمِ التّالي إلّا وَقَدْ جَمَعَ إيادٌ مَنِ اسْتَطاعَ جَمْعَهُ مِنَ الرِّجالِ ، وَمَعَهُمُ الحِبالُ وَالأَوْتادُ ، وَاتَّجَهَ بِهِمْ إلى وادي

الجِيادِ ، وَأَمَرَهُمْ بِدَقِّ الأَوْتادِ في الأَرْضِ عَلى شَكْلِ قَوْسٍ ، عِنْدَ فُتْحَةِ الوادي الضَّيِّقَةِ ، وَأَنْ يَلُفّوا الحِبالَ حَوْلَ الأَوْتادِ لِتَصْنَعَ سِياجًا . وَلَمَّا فَعَلوا ذٰلِكَ أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُطارِدُ الجِيادَ حَتَّى تَتَّجِهَ إِلى السِّياجِ فَتَدْخُلَ فيهِ . وَكَلَّفَ أَحَدَهُمْ بِأَنْ يُغْلِقَ بَوَّابَةَ القَوْسِ مَتى أَشارَ إِلَيْهِ بِذٰلِكَ .

وَدَخَلَ إِيادٌ بِجَوادِهِ حَتَّى أَصْبَحَ وَراءَ آخِرِ الجِيادِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ بَيْنَها صائِحًا فيها ؛ فَانْطَلَقَتْ في الاتِّجاهِ الَّذي يَدْفَعُها إِلَيْهِ ، حَتَّى عَبَرَتِ الأَحْراشَ وَدَخَلَتْ في ساحَةِ السِّياجِ ، فَصاحَ إِيادٌ آمِرًا بِإِغْلاقِ فُتْحَةِ السِّياجِ فَأُغْلِقَتْ . وَجَعَلَتِ الجِيادُ تَضْرِبُ الأَرْضَ بِقَوائِمِها في عَصَبِيَّةٍ ، فَانْدَسَّ إِيادٌ بَيْنَها وَجَعَلَ يَمْسَحُ عَلى أَعْناقِها مُهَدِّئًا مِنْ رَوْعِها حَتَّى سَكَنَتْ . وَما لَبِثَ الأَميرُ أَلِنْتو أَنْ حَذا حَذْوَهُ وَسْطَ دَهْشَةِ أَتْباعِهِ . وَلَمْ يَكُنْ عَسيرًا تَرْويضُ تِلْكَ الخُيولِ الَّتي لَمْ تَكُنْ في الأَصْلِ بَرِّيَّةً .

وَعَلَّمَ إِيادٌ أُولٰئِكَ الرِّجالَ كَيْفِيَّةَ تَرْويضِ الخُيولِ ، فَكانَ يَرْبُطُها فَرَسًا فَرَسًا إِلى عَمودٍ مَنْصوبٍ ، ثُمَّ يَقْتَرِبُ مِنْها فَتَبْتَعِدُ عَنْهُ في أَوَّلِ الأَمْرِ ، فَيَجْعَلُها تَدورُ حَوْلَ العَمودِ حَتَّى يَقْصُرَ الحَبْلُ فَلا يُمْكِنُها الوُقوفُ عَلى قائِمَتَيْها الخَلْفِيَّتَيْنِ لِتَطْرَحَ راكِبَها أَرْضًا ، فَيَسْهُلَ عَلَيْهِ امْتِطاءُ صَهْوَتِها دونَ أَنْ يَخْشى أَنْ تُلْقِيَ بِهِ إِلى الأَرْضِ .



وَعلَّمَهُمْ إيادٌ أيْضاً اكْتِسابَ ثِقَةِ الجَوادِ وَمَحبَّتِه ؛ بِتَقْديمِ بَعْضِ ما يَشْتَهيهِ مِنْ فَواكِهَ بَرِّيَّةٍ أَوْ شعيرٍ ، وَالمَسْحِ عَلى عُنُقِهِ دائماً .

وَبَعْدَ أنْ رَأى الواقِفونَ أميرَهُمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ؛ شَعَروا بِالخَجَلِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يَكونوا في مِثْلِ شَجاعَتِه ، وَهُمُ الَّذينَ كَلَّفَهُمْ أبوهُ المَلِكُ بِحِمايَتِه ؛ فانْدَفَعوا يَفْعَلونَ مِثْلَهُ . وَما لَبِثوا أنْ عادوا جَميعاً راكِبينَ وَقَدْ جَرّوا وَراءَهُمْ جِياداً لِيَرْكَبَها مَنْ بَقِيَ في القَرْيَةِ. وَلَمْ يَدَّخِرْ إيادٌ جَهْداً في تَلْقينِهِمْ فُنونَ الفُروسِيَّةِ - كَما تَعَلَّمَها - مِنْ كَرٍّ وَفَرٍّ ، وَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ يُحارِبونَ مِنْ فَوْقِ ظُهورِ الجِيادِ .

الفصل الثامن عشر

أنْباءٌ سَيِّئَةٌ

وَفيما كانَ إيادٌ وَمَنْ مَعَهُ يَفْعَلونَ ذَلِكَ عادَ الوَصيفُ مِنْ مندناو حامِلاً أخْباراً مُرَوِّعَةً ؛ فَقَدِ اسْتَدَلَّ المَلِكُ الغاصِبُ عَلى مَكانِ المَلِكِ الشَّرْعِيِّ وَزَوْجَتِهِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِما وَحَبَسَهُما ، وَعَزَمَ عَلى مُهاجَمَةِ الجَزيرَةِ لِكَيْ يَقْبِضَ عَلى الأميرَيْنِ ؛ تَوْطِئَةً لِلْخَلاصِ مِنْهُمْ جَميعاً لَيْلَةَ البَدْرِ ، كَما تَحُضُّهُ مُعْتَقَداتُهُ .

وَسَأَلَهُ إيادٌ كَيْفَ عَرَفَ المَلِكُ الغاصِبُ بِمَكانِ اخْتِباءِ المَلِكِ الشَّرْعِيِّ وَزَوْجَتِهِ ، فَأجابَ الوَصيفُ : « لَقَدْ جاءَ شَيْخٌ غَريبٌ يَتَكَلَّمُ لُغَتَكَ ، وَمَعَهُ ابْنَتُهُ وَبَعْضُ أبناءِ قَوْمي مِنْ ضِعافِ النُّفوسِ ، وَتَوَجَّهَ إلى قَصْرِ المَلِكِ الغاصِبِ ، وَجَعَلَ يَتَقَرَّبُ إلَيْهِ بِالهَدايا وَمِنْها مَنْجَنيقٌ كَالَّذي رَأَيْتُهُ عِنْدَكَ . كَما أطْلَعَهُ عَلى مَكانِ اخْتِباءِ المَلِكِ وَزَوْجَتِهِ ، وَكانَ قَدْ عَرَفَهُ مِمَّنْ رَجَعوا مَعَهُ عَلى مَتْنِ سَفينَتِكَ ؛ فَكانَ يَسيراً

عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُرْسِلَ مَنْ يَقْبِضُ عَلى المَلِكِ وَالمَلِكَةِ .»

وَالْتَقَطَ الوَصيفُ أَنْفاسَهُ وَازْدَرَدَ ريقَهُ ، ثُمَّ اسْتَرْسَلَ قائِلاً : « وَقَدْ تَرَكْتُ مندناو وَمَلِكُها الغاصِبُ يُعِدُّ العُدَّةَ لِمُهاجَمَةِ الجَزيـرَةِ ، وَالقَبْضِ عَلى الأَميرَيْنِ وَقَتْلِهِما مَعَ أَبَوَيْهِما ، فَيَسْتَتِبُّ لَهُ الأَمْرُ .»

وَسَأَلَهُ أَلِنْتو وَسامانغ وَقَدِ اسْتَبَدَّ بِهِما القَلَقُ عَلى أَبَوَيْهِما وَتَمَلَّكَهُما الهَلَعُ مِمَّا يَنْتَظِرُهُمْ جَميعًا : « وَأَيْنَ أَتْباعُ أَبينا ؟ وَماذا دَهاهُمْ ؟ أَما كانوا يَسْتَطيعونَ تَخْليصَهُ مِنْ أَيْدي الأَعْداءِ ؟»

رَدَّ الوَصيفُ قائِلاً: « لَقَدْ أَصْبَحَ أَتْباعُ أَبيكُما واحِدًا مِنِ اثْنَيْنِ : إِمَّا مَخْدوعٌ وَإِمَّا خائِفٌ !»

وَاسْتَزادَهُ الأَميرانِ إيضاحًا ، فَقالَ : « أَ تَذْكُرانِ تِلْكَ السَّاعَةَ الدَّقَّاقَةَ الَّتي أَهْداكَهُما إِيادٌ ؟»

هَتَفَ الأَميرانِ في وَقْتٍ واحِدٍ : « وَما شَأْنُ تِلْكَ السَّاعَةِ بِما حَدَثَ ؟»

« عَلى رِسْلِكُما ! وَلَكِنِّي كُنْتُ أَغْشى المَعْبَدَ الكَبيرَ لأُخالِطَ النَّاسَ ، وَأَجْتَمِعَ إِلى بَعْضِ أَتْباعِ أَبيكُما في رَدَهاتِ المَعْبَدِ ؛ إِبْعادًا لِلشُّكوكِ عَنَّا . وَبَيْنَما كُنَّا كَذَلِكَ – ذاتَ يَوْمٍ – رَأَيْنا ذَلِكَ

الشَّيْخَ مِنْ حَيْثُ لا يَرانا ، وَهُوَ يَعْكُفُ عَلى تِلْكَ السَّاعَةِ الدَّقَّاقَةِ وَالمَلِكُ إِلى جِوارِهِ ، وَبَيْنَهُما رَجُلٌ مِمَّنْ جاءوا إِلى هَذِهِ الجَزيرَةِ فَمَكَثَ فيها حيناً وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ ، ثُمَّ رَجَعَ مَعَ مَنْ رَجَعوا ، وَكانَ يُتَرْجِمُ الكَلامَ بَيْنَهُما .

وَرَأَيْنا الشَّيْخَ يَعْمِدُ إِلى تِمْثالِ الإِلَهَةِ ذاتِ الأَذْرُعِ التِّسْعِ ، فَشَدَّ الأَذْرُعَ إِلى تُروسِ السَّاعَةِ وَحَرَّكَ التُّروسَ فَجَعَلَتِ الأَذْرُعُ تَتَحَرَّكُ . وَعَلِمْنا أَنَّ المَلِكَ جَمَعَ النَّاسَ في المَعْبَدِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ الصَّنَمَ وَأَذْرُعُهُ تَتَحَرَّكُ بِفِعْلِ التُّروسِ ؛ فَسَحَرَ ذَلِكَ أَعْيُنَهُمْ ، وَارْتَدَّ بَعْضُهُمْ إِلى ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلالِ . وَأَصْبَحَ الشَّيْخُ مُنْذُ ذَلِكَ الوَقْتِ مُقَرَّباً مِنَ المَلِكِ الغاصِبِ ، فاتَّخَذَهُ وَزيراً لَهُ وَاتَّخَذَ مِن ابْنَتِهِ زَوْجَةً لَهُ ، وَلَمْ يَعُدْ يُبْرِمُ أَمْراً دونَهُما .»

وَمَلأَ الأَسى وَالغَمُّ قَلْبَ إِيادٍ ، فَسَأَلَهُ : « أَ لَمْ يَكُنْ في النَّاسِ رَجُلٌ رَشيدٌ ؛ فَيَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ ما كانَتْ غَيْرَ حيلَةٍ دَنيئَةٍ لِصَرْفِهِمْ عَنِ الحَقِّ وَرَدِّهِمْ إِلى الضَّلالِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الصَّنَمَ لا يُغْني عَنْهُمْ وَلا عَنْ نَفْسِهِ شَيْئاً ؟»

« مَنْ كانَ مِنْهُمْ رَشيداً فَقَدْ أَطارَ السَّيْفُ عُنُقَهُ أَوْ لُبَّهُ . وَكانَتِ ابْنَةُ هَذا الشَّيْخِ الَّتي تَزَوَّجَها المَلِكُ مُسْتَشارَ سَوْءٍ لَهُ ؛ فَقَدْ أَوْحَتْ

إِلَيْهِ أنْ يَأمُرَ أهْلَ المَمْلَكَةِ بِالسُّجودِ لِلصَّنَمِ أمامَهُ ، فَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ كانَ ذَلِكَ دَليلاً عَلى أنَّهُ مِنْ أنْصارِ الدِّينِ الجَديدِ ، وَلَيْسَ مِنْ أتْباعِهِ المُخْلِصينَ ؛ فَيُقْتَلُ . وَاسْتَحْسَنَ المَلِكُ مَشورَتَها وَصَنَعَ ذَلِكَ ؛ فَقُتِلَ بِسَبَبِ مَشورَتِها خَلْقٌ كَثيرٌ .»

الفصل التاسع عشر
ساعَةُ الخَلاصِ

عِنْدَ هَذا الحَدِّ انْتَفَضَ أَلِنْتو وَسامانغ واقِفَيْنِ وأعْلَنا أَنَّهُ لا مُقامَ لَهُما بَعْدَ اليَوْمِ بِتِلْكَ الجَزيرَةِ ، وَأَنَّهُما لا بُدَّ لَهُما مِنَ العَوْدَةِ لإِنْقاذِ أَبَوَيْهِما مِنَ القَتْلِ ، وَتَخْليصِ مندناو مِنَ الطَّاغِيَةِ . وَأَشْفَقَ إِيادُ عَلَيْهِما لِقِلَّةِ تَجْرِبَتِهِما ، وَخَشِيَ أَنْ يَنْدَفِعا دونَ تَدْبيرٍ وَتَرَوٍّ فَيَكونَ هَذا ما يَتَمَنَّاهُ عَدُوُّهُما . وَأَشارَ عَلَيْهِما بِاتِّخاذِ خُطَّةٍ تَكْفُلُ لَهُما مُباغَتَةَ العَدُوِّ . وَجَعَلَ إِيادُ يُوَضِّحُ لَهُما وَلِلْوَصيفِ تَفاصيلَ خُطَّتِهِ ، وَتَعاهَدا عَلى التَّعاوُنِ لِتَنْفيذِها ، ثُمَّ قاموا مِنْ فَوْرِهِمْ يَعْمَلونَ ما اتَّفَقوا عَلَيْهِ .

وَنادى الأَميرانِ أَتْباعَ أَبيهِما فَلَبَّوْا نِداءَهُما ، وَقَسَّمَهُمُ الوَصيفُ جَماعاتٍ لِكُلٍّ مِنْها أَميرٌ ، وَمَعَ كُلٍّ مِنْهُمْ فَرَسُهُ الَّتي أَصْبَحَ يُجيدُ رُكوبَها . وَكُلِّفَتْ كُلُّ جَماعَةٍ بِصُنْعِ رَمَثٍ يَسَعُ المُحارِبينَ

وَخُيولَهُمْ . وَاسْتَمَرَّ الجَميعُ يَعْمَلونَ بِحَماسٍ في ضَوْءِ المَشاعِلِ بَعْدَ أنْ جَنَّ اللَّيْلُ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ يَشْعُرونَ بِأنَّ ساعَةَ الخَلاصِ قَدْ دَنَتْ . ثُمَّ نالوا قِسْطًا مِنَ الرّاحَةِ في الهَزيعِ الأخيرِ مِنَ اللَّيْلِ . وَبَعْدَ أنْ قاموا مِنْ رُقادِهِمْ صَلَّوُا الفَجْرَ ، ثُمَّ غَمُّوا أعْيُنَ الجِيادِ لِكَيْ لا تَفْزَعَ مِنْ رُكوبِ البَحْرِ . وَاقْتادَ الرِّجالُ خُيولَهُمْ وَحَمَلوا أسْلِحَتَهُمْ وَانْطَلَقوا ، رَمْثًا في إثْرِ الآخَرِ ، قاصِدينَ بُقْعَةً غَيْرَ مَطْروقَةٍ عَلى ساحِلِ مندناو ، حَسَبَ الخُطَّةِ المَوْضوعَةِ .

وَلَمّا بَلَغوا السّاحِلَ نَزَعوا الغَمائِمَ عَنْ أعْيُنِ الجِيادِ وَامْتَطَوْها ، ثُمَّ انْطَلَقوا حَتّى وَصَلوا مَشارِفَ عاصِمَةِ المَمْلَكَةِ ، فَانْقَسَموا حَسَبَ الخُطَّةِ إلى فَريقَيْنِ . وَاتَّجَهَ الأميرانِ عَلى رَأسِ ثُلَّةٍ مِنَ الفُرْسانِ إلى المَوْضِعِ الَّذي حُبِسَ فيها أبَواهُما ؛ لِتَخْليصِهِما مِنَ الأسْرِ . أمّا إيادٌ وَمَعَهُ الوَصيفُ فَاتَّجَها على رَأسِ فَريقٍ آخَرَ مِنَ الفُرْسانِ إلى مَقَرِّ المَلِكِ المُغْتَصِبِ ، الَّذي نُصِبَتْ فيهِ المَجانيقُ ، حَسَبَ مَشورَةِ وَزيرِهِ ابْنِ صَيْفورٍ ، وَأمَرَ إيادٌ الجُنودَ بِالالْتِفافِ حَوْلَ أجْنابِ المَجانيقِ كَيْلا يَتَعَرَّضوا لِخَطَرِ قَذائِفِها .

وَبوغِتَ أهْلُ المَدينَةِ وَجُنودُ المَلِكِ الغاصِبِ وَتَمَلَّكَهُمُ الفَزَعُ حينَ رَأَوُا الجِيادَ تَنْطَلِقُ بِفُرْسانِها ، فَما كانوا قَدْ رَأوْها مِنْ قَبْلُ ، فَجَعَلوا يَسْتَسْلِمونَ أوْ يَهْرُبونَ مِنْ طَريقِها ، مُلْقينَ أسْلِحَتَهُمْ .

وَأطاعَ الفُرْسانُ ما أشارَ بِهِ إيادٌ فَلَمْ تُصِبْهُمْ قَذائِفُ المَجانيقِ الَّتي كانَ الجُنودُ يُطْلِقونَها بِأَمْرِ ابْنِ صَيْفورٍ. وَفوجِئَ جُنودُ المَلِكِ الغاصِبِ بِالفُرْسانِ يُحْدِقونَ بِهِمْ مِنَ الخَلْفِ، وَيُطْبِقونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَتَرَكوا المَجانيقَ وَأَطْلَقوا سيقانَهُمْ لِلرِّيحِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّ وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَعَ في الأَسْرِ.

وَكانَتِ المُقاوَمَةُ الَّتي لَقِيَها الأَميرانِ أَهْوَنَ شَأْنًا؛ فَقَدْ مُلِئَتْ قُلوبُ حُرّاسِ السِّجْنِ رُعْبًا، وَهُمْ يَرَوْنَ الفُرْسانَ مُقْبِلينَ نَحْوَهُمْ عَلى صَهَواتِ جِيادِهِمْ، وَقَدْ شَهَروا سُيوفَهُمْ وَشَرَعوا رِماحَهُمْ، فَانْطَلَقوا هُمْ أَيْضًا لا يَلْوونَ عَلى شَيْءٍ. أَمّا مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْهُمْ حَراكًا فَقَدْ وَقَعَ في الأَسْرِ. وَاقْتَحَمَ الأَميرانِ قَلْعَةَ السِّجْنِ فَخَلَّصا أَبَوَيْهِما مِنَ الأَسْرِ، وَعادا بِهِما إلى قَصْرِ المَمْلَكَةِ. وَكانَ إيادٌ قَدِ انْطَلَقَ في إِثْرِ المَلِكِ الغاصِبِ، الَّذي صَحِبَ مَعَهُ زَوْجَتَهُ حِمْنَةَ وَأَباها وَأَعْوانَهُ مِنَ الغُزاةِ، وَرَكِبوا سَفينَةً حَمَلَتْهُمْ إلى الجَزيرَةِ الَّتي فيها مَوْطِنُ الغُزاةِ.

وَقَصَّ أَلِنْتو وَسامانغ عَلى أَبَوَيْهِما ما صَنَعَهُ إيادٌ مَعَهُما، مُنْذُ حَمَلَهُما الأَعْداءُ إلى الجَزيرَةِ الَّتي كانَ بِها إيادٌ؛ لِتَقْديمِهِما قُرْبانًا لِلنُّمورِ، حَتّى لَحْظَةِ تَخْليصِهِما مِنَ الأَسْرِ. وَانْتَظَرَ المَلِكُ رُجوعَ إيادٍ لِيَجْزِيَهُ عَلى ما صَنَعَتْ يَداهُ، وَأَمَرَ بِإِقامَةِ الزّيناتِ ابْتِهاجًا

بِالخَلاصِ مِنَ الغاصِبِ وَالغُزاةِ ، وَتَحْريرِ البِلادِ .

وَعادَ إِيادٌ مِنْ مُطارَدَتِهِ لِفُلولِ جَيْشِ المَلِكِ الغاصِبِ فَجِيءَ بِهِ إِلى قَصْرِ المَلِكِ ، وَكانَ الوَصيفُ واقِفًا لِيُتَرْجِمَ ما يَقولُهُ إِلى إِيادٍ . وَبَسَطَ المَلِكُ ذِراعَيْهِ مُرَحِّبًا بِإِيادٍ ، وَقالَ لَهُ : « أَيُّها الفَتى ، إِنِّي لا أَعْلَمُ كَيْفَ أَشْكُرُكَ عَلى صَنيعِكَ ؛ فَلَوْلاكَ لَكانَ مَصيرُنا الهَلاكَ ! وَلَكانَ هَذا الشَّعْبُ يَرْزَحُ تَحْتَ وَطْأَةِ سُلْطانِ مَلِكٍ غاصِبٍ غَشومٍ !»

« إِنَّما سَخَّرَني اللهُ لِمُعاوَنَةِ إِخْواني !»

« لَقَدْ جَمَعْتَ إِلى شَجاعَتِكَ وَحِكْمَتِكَ تَواضُعًا ؛ وَمَنْ كانَ مِثْلَكَ جَديرٌ بِأَنْ يُسْتَوْزَرَ ، فَهَلّا طَلَبْتَ لِنَفْسِكَ ما تُريدُ ؛ فَوَ اللهِ الحَقِّ الَّذي اهْتَدَيْنا إِلَيْهِ بَعْدَ الضَّلالِ ، لَوْ طَلَبْتَ نِصْفَ مَمْلَكَتي لَأَعْطَيْتُها لَكَ راضِيًا !»

« أَيُّها المَلِكُ الصّالِحُ ، بارَكَ اللهُ لَكَ في مَمْلَكَتِكَ وَفي شَعْبِكَ . وَلَكِنّي لَمْ آتِ أَبْتَغي مُلْكًا .»

وَقَصَّ إِيادٌ عَلى المَلِكِ ما دَعاهُ إِلى الإِبْحارِ مِنَ البَصْرَةِ حَتّى أَلْقَتْ بِهِ المَقاديرُ إِلى تِلْكَ الجَزيرَةِ .

« ألا نستطيعُ أنْ نفعلَ شيْئًا لِمُساعدَتِكَ فيما أنتَ ماضٍ لهُ؟»

« لوْ شاءَ المَلِكُ جعَلَ معي مِنَ الرِّجالِ مَنْ يُساعِدُني في بِناءِ سَفينَةٍ أبْحِرُ بِها ، وَهذا غايَةُ ما أطْلُبُهُ .»

« لكَ ما تُريدُ وإنْ عزَّ علَيْنا فِراقُكَ !»

وَاسْتَوْزَرَ المَلِكُ الوَصيفَ وكَلَّفَهُ بمُساعدَةِ إيادٍ فيما عقَدَ علَيْهِ عَزْمَهُ . ثُمَّ طَفِقَ المَلِكُ يَسْأَلُ إيادًا عَنْ بِلادِهِ ويَسْتَزيدُهُ إيضاحًا عَنْ دينِهِ . وعَلِمَ مِنْهُ بَقِيَّةَ أرْكانِ الدِّينِ مِنْ صَوْمٍ وَحَجٍّ وزَكاةٍ ، وَأبْدى تَشَوُّقَهُ لِلْحَجِّ . ولَمَّا أدْرَكَ بُعْدَ الشُّقَّةِ وَضرورَةَ رُكوبِ السُّفُنِ الكَبيرَةِ ؛ سَألَ إيادًا أنْ يَبْنِيَ لَهُ واحِدَةً كالَّتي يَبْنيها لِنَفْسِهِ ، وَأمَدَّهُ بِمَزيدٍ مِنَ الرِّجالِ وَالأخْشابِ وَما يَلْزَمُ لِبِناءِ السُّفُنِ .

وَباشَرَ إيادٌ العَمَلَ في بِناءِ السَّفينَتَيْنِ بِحَماسٍ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ ، وَعاوَنَهُ أهْلُ مندناو عَنْ طيبِ خاطِرٍ . وَلَمَّا أتَمَّ إيادٌ بِناءَهُما بَعْدَ بِضْعَةِ شُهورٍ أطْلَقَ على سَفينَتِهِ اسْمَ « سالمة » ، أمَّا المَلِكُ فَسَمَّى سَفينَتَهُ « فَلاح » . وَجَهَّزَ إيادٌ السَّفينَتَيْنِ بِما انْتَشَلَهُ مِنْ خَرائِطَ وَأدَواتٍ لِلْمِلاحَةِ .

الفصل العشرون

الوَفاءُ

وَحَمَلَ إيادٌ في سَفينَتِهِ جِياداً تُساوي في عَدَدِها الجِيادَ الَّتي كانَتْ مُهْداةً إلى خاقانِ الصِّينِ - وَكانَتِ الجِيادُ قَدْ تَكاثَرَتْ مُنْذُ وُصولِها إلى الجَزيرَةِ وَنَقْلِها إلى مندناو - وتَرَكَ ما زادَ عَلى ذَلِكَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ . كَما حَمَلَ مَعَهُ المَجانيقَ المُهْداةَ إلى مَلِكِ سَرَنْديبَ بَعْدَ أنْ ساعَدَ أهْلَ مندناو عَلى صُنْعِ مِثْلِها . وَقَدَ فَعَلَ إيادٌ ما فَعَلَ لِيَرُدَّ الأمانَةَ إلى أهْلِها مَتى تَيَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ .

وَدَنَتْ ساعَةُ الرَّحيلِ فَحَمَّلَ إيادٌ السَّفينَةَ بِالمُؤَنِ وَالأعْلافِ وَالمِياهِ، وَطَلَبَ مِنَ المَلِكِ أنْ يُمِدَّهُ بِبَعْضِ الرِّجالِ حَتَّى يَصِلَ إلى ميناءِ شِنْغَهاي ، فَيَعودَ مِنْهُمْ مَنْ شاءَ العَوْدَةَ . وَبَعَثَ المَلِكُ مَنْ يُنادي في النَّاسِ بِالتَّطَوُّعِ لِلإبْحارِ مَعَ إيادٍ ؛ فَتَطَوَّعَ خَلْقٌ كَثيرٌ اخْتارَ إيادٌ أصْلَحَهُمْ . وَأهْدى المَلِكُ إياداً - في يَوْمِ رَحيلِهِ - تُحَفاً ثَمينَةً مُتَمَنِّياً لَهُ السَّلامَةَ . أمَّا أبْناءُ مندناو فَقَدْ وَدَّعوهُ وَكَأنَّهُمْ يُوَدِّعونَ أحَدَ

أبْطالِهِمْ . وَصَعِدَ إيادٌ إلى سَفينَتِهِ وَأمَرَ مَلاحيهِ بِبَسْطِ الأشْرِعَةِ ، وَ وَجَّهَ مُقَدِّمَتَها شَمالاً صَوْبَ بَحْرِ الصِّينِ .

وَفي إحْدى الجُزُرِ المُقابِلَةِ الَّتي أوى إلَيْها الغُزاةُ وَمَعَهُمُ المَلِكُ الغاصِبُ المَطْرودُ ، كانَ ابْنُ صَيْفورٍ يَتَسَقَّطُ الأنْباءَ ؛ فَعَلِمَ بِرَحيلِ إيادٍ مِنْ مندناو ؛ فَطَلَبَ تَزْويدَهُ بِالرِّجالِ زاعِماً أنَّهُ سَيُبْحِرُ سَعْياً وَراءَ كَنْزٍ عَظيمٍ ، يَعودُ عَلَيْهِمْ جَميعاً بِخَيْرٍ عَميمٍ ؛ فَانْضَمَّ إلَيْهِ رِجالٌ طَمَعاً في الغَنيمَةِ .

وَمَرَّتِ السَّفينَةُ « سالمة » بِعَدَدٍ مِنَ الجُزُرِ قَبْلَ أنْ تَخْرُجَ إلى بَحْرِ الصِّينِ . وَكَمْ كانَتْ فَرْحَةُ إيادٍ عِنْدَما عَلِمَ مِنْ أهْلِ إحْدى تِلْكَ الجُزُرِ ، أنَّ قارِبًا يَحْمِلُ بَحّارَةً ألْقَتْ بِهِمُ العاصِفَةُ عَلى ساحِلِ تِلْكَ الجَزيرَةِ ، فَمَكَثوا بِها حَتَّى جاءَتْ سَفينَةٌ فاسْتَأجَرَهُمْ رُبّانُها وَأبْحَرَتْ بِهِمْ .

وَعَزَمَ إيادٌ عَلى أنْ يَبْحَثَ عَنْ رِفاقِهِ البَحّارَةِ ما وَسِعَهُ إلى ذَلِكَ سَبيلٌ . وَبَعْدَ عِدَّةِ أسابيعَ ألْقَتْ « سالمة » مِرْساتَها في ميناءِ شِنْغهاي ، وَأذِنَ إيادٌ بِالعَوْدَةِ لِمَنْ شاءَ مِنَ البَحّارَةِ الَّذينَ رافَقوهُ ، ثُمَّ نَزَلَ إلى الميناءِ لِيُقابِلَ رُسُلَ الخاقانِ وَيَتَّفِقَ مَعَهُمْ عَلى تَسْليمِ الخُيولِ ، وَلِيَسْتَأجِرَ بَحّارَةً عِوَضاً عَمَّنْ آثَروا العَوْدَةَ .

وَبَيْنَما كانَتِ الخُيولُ تَهْبِطُ مِنَ السَّفينَةِ لاحَظَ إيادٌ – أثْناءَ تَبادُلِ

عِباراتِ التَّحِيَّةِ وَالمُجامَلَةِ مَعَ رُسُلِ الخاقانِ – أَنَّ أَحَدَهُمْ يُرَدِّدُ بَعْضَ عِباراتِ التَّحِيَّةِ بِأَلْفاظٍ عَرَبِيَّةٍ ، فَأَسْرَعَ يُقَلِّبُ قِلادَتَهُ عَلى وَجْهِها الآخَرِ ، وَيَسْأَلُهُ إِنْ كانَتْ بَعْضُ السُّطورِ مَكْتوبَةً بِاللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ ، وَعَنْ مَعْناها إِنْ كانَتْ كَذلِكَ .

وَحَدَّقَ الرَّجُلُ إِلى القِلادَةِ ، وَجَعَلَ يَبْتَسِمُ وَهُوَ يُرَدِّدُ : « أينا هاينا .. أينا هاينا .» فَظَنَّ إِيادٌ أَنَّ الرَّجُلَ يَسْتَفْسِرُ مِنْهُ عَنْ مَواضِعِ الأَلْفاظِ الَّتي يُريدُ قِراءَتَها ؛ فَجَعَلَ يُشيرُ بِأُصْبُعِهِ إِلى تِلْكَ المَواضِعِ ، فَلَمْ يَزِدِ الرَّجُلُ عَلى تَرْديدِ تِلْكَ العِبارَةِ .

وَأُسْقِطَ في يَدِ إِيادٍ وَبَدا اليَأْسُ مُرْتَسِماً عَلى وَجْهِهِ وَهُوَ يُوَدِّعُ الرُّسُلَ ، غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ تَوَقَّفَ وَأَمْسَكَ بِالقِلادَةِ وَقَلَّبَها عَلى وَجْهِها ، وَقالَ وَهُوَ يُشيرُ بِسَبَّابَتِهِ إِلى مَوْضِعِ عِبارَةٍ في النَّقْشِ : « وايكيكي !» ثُمَّ لَحِقَ بِرِفاقِهِ وَلَمْ يُعَقِّبْ.

وَقَفَ إِيادٌ هُنَيْهَةً صامِتاً يُفَكِّرُ فيما قالَهُ الرَّجُلُ : تُرى هَلْ كانَ يَعْني أَنْ تِلْكَ الكِتابَةَ هِيَ اسْمُ مَوْضِعٍ في وايكيكي ؟ كَمْ تَمَنّى لَوْ كانَ كالاواهو حَيا فَيَعْرِفَ المَقْصودَ بِعِبارَةِ « أينا هاينا » الَّتي كانَ يُرَدِّدُها ذَلِكَ الرَّجُلُ الصِّينِيُّ . وَتَذَكَّرَ إِيادٌ أَنَّ كالاواهو أَخْبَرَهُ بِأَنَّ قَرْيَتَهُ تُدْعى « هليوه » ؛ فَقَرَّرَ الذَّهابَ إِلَيْها لِيُطْلِعَ أَهْلَها عَلى ما جَرى لِكالاواهو ، وَيَسْأَلَهُمْ عَنِ المَقْصودِ بِتِلْكَ العِبارَةِ .

الفصل الحادي والعشرون

خِيانَةٌ قديمَةٌ

لَمْ يَعُدْ أمامَ إيادٍ ما يَفْعَلُهُ قَبْلَ الإبْحارِ إلى وايكيكي سِوى العُثورِ في ميناءِ شنغهاي عَلى سَفينَةٍ عائِدَةٍ إلى البَصْرَةِ ، يَقْبَلُ رُبّانُها حَمْلَ المَجانيقِ إلى مَلِكِ سَرَنْديبَ لِقاءَ صَكٍّ ، فَيَكونُ بِذَلِكَ قَدْ وَفّى بِذِمَّةِ رُبّانِ سَفينَتِه السّابِقَةِ . واعْتَزَمَ أنْ يَحْفَظَ ما يُحَقِّقُهُ مِنْ رِبْحٍ لِيُقَسِّمَهُ عَلى بَحّارَةِ تِلْكَ السَّفينَةِ ورُبّانِها أوْ ذَويهِمْ . كَما عَلِمَ أنَّ سَفينَةً عَرَبِيَّةً قَدْ رَسَتْ لِلتَّوِّ في الميناءِ ، فَاسْتَقَلَّ قارِبًا حَمَلَهُ إلى مَكانِها ، وَنادى رُبّانَها فَدَعاهُ إلى الصُّعودِ . وَلَمْ يَسْتَطِعْ إيادٌ مُغالَبَةَ تَأثُّرِهِ وَفَرْحَتِهِ بَعْدَ أنْ مَرَّ عَلَيْهِ أكْثَرُ مِنْ عامَيْنِ لَمْ يَرَ فيهِما مَخْلوقًا مِنْ بِلادِهِ .

وَالْتَفَّ البَحّارَةُ حَوْلَهُ لَمّا عَلِموا بِأصْلِهِ ، وَخاصَّةً حينَ عَلِموا أنَّهُ ابْنُ السِّنْدِبادِ البَحّارِ المَشْهورِ . وَذَكَرَ إيادٌ لِلرُّبّانِ مَسْألَةَ المَجانيقِ ،

فَرَحَّبَ بِحَمْلِها مَعَهُ في طَريقِ العَوْدَةِ إلى سَرَنْديبَ ، أَوْ إعادَتِها إلى البَصْرَةِ إنْ لَمْ تَتَحَسَّنِ الأحْوالُ في الجزيرَةِ . وَسَأَلَ إِيادٌ البَحّارَةَ إنْ كانَ أحَدُهُمْ مِنَ البَصْرَةِ لِيُحَمِّلَهُ رِسالَةً إلى أَهْلِهِ ، فَجَعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُخْبِرُهُ عَنْ مَوْطِنِهِ . وَعِنْدَما عَلِمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ مِنَ الأنْدَلُسِ لَمْ يَتَمالَكْ نَفْسَهُ مِنَ العَجَبِ ، فَهَتَفَ قائِلاً : « مِنَ الأنْدَلُسِ ؟ ما أَعْجَبَ الصُّدَفَ !»

رَدَّ أَحَدُهُمْ : « ما وَجْهُ العَجَبِ ؟»

« كُنْتُ أُريدُ أَنْ أَلْقى أَحَداً مِنَ الأنْدَلُسِ يُخْبِرُني عَنْ رَجُلٍ يُدْعى ابْنَ صَيْفورٍ ؟»

« ابْنَ صَيْفورٍ ؟ كَيْفَ الْتَقَيْتَهُ ؟ وَمَتى ؟»

« هَلْ تَعْرِفُهُ ؟»

« لَيْسَ في الأنْدَلُسِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بِابْنِ صَيْفورٍ أَوْ بِما عَمِلَهُ !»

« أَ مَشْهورٌ هُوَ إلى هذا الحَدِّ ؟»

« إنْ كانَتِ الخِيانَةُ سَبيلاً إلى الشُّهْرَةِ فَهُوَ إذاً أَشْهَرُ النّاسِ !»

« الخِيانَةُ !»

وَتَدَخَّلَ أَحَدُ البَحّارَةِ الأنْدَلُسِيّينَ في الحَديثِ قائِلاً : « دَعوني

أخبِرْ ضَيْفَنا بِأمْرِ ابْنِ صَيْفورٍ ؛ فَقَدْ كانَ جاري وَفَقَدْتُ أسْرَتي وَداري بِسَبَبِهِ .»

وَاشْرَأبَّتِ الأعْناقُ وَأرْهِفَتِ الآذانُ لِسَماعِ البَحّارِ ، الَّذي مَضى يَقولُ : « لَقَدْ أصْبَحَ هَذا الرَّجُلُ ذا حُظْوَةٍ كَبيرَةٍ لَدى الخَليفَةِ في غَرْناطَةَ ، حَتّى إنَّهُ كانَ لا يَقْطَعُ أمْرًا دونَهُ ، وَجَعَلَهُ قَيِّمًا عَلى خَزائِنِ الدَّوْلَةِ . وَلَكِنَّهُ قابَلَ الكَرَمَ بِالخِيانَةِ فَأخَذَ يَتَّصِلُ سِرًّا بِالأعْداءِ وَيُمِدُّهُمْ بِالبارودِ ، وَلَمْ يَكونوا يَعْرِفونَ سِرَّ صَنْعَتِهِ . وَجَنى الرَّجُلُ ثَرْوَةً طائِلَةً مِنْ ذَلِكَ . وَظَلَّ هَكَذا زَمَنًا حَتّى انْكَشَفَ أمْرُهُ عِنْدَما جاءَ رُسُلٌ مِنْ بِلادِ العَدُوِّ مُتَنَكِّرينَ في ثِيابِنا ، يَطْلُبونَ المَزيدَ مِنَ البارودِ . وَكانَ الرَّجُلُ في بَعْضِ شَأنِهِ خارِجَ الدّارِ وَمَعَهُ ابْنَةٌ لَهُ .»

وَتَجَمَّعَ مَزيدٌ مِنَ البَحّارَةِ يُريدونَ سَماعَ ما جَرى ، وَاسْتَطْرَدَ البَحّارُ قائِلاً : « وَأبى رُسُلُ العَدُوِّ المُكوثَ حَتّى يَعودَ ابْنُ صَيْفورٍ فَيُعْطِيَهُمْ ما جاءوا لأجْلِهِ . وَقادَتْهُمُ امْرَأتُهُ إلى القَبْوِ الَّذي يُخْفي فيهِ البارودَ ، وَكانَ في يَدِها سِراجٌ يُنيرُ لَها الطَّريقَ . وَأخَذَتْ تَفْتَحُ بَراميلَ البارودِ لِيَأخُذَ الرِّجالُ ما يَحْتاجونَ . وَيَبْدو أنَّ بَعْضَ قَطَراتِ الزَّيْتِ المُشْتَعِلَةِ تَساقَطَتْ عَلى البارودِ ؛ فَقَدْ رُوِّعَتِ المَدينَةُ بِدَوِيٍّ هائِلٍ تَحَطَّمَتْ عَلى أثَرِهِ دارُ ابْنِ صَيْفورٍ وَالدّورُ المُجاوِرَةُ وَمِنْها داري الَّتي خَرَّ سَقْفُها عَلى أهْلي فَقَضَوْا نَحْبَهُمْ جَميعًا . وَقَدْ قُتِلَتِ امْرَأةُ ابْنِ صَيْفورٍ

وَبَعْضُ رِجالِ العَدُوِّ في حينَ أصيبَ بَعْضُهُمْ بِجِراحٍ أقْعَدَتْهُمْ عَنِ الفِرارِ ؛ فَوَقَعوا في الأَسْرِ وَاعْتَرَفوا بِخِيانَتِهِمْ وَخِيانَةِ ابْنِ صَيْفورٍ .

« وَيَبْدو أَنَّ ابْنَ صَيْفورٍ عَلِمَ بِأمْرِ الانْفِجارِ وَهُوَ في طَريقِ عَوْدَتِهِ إلى غَرْناطَةَ ، حَيْثُ كانَ جُنودُ الخَليفَةِ في انْتِظارِهِ ، فَلَمْ يَعُدْ إلَيْها قَطُّ بَلْ يَمَّمَ شَطْرَ السَّاحِلِ إلى أقْرَبِ ميناءٍ وَاسْتَقَلَّ سَفينَةً هُوَ وَابْنَتُهُ، وَانْطَلَقا مُبْتَعِدَيْنِ عَنْ سُلْطانِ خَليفَةِ الأَنْدَلُسِ ، لِيَدْخُلا تَحْتَ سُلْطانِ خَليفَةِ بَغْدادَ ، وَكَفَلَ لَهُ التَّنافُرُ بَيْنَ الخِلافَتَيْنِ حَياةً آمِنَةً مِنَ العِقابِ . وَلَمَّا عَلِمْتُ بِمُقامِهِ في البَصْرَةِ قَصَدْتُ إلَيْها مَعَ بَعْضِ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ ؛ عازِمينَ عَلى كَشْفِ أَمْرِهِ حَتَّى يَنالَ العِقابَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ . وَيَبْدو أَنَّهُ سَمِعَ بِمَقْدَمِنا فَآثَرَ الفِرارَ . »

كانَ إيادٌ يَسْتَمِعُ لِلْحَديثِ وَالأَلَمُ يَعْتَصِرُ فُؤادَهُ مِمَّا جَرى لأهْلِ ذَلِكَ البَحَّارِ . وَغَمَرَهُ الأسى مِمَّا جَرى لِبِلادِ الخِلافَةِ مِنْ وَهَنٍ وَتَمَزُّقٍ ، وَإنْ زايَلَهُ العَجَبُ مِنْ مُغادَرَةِ ابْنِ صَيْفورٍ لِلْبَصْرَةِ فَجْأَةً بَعْدَ أَنْ عَرَفَ سَبَبَ ذَلِكَ . وَاعْتَذَرَ إيادٌ لِلْبَحَّارِ الأَنْدَلُسِيِّ لِكَوْنِهِ جَعَلَهُ يَسْتَرْجِعُ ذِكْرَياتٍ أَليمَةً ، وَشَكَرَهُ عَلى إطْلاعِهِ عَلى أَمْرِ ابْنِ صَيْفورٍ. ثُمَّ اتَّجَهَ إلى مَقْصورَةِ الرُّبَّانِ لِلاتِّفاقِ عَلى طَريقَةِ نَقْلِ المَجانيقِ مِنْ سَفينَتِهِ إلى تِلْكَ السَّفينَةِ .

وَرَجَعَ إِيادٌ بَعْدَ ذَلِكَ إلى سَفينَتِهِ فَوَجَّهَها لِتَرْسُوَ بِمُحاذاةِ السَّفينَةِ العَرَبِيَّةِ الأُخْرى ، وَطَلَبَ مِنَ البَحَّارَةِ مَدَّ الحِبالِ عَلى بَكَراتٍ بَيْنَ صَواري السَّفينَتَيْنِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ تُرْبَطَ المَجانيقُ في تِلْكَ الحِبالِ ، وَطَلَبَ مِنْ بَحَّارَةِ السَّفينَةِ الأُخْرى شَدَّ الحِبالِ ؛ فَأَخَذَتْ تَنْزَلِقُ عَلى البَكَراتِ حامِلَةً المَجانيقَ واحِداً بَعْدَ الآخَرِ . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَ إِيادٌ مِنْ نَقْلِ آخِرِ المَجانيقِ وَدَّعَ رُبَّانَ السَّفينَةِ وَمَلّاحيها ، وَأَقْلَعَ قاصِداً وايكيكي .

الفصل الثاني والعشرون

في بِلادِ واقِ الواق

كانَتْ مِياهُ المُحيطِ هادِئَةً مُعْظَمَ الرِّحْلَةِ ، وَعِنْدَما كانَتِ الأَمْواجُ تَرْتَفِعُ أَحْيانًا تَظَلُّ السَّفِينَةُ ثابِتَةً فَوْقَ الماءِ ؛ فَقَدْ كانَ بَدَنُها مَصْنوعًا مِنْ أَخْشابٍ قَوِيَّةٍ انْتَقاها إِيادٌ بِنَفْسِهِ ، وَأَشْرَفَ عَلى تَرْكيبِ أَلْواحِها وَدُسُرِها .

وَبَلَغَتِ السَّفِينَةُ خَليجَ وايكيكي بَعْدَ بِضْعَةِ أَسابيعَ دونَ مَتاعِبَ تُذْكَرُ ، وَأَمَرَ إِيادٌ بِطَيِّ الأَشْرِعَةِ لإِبْطاءِ سُرْعَةِ السَّفِينَةِ . وَمَرَقَتِ السَّفِينَةُ إِلى الخَليجِ بِهُدوءٍ ، وَجَعَلَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ السَّاحِلِ الَّذي أَخَذَتْ مَعالِمُهُ تَتَّضِحُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ، حَتَّى وَصَلَ إِيادٌ إِلى مِنْطَقَةٍ عَميقَةٍ عَلى بُعْدِ أَمْتارٍ مِنَ الشَّاطِئِ ، تَصْلُحُ لِرُسُوِّ السَّفِينَةِ .

وَبَيْنَما كانَ البَحَّارَةُ يُلْقونَ المِرْساةَ ، وَيَمُدّونَ أَلْواحَ النُّزولِ ، تَطَلَّعَ إِيادٌ إِلى الشَّاطِئِ ، وَأَمْكَنَهُ أَنْ يَرى الأَشْجارَ عَنْ كَثَبٍ . وَلَمَحَ بَيْنَ الأَغْصانِ بَعْضَ فَتَياتِ الجَزيرَةِ وَقَدْ زَيَّنَّ جِباهَهُنَّ وَنُحورَهُنَّ وَخُصورَهُنَّ

بِأكاليلِ الأَزْهارِ ، وَاختَبَأنَ بَيْنَ الأَغْصانِ يُراقِبْنَ السُّفُنَ وَمَنْ عَلَيْها. وَبَدَتْ رُءوسُهُنَّ وَكَأَنَّها ثِمارٌ يَحوطُها الوَرْدُ وَالأَزْهارُ ما لَمْ يَأتينَ بِحَرَكَةٍ ، فَإنْ تَحَرَّكْنَ مِنْ مَكانِهِنَّ لِسَبَبٍ أَوْ لآخَرَ ، وَابْتَعَدْنَ عَنْ أَغْصانِ الشَّجَرِ ، بَدَتِ الأَغْصانُ وَكَأَنَّها قَدْ سَقَطَتْ عَنْها ثِمارُها.

وَابْتَسَمَ إِيادٌ وَهُوَ يَتَذَكَّرُ ما قَرَأَهُ في كُتُبِ الرَّحَّالَةِ العَرَبِ عَنْ وَصْفِ تِلْكَ الجِهاتِ . ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى البَحَّارَةِ وَأَذِنَ لَهُمْ بِالنُّزولِ مُتَناوِبينَ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ السَّفينَةَ سَتَرْحَلُ في يَوْمٍ مَعْلومٍ أَجْمَعوا عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يُبْحِروا بِدونِهِ إِذا انْقَضى نَهارُ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ .

وَكانَ أَهْلُ الجَزيرَةِ كُلَّما نَزَلَ أَحَدٌ مِنَ البَحَّارَةِ وَضَعوا حَوْلَ عُنُقِهِ إِكْليلاً مِنَ الأَزْهارِ ، عَلى عادَتِهِمْ في الحَفاوَةِ بِالزّائِرينَ . وَتَزَوَّدَ إِيادٌ بِما يَنْفَعُهُ في بَحْثِهِ ؛ فَحَمَلَ مَعَهُ زادَهُ وَأَدَواتٍ مِمَّا تَنْفَعُ في الحَفْرِ وَحَبْلاً ، ثُمَّ نَزَلَ فَبَحَثَ عَنْ دَليلٍ يَقودُهُ إِلى بَلْدَةِ «حليوه » ، وَقَدْ حَرَصَ عَلى أَنْ يَنْطِقَها « هليوه » كَما يَنْطِقُها أَهْلُ الجَزيرَةِ .

وَ وَجَدَ إِيادٌ دَليلاً يَصْحَبُهُ إِلى تِلْكَ البَلْدَةِ . وَعِنْدَما بَلَغا مَشارِفَها أَنْقَدَهُ إِيادٌ أَجْرَهُ وَصَرَفَهُ .

وَتَقَعُ هليوه عِنْدَ سَفْحِ أحَدِ البَراكينِ الخامِدَةِ الَّتي تَزْخَرُ بِها الجَزيرَةُ ، وَيَكْتَسي الطَّريقُ إلَيْها بِالوَرْدِ وَالأزْهارِ البَديعَةِ الألْوانِ . وَدَخَلَ المَدينَةَ فَأحاطَ بِهِ بَعْضُ أطْفالِها ، وَنَطَقَ أمامَهُمْ بِاسْمِ كالاواهو ، فَاقْتادوهُ إلى إحْدى الدُّورِ . وَلَمْ تُسْعِفْ إياداً الكَلِماتُ لِيُبْلِغَهُمْ بِمَوْتِ كالاواهو ؛ فَأخْرَجَ لَهُمْ كيساً بِهِ نُقودٌ ذَهَبِيَّةٌ وَذَكَرَ لَهُمْ أنَّهُ مِنْ كالاواهو .

وَنَطَقَ إيادٌ بِبِضْعِ عِباراتٍ بِالعَرَبِيَّةِ يُريدُ أنْ يَقولَ إنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ أبيهِ السِّنْدِبادِ ؛ فَنَهَضَ أحَدُ الصِّبْيَةِ وَهُوَ يُشيرُ إلَيْهِ بِأنْ يَنْتَظِرَ ، وَأسْرَعَ يُهَرْوِلُ إلى خارِجِ الدّارِ ، وَما لَبِثَ أنْ عادَ وَهُوَ يَقودُ شَيْخاً كانَ يَتَفَوَّهُ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ بِألْفاظٍ عَرَبِيَّةٍ ، وَيُكَرِّرُ عِبارَةَ « السَّلامُ عَلَيْكُمْ » .

وَ وَجَدَ إيادٌ مَشَقَّةً بالِغَةً في شَرْحِ ما جَرى لِكالاواهو لِذَلِكَ الشَّيْخِ . وَفَهِمَ مِنْهُ أنَّهُ الْتَقى أباهُ السِّنْدِبادَ ، فَقَدْ أخَذَ يُرَدِّدُ اسْمَهُ ، ثُمَّ ما لَبِثَ أنْ قالَ : « أينا هاينا .» فَأيْقَنَ إيادٌ عِنْدَئِذٍ أنَّ ذَلِكَ اسْمُ مَوْضِعٍ ، وَرُبَّما الْتَقى العَجوزُ أباهُ عِنْدَهُ . وَأخْرَجَ إيادٌ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً لَوَّحَ بِها وَهُوَ يَقولُ : « أينا هاينا . » وَفَهِمَ الشَّيْخُ مُرادَهُ فَطَلَبَ مِنَ الصَّبِيِّ مُرافَقَتَهُ إلى ذَلِكَ المَكانِ ، وَ وَضَعَ إيادٌ القِطْعَةَ الذَّهَبِيَّةَ في يَدِ الشَّيْخِ ، وَانْطَلَقَ مَعَ دَليلِهِ الصَّبِيِّ إلى أينا هاينا .

الفصل الثالث والعشرون

مُواجَهَةٌ حاسِمَةٌ

كانَتِ السَّفينَةُ « نَجْمُ الأمَلِ » وَعَلى ظَهْرِها ابْنُ صَيْفورٍ تَدْخُلُ خَليجَ وايكيكي ، بَعْدَ أنْ غادَرَتْ شِنْغهاي في إثْرِ سَفينَةِ إيادٍ. وَلَمْ يَدَعِ الرَّجُلُ بَحّارَتَهُ يَنالونَ أيَّ قِسْطٍ مِنَ الرّاحَةِ ؛ لِرَغْبَتِهِ في الوُصولِ إلى مَكانِ الكَنْزِ قَبْلَ إيادٍ . وَقَدْ سَهُلَ عَلَيْهِ التَّعَرُّفُ على سَفينَةِ إيادٍ لِما رَآهُ مَكْتوبًا عَلَيْها بِالأحْرُفِ العَرَبِيَّةِ ؛ فَأرْسى سَفينَتَهُ بِالقُرْبِ مِنْها ، وَنَزَلَ مُسْرِعًا مَعَ بَعْضِ رِجالِهِ يَتَحَرّى أخْبارَ إيادٍ .

تَقَعُ أينا هاينا إلى الشَّرْقِ مِنْ وايكيكي وَإلى الجَنوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ حليوه ، وَهِيَ أقْرَبُ إلى وايكيكي مِنْها إلى حليوه ، وَلَكِنَّ إيادًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ . وَقَدْ بَلَغَها مَعَ دَليلِهِ الصَّغيرِ لَيْلاً ، فَصَرَفَ إيادٌ الدَّليلَ بَعْدَ أنْ نَفَحَهُ قِطْعَةً ذَهَبِيَّةً أخْرى . وَ وَجَدَ إيادٌ أنَّ مِنْ خَطَلِ الرَّأيِ البَحْثَ عَمّا يُريدُ في عَتَمَةِ اللَّيْلِ ؛ فَجَلَسَ إلى

جِوارِ شَجَرَةٍ وَأَوْقَدَ ناراً لِدَرْءِ خَطَرِ الزّواحِفِ وَالهَوامِّ ، ثُمَّ تناوَلَ بَعْضَ الزّادِ ، وَجَلَسَ يُفَكِّرُ فيما سَيَصْنَعُهُ في غَدِهِ ، وَكَيْفَ يَبْدَأُ بَحْثَهُ . وَظَلَّ يُقَلِّبُ الفِكْرَ حَتّى أَضْناهُ التَّعَبُ ، فَأَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِلنَّوْمِ .

اسْتَيْقَظَ إِيادٌ فَجْراً فَتَوَضَّأَ مِنْ نَبْعٍ قَريبٍ ، وَتَناوَلَ شَيْئًا مِنَ الزّادِ ، حَتّى إذا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ يَمَّمَ شَطْرَ البَلْدَةِ ، مُعْتَزِمًا لِقاءَ كُهولِها فَيَسْأَلُهُمْ عَنِ السِّنْدِبادِ ، لَعَلَّ أَحَدًا الْتَقاهُ أَوْ سَمِعَ عَنْهُ . وَلَمْ يُصِبْ نَجاحًا يُذْكَرُ ؛ فَأَمْثَلُهُمْ ذاكِرَةً لَمْ يَزِدْ عَلى تَرْديدِ اسْمِ السِّنْدِبادِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا .

وَتَمَلَّكَ إِيادًا يَأْسٌ بالِغٌ ، فَجَلَسَ إِلى ظِلِّ شَجَرَةٍ ، يَتَطَلَّعُ إِلى الأُفُقِ تارَةً ، وَيُعْمِلُ فِكْرَهُ تارَةً أُخْرى ، فَها هِيَ ذي رِحْلَتُهُ قَدْ بَلَغَتْ مُنْتَهاها ، وَتَعَرَّضَ أَثْناءَها لأَخْطارٍ لا توصَفُ ، دونَ أَنْ يُقَرِّبَهُ ذَلِكَ خُطْوَةً واحِدَةً مِنْ مَعْرِفَةِ ما جَرى لأَبيهِ ، أَوْ ما كانَ مُرادُ أَبيهِ مِنَ النَّقْشِ المَوْجودِ عَلى القِلادَةِ . وَلَمْ تُطاوِعْهُ نَفْسُهُ عَلى مُغادَرَةِ المَكانِ ، وَآثَرَ أَنْ يَمْكُثَ فيهِ أَطْوَلَ فَتْرَةٍ مُمْكِنَةٍ قَبْلَ أَنْ يَعودَ أَدْراجَهُ .

وَطَفِقَ إِيادٌ يُرَدِّدُ عِبارَةَ « أينا هاينا » بِصورَةٍ لا شُعورِيَّةٍ ، مُحاوِلاً أَنْ يَجِدَ لَها أَيَّ مَعْنًى : فَهَلْ هِيَ اسْمٌ لِمَوْضِعٍ ، أَمْ أَنَّها عِبارَةُ « أَيْ هُنا » الاسْتِفْهامِيَّةُ وَحُرِّفَتْ في لُغَةِ وايكيكي ؟ وَلِمَ كُتِبَتْ بِاللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ بِحَيْثُ تُنْطَقُ أينا هاينا وَبِها أَلِفانِ مَمْدودَتانِ ، فَلَكَأَنَّها

جَميعًا وَبيْنَها حَرْفُ الهاءِ أَرْبعُ مَآذِنَ بيْنَها قُبَّةٌ ؟ وَجعَلَ يَخُطُّ ذَلِكَ أمامَهُ عَلى الرَّمْلِ ؛ فَمرَّةً يكْتُبُ « أَيْنَ هُنا » وَمرَّةً « أينا هاينا » ؛ عَسى أنْ يَجِدَ حَلًّا لِذَلِكَ اللُّغْزِ .

وَرأى أنَّ الخَيالَ قَدْ شَطَّ بِهِ بَعيدًا فَنَهضَ لِيعودَ إلى السَّفينَةِ وَأجالَ بَصرَهُ بِبُطْءٍ في المَكانِ لِيَمْلأَ عَيْنَيْهِ مِنْهُ قَبْلَ انْصِرافِهِ ، وَتَسمَّرَتْ عَيْناهُ عَلى مَنْظَرٍ في الأُفُقِ ؛ فَفي خارِجِ المَدينَةِ مِنْ أَسْفَلِها انْتَصَبَتْ أَرْبَعُ شَجَراتٍ باسِقاتٍ تَوسَّطَتْها رَبْوَةٌ مُحَدَّبَةٌ ، فَبَدَتْ وَكَأَنَّها أَرْبَعُ مَآذِنَ بيْنَها قُبَّةٌ . وَأجالَ بَصرَهُ بِبُطْءٍ في كُلِّ ناحيَةٍ لِيَرى إنْ كانَتْ ثَمَّةَ أشْجارٌ غَيْرُها تُشْبِهُها أوْ أنَّها تَنْفَرِدُ بِهَذا وَحْدَها.

وَلَمْ يَجِدْ إيادٌ في مُحيطِ المَدينَةِ أشْجارًا لَها تِلْكَ الهَيْئَةُ ، فَهَلْ يَكونُ هَذا هُوَ المَكانَ المَوْعودَ ؟ وَهَلْ أَوْشَكَ عَلى الوُقوفِ عَلى سِرِّ القِلادَةِ وَكَشْفِ لُغْزِها ، وَمَعْرِفَةِ ما جَرى لأبيهِ ، أَمْ أنَّهُ ما بَرِحَ يَجْري وَراءَ سَرابٍ ؟

وَأرادَ إيادٌ أن يَقْطَعَ الشَّكَّ بِاليَقينِ ؛ فَانْطَلَقَ يَعْدو صَوْبَ الرَّبْوَةِ، وَلمَّا بَلَغَ أَسْفَلَها تَسلَّقَها وَجَعَلَ يُعايِنُها مِنْ جَميعِ جَوانِبِها . وَكانَتِ الرَّبْوَةُ مَكْسُوَّةً بِالعُشْبِ الأخْضَرِ الَّذي تَتَخَلَّلُهُ أزْهارٌ مُخْتَلِفَةُ الألْوانِ . وَانْتَزَعَ إيادٌ غُصْنًا مِنْ شَجَرةٍ وَجَعَلَ يَضْرِبُ بِهِ جَوانِبَ الرَّبْوَةِ ؛ لِيَعْلَمَ إنْ كانَتْ مُجَوَّفَةً أَوْ مُصْمَتَةً . وَأصابَ الغُصْنُ مَكانًا

رَخوًا ؛ فَأعْمَلَ إيادٌ سِكّينَهُ فيهِ حَتّى أزاحَ التُّرابَ عَنْ صَخْرَةٍ بَدا لَهُ أنّها وُضِعَتْ عَمْدًا ، فَظَلَّ يُعالِجُها بِما حَمَلَهُ مِنْ أدواتٍ حَتّى تَحَرَّكَتْ ، فَأخَذَ يُزَحْزِحُها عَنْ مَوْضِعِها حَتّى انْفَرجَتْ عَنْ مَنْفَذٍ ضَيِّقٍ مُنْزَلِقٍ ، جَعَلَ يُوَسِّعُهُ بِأدواتِهِ لِيَسْهُلَ لَهُ النُّزولُ مِنْهُ وَالصُّعودُ إلَيْهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فيهِ بِحَذَرٍ فَوَجَدَهُ يُؤَدّي إلى كَهْفٍ لَمْ يَتَبَيَّنْ مَعالِمَهُ .

وَألْقى إيادٌ بِحَجَرٍ في الكَهْفِ فَسَمِعَ ارْتِطامَ الحَجَرِ بِالأرْضِ وَقَدَّرَ عُمْقَهُ . وَ وَجَدَ أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ التَّحايُلِ لِلنُّزولِ إلَيْهِ وَالصُّعودِ مِنْهُ ، فَتَسَلَّقَ أقْرَبَ الشَّجَراتِ إلى فُتْحَةِ الكَهْفِ ، وَرَبَطَ حَبْلاً في



غُصْنٍ مَتينٍ مِنْها ، ثُمَّ هَبَطَ وَبَحَثَ عَنْ صَخْرَةٍ ثَقيلَةٍ حَتَّى وَجَدَهـا ، فَأَخَذَ يُدَحْرِجُها حَتَّى أَصْبَحَتْ قُرْبَ فُتْحَةِ الكَهْفِ ، فَرَبَطَ الحَبْلَ حَوْلَها رَبْطًا مُحْكَمًا ، تارِكًا مِنْهُ ما يَكْفي لِكَيْ يَتَدَلَّى هُوَ وَالصَّخْرَةُ إلى قاعِ الكَهْفِ لِيَنْحَنِيَ غُصْنُ الشَّجَرَةِ مِنْ ثِقْلِهِما، حَتَّى إذا أَرادَ الخُروجَ قَطَعَ الحَبْلَ المَشْدودَ إلى الصَّخْرَةِ فَيَرْتَدُّ الغُصْنُ إلى مَكانِهِ جاذِبًا الحَبْلَ الَّذي يَتَعَلَّقُ بِهِ ، فَيَصْعَدُ مَعَهُ إلى خارِجِ الكَهْفِ .

وَهَبَطَ إِيادٌ مَعَ الصَّخْرَةِ إلى قاعِ الكَهْفِ . وَلَمَّا وَطِئَتْ قَدَماهُ الأَرْضَ أَشْعَلَ عوداً يابِساً وَأَجالَ بَصَرَهُ في أَرْجاءِ الكَهْفِ لِيَتَبَيَّنَ ما فيهِ عَلى ضَوْءِ الشُّعْلَةِ . وَأَخَذَ يَفْعَلُ ذَلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَعَوَّدَتْ عَيْناهُ قَليلاً عَتَمَةَ الكَهْفِ . وَاسْتَطاعَ أَنْ يُمَيِّزَ في رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنْهُ كَوْمَةً مُرْتَفِعَةً عَلَيْها بَعْضُ الأَغْصانِ وَالحَشائِشِ الجافَّةِ ، فَاتَّجَهَ نَحْوَها بِقَلْبٍ يَتَعاوَرُهُ الرَّجاءُ وَخَشْيَةُ الإحْباطِ ، وَأَزاحَ الأَغْصانَ وَالحَشائِشَ بِيَدِهِ ؛ فَوَجَدَ تَحْتَها تُرابًا كَثيفًا أَزاحَهُ أَيْضاً لِيَبْرُزَ مِنْ تَحْتِهِ صُنْدوقٌ خَشَبِيٌّ لَهُ قُفْلٌ مِنْ نُحاسٍ صَدِئٍ . وَاقْتَرَبَ مِنَ الصُّنْدوقِ بِبُطْءٍ ، وَجَثا إلى جانِبِهِ وَجَعَلَ يُعالِجُ القُفْلَ بِسِكِّينِهِ حَتَّى انْفَتَحَ . وَكادَتْ نارُ العودِ تَذْوي فَأَشْعَلَ غُصْنًا يابِساً آخَرَ ، وَفَتَحَ الصُّنْدوقَ وَنَظَرَ فَرَأى قِرْطاساً مَطْوِيًّا وَبِداخِلِهِ شَيْءٌ .



وَأخْرَجَ إيادٌ القِرْطاسَ بِرِفْقٍ وَبَسطَهُ بِحَذَرٍ لِئَلّا يَتفَتَّتَ ، فَوَجدَ بِهِ ما يُشْبِهُ القِلادَةَ الَّتي يَضَعُها على صَدْرِهِ . وَتَأَمَّلَها فَوجَدَ على وَجْهِها ما يُشْبِهُ المَعالِمَ الجُغْرافِيَّةَ ، أَمَّا الوَجْهُ الآخَرُ فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَ وَجَدَ إيادٌ أنَّ القِلادَتَيْنِ تَنْطَبِقانِ على بَعْضِهِما لِتَأخُذا شَكْلَ الكُرَةِ ، فَضَمَّهُما حَتَّى الْتَأمَتا تَمامًا ، وَ وَضَعَ تِلْكَ القِلادَةَ على صَدْرِهِ في اعْتِزازٍ ، ثُمَّ قَرَّبَ الغُصْنَ المُشْتَعِلَ مِنَ القِرْطاسِ لِيَقْرَأَ ما فيهِ . وَما كادَ يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ وَيَهُمُّ بِطَيِّ القِرْطاسِ حَتَّى سَمِعَ جَلَبَةً عِنْدَ فُتْحَةِ الكَهْفِ .

وَاسْتَطاعَ إِيادٌ أَنْ يُمَيِّزَ صَوْتَ ابْنِ صَيْفورٍ مِنْ بَيْنِ المُتَكَلِّمينَ : فَأَطْفَأَ الغُصْنَ المُشْتَعِلَ سَريعاً بَعْدَ أَنْ تَعَوَّدَتْ عَيْناهُ مَعالِمَ الكَهْفِ . وَهَبَطَ ابْنُ صَيْفورٍ وَرِجالُهُ ، وَأَخَذَ يُنادي إِياداً قائِلاً : « اُبْرُزْ ، يا إِياد ؛ فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ بِالكَهْفِ ! لا جَدْوى مِنِ اخْتِبائِكَ ؛ فَلَقَدِ اقْتَفَيْتُ أَثَرَكَ مُنْذُ نَزَلْتَ في وايكيكي وَذَهَبْتَ إِلى حليوه ، ثُمَّ قَصَدْتَ إِلى أَينا هاينا !»

وَعَلِمَ إِيادٌ أَنَّ ابْنَ صَيْفورٍ أَوْ أَحَدَ رِجالِهِ لَنْ يَلْبَثَ أَنْ يوقِدَ جَذْوَةً فَيُصْبِحَ مَكانُهُ ظاهِراً ؛ فَجَعَلَ يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكانٍ إِلى مَكانٍ بِسُرْعَةٍ ؛ لِتَضْليلِ الرِّجالِ وَإِبْعادِهِمْ عَنْ حَبْلِ الصُّعودِ ، وَهُوَ يُخاطِبُ ابْنَ صَيْفورٍ قائِلاً : « ماذا جاءَ بِكَ في أَثَري ، يا ابْنَ صَيْفورٍ ؟»

« لا شَأْنَ لَكَ بِذَلِكَ ، وَدَعِ الكَنْزَ نَتْرُكْكَ تَخْرُجُ سالِماً !»

« أَيُّ كَنْزٍ ، يا رَجُلُ ؟ إِنَّ طَمَعَكَ فيما لَيْسَ لَكَ سَيورِدُكَ مَوارِدَ التَّهْلُكَةِ !»

« دَعِ الوَعْظَ وَاتْرُكِ الكَنْزَ قَبْلَ أَنْ نَنْتَزِعَهُ مِنْكَ بِالسَّيْفِ !»

« أَلَمْ يَكْفِكَ أَنَّ طَمَعَكَ وَخِيانَتَكَ كَلَّفا امْرَأَتَكَ حَياتَها ؟»

وَأَدْرَكَ ابْنُ صَيْفورٍ أَنَّ خِيانَتَهُ قَدِ انْكَشَفَتْ وَلَمْ يَعُدْ آمِناً مِنَ الحِسابِ ، فَازْدادَ ضَراوَةً ، وَتَحَسَّسَ الأَرْضَ فَوَجَدَ غُصْنَ شَجَرَةٍ

فَالْتَقَطَهُ وَأشْعَلَهُ ، لِيَجِدَ إياداً حامِلاً الصُّنْدوقَ في يَدِهِ ، فَأشارَ إلى رِجالِهِ بِانْتِزاعِهِ مِنْهُ . وَهَجَمَ الرِّجالُ عَلى إيادٍ فَأخَذَ يُراوِغُهُمْ حَتَّى ابْتَعَدوا عَنِ الحَبْلِ ، ثُمَّ أَلْقى بِالصُّنْدوقِ نَحْوَ رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنْ أرْكانِ الكَهْفِ .

وَانْطَلَقَ الرِّجالُ جَميعُهُمْ نَحْوَ الصُّندوقِ ، كُلٌّ مِنْهُمْ يُريدُ الوُصولَ إلَيْهِ قَبْلَ الآخَرِ . وَلَحِقَ بِهِمُ ابْنُ صَيْفورٍ فَخَلا السَّبيلُ أمامَ إيادٍ لِلْوُصولِ إلى الحَبْلِ في غَفْلَةٍ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ الرِّجالُ يُقَلِّبونَ الصُّندوقَ في أيْديهِمْ وَكَأنَّهُمْ لا يُصَدِّقونَ أنَّهُ فارِغٌ . وَانْتَزَعَ ابْنُ صَيْفورٍ الصُّنْدوقَ مِنْهُمْ وَطَفِقَ يُقَلِّبُهُ ، ثُمَّ صاحَ : « لَقَدْ خَدَعَنا الفَتى ! الْحَقوا بِهِ قَبْلَ أنْ يَهْرُبَ !»

وَكانَ إيادٌ قَدْ تَعَلَّقَ بِالحَبْلِ فَصاحَ في ابْنِ صَيْفورٍ قائِلاً : « إنَّ سِرَّ الكَنْزِ في هَذا القِرْطاسِ ، يا ابْنَ صَيْفورٍ !» وَلَوَّحَ إيادٌ بِالقِرْطاسِ ثُمَّ طَوَّحَهُ في الهَواءِ ، فَانْشَغَلوا عَنْ مُطارَدَتِهِ بِالتَّسابُقِ مِنْ أجْلِ الوُصولِ إلى القِرْطاسِ ، كُلٌّ مِنْهُمْ قَبْلَ الآخَرِ ، غَيْرَ عابِئينَ بِصِياحِ ابْنِ صَيْفورٍ فيهِمْ طالِباً مِنْهُمْ تَسْليمَهُ إيّاهُ ، وَهُمْ يَظُنّونَ أنَّ فيهِ ما يَدُلُّهُمْ على مَكانِ الكَنْزِ .

وَانْتَهَزَ إيادٌ فُرْصَةَ انْشِغالِ الرِّجالِ عَنْهُ فَقَطَعَ الحَبْلَ المَشْدودَ إلى الصَّخْرَةِ ، وَارْتَدَّ غُصْنُ الشَّجَرَةِ جاذِباً الحَبْلَ وَرافِعاً إياداً إلى فُتْحَةِ

الكَهْفِ قَبْلَ أنْ يَنْقضَّ عَلَيْهِ رِجالُ ابْنِ صَيْفورٍ . وَكانَ أحَدُ رِجالِ ابْنِ صَيْفورٍ واقِفًا عِنْدَ فُتْحَةِ الكَهْفِ لِحِراسَةِ المَكانِ ، فَتَنَبَّهَ لِما حَدَثَ وَهَجَمَ عَلى إيادٍ الَّذي عاجَلَهُ بِلَكْمَةٍ في بَطْنِهِ ؛ فَهَوى مِنْ فُتْحَةِ الكَهْفِ لِيَلْحَقَ بِأصْحابِهِ .

وَأطَلَّ إيادٌ مِنْ كَوَّةِ الكَهْفِ ؛ فَرَأى رِجالَ ابْنِ صَيْفورٍ يُسَلِّمونَهُ القِرْطاسَ جُزازاتٍ فَيَضَعُها عَلى الأرْضِ بِجِوارِ بَعْضِها بَعْضًا ، وَهُوَ يَسُبُّ وَيَلْعَنُ أولَئِكَ الأغْبِياءَ الَّذينَ يُريدونَ قِراءَةَ سُطورٍ لا يَعْرِفونَ مِنْها حَرْفًا واحِدًا . وَلَمَّا اجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الصَّحيفَةِ أكْثَرُها قَرَّبَ إلَيْها الجُذْوَةَ المُشْتَعِلَةَ ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ ما فيها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَهُوَ لا يُصَدِّقُ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ مَكْتوبًا فيها غَيْرُ هَذا السَّطْرِ الَّذي كادَتْ تَضيعُ مَعالِمُهُ :

« خَيْرُ الكُنوزِ المَعْرِفَةُ ، وَالطَّمَعُ بِئْسَ الرَّاحِلَةُ »

صَرَخَ ابْنُ صَيْفورٍ صَرْخَةً كادَ يَنْشَقُّ لَها قَلْبُهُ ، وَجَعَلَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ وَيَلْطِمُ خَدَّيْهِ وَكَأنَّ مَسًّا أصابَهُ ، وَأعْوانُهُ يَنْظُرونَ إلَيْهِ في دَهْشَةٍ وَغَضَبٍ ، وَيَسْألونَهُ الخَبَرَ وَهُوَ لا يَعْرِفُ بِمَ يُجيبُهُمْ ، فَانْهالوا عَلَيْهِ ضَرْبًا وَهُمْ يَظُنّونَ أنَّهُ خَدَعَهُمْ ، حَتَّى كادوا يَفْتِكونَ بِهِ .

صاحَ بِهِمْ إيادٌ لِيَكُفّوا ، وَألْقى إلَيْهِمْ حَبْلَ الصُّعودِ الَّذي أصْبَحَ أقْصَرَ مِنْ ذي قَبْلُ ، قائِلاً لَهُمْ : « إلَيْكُمْ هَذا الحَبْلَ ، فَإنْ

تعاوَنْتُمْ نَجوْتُمْ ، وَإِنْ تنازَعْتُمْ هَلَكْتُمْ في مَكانِكُمْ وَالحَبْلُ مُعَلَّقٌ فَوْقَكُمْ !» وَقَفَلَ إِيادٌ راجِعًا إِلى وايكيكي .

وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِيادٌ مِنْ كَلامِهِ كانَ ابْنُ صَيْفورٍ يُسْرِعُ لِيَصِلَ إِلى الحَبْلِ قَبْلَ الآخَرينَ ، فَلَمْ يَدَعوهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، بَلْ جعَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُحاوِلُ الإِمْساكَ بِالحَبْلِ قَبْلَ صاحِبِهِ ، فَإِنْ وَجَدَ أَحَدًا وَصَلَ إِلَيْهِ قَبْلَهُ لَكَزَهُ أَوْ لَكَمَهُ أَوْ طَعَنَهُ لِيُخَلِّيَ لَهُ مَكانَهُ . وَتَعالى صِياحُهُمْ وَعِراكُهُمْ حَتَّى وَصَلَتْ أَصْواتُهُمْ إِلى سَمْعِ إِيادٍ بَعْدَ أَنْ مَشى مَسافَةً غَيْرَ قَصيرَةٍ .

وَ واصَلَ إِيادٌ سَيْرَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أُولَئِكَ الحَمْقى لا بُدَّ أَنْ يَثوبوا إِلى رُشْدِهِمْ حينَ يُشْرِفونَ عَلى الهَلاكِ ، أَمّا وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّهُ أَقْوى مِنْ صاحِبِهِ فَلَنْ يَكونَ لِلْعَقْلِ حُكْمٌ بَيْنَهُمْ . وَبَلَغَ إِيادٌ وايكيكي قَبْلَ المَوْعِدِ المَضْروبِ ، فَصَعِدَ إِلى سَفينَتِهِ وَجَهَّزَها بِالمُؤَنِ وَالمِياهِ ، وَانْتَظَرَ حَتَّى عادَ البَحّارَةُ الَّذينَ كانوا عَلى البَرِّ ، ثُمَّ أَمَرَ بِبَسْطِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ ، وَ وَقَفَ إِلى جِوارِ الدَّفَّةِ يَتَطَلَّعُ إِلى القِلادَةِ حينًا وَإِلى البَحْرِ حينًا ، وَقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ لَمْ يَرَهُ البَحّارَةُ مُبْتَسِمًا مِثْلَها مِنْ قَبْلُ .

المغامرات المثيرة

يطلب من : شركة أبو الـ[illegible]ـول للنشر
٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٦٠٨ - ٣٩٢٤٦١٦